

الباب الرابع

في العقائد والاديان

تقديم

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً حول الأديان والعقائد التي كانت سائدة في عصر النبي (ص) وبيئته، وهذه الآيات وان كانت في صدد تفنيد الأديان والعقائد الباطلة ، ومجادلة اصحابها وتقريرهم واقالة الحجج عليهم ، ولفت نظرهم الى ما هم عليه من سخف ، والى ما في اصرارهم على الباطل من بعد عن محجة العقل والمنطق ، ثم في صدد تصحيح العقائد التي كان عليها الكنايون ، ومحاجتهم في ما هم فيه من انحراف ، وإقرار للامور في نصابها الحق ، فان فيها صوراً كثيرة للعقائد والافكار الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر والبيئة .

وقد عقدنا الباب على العقائد والاديان لانها متلازمان من ناحيه وبينهما بعض الفروق من ناحية اخرى . فالدين هو الايمان بمعبود ما والاتجاه اليه ، والمقيدة تشمل الدين بالمعنى المتقدم ، وتشمل التقاليد والافكار وخاصة الدينية منها الراسخة رسوخاً شديداً ، وهذا يقطع النظر عما يمكن ان تناوله الكتابان من معان اخرى لا نرى ضرورة هنا الى التبسط فيها .

وبحثنا في هذا الباب سياتناول وصف وتصوير ما كان من اديان و عقائد
و افكار و تقاليد دينية أو تمت الى الدين بمعنى من معانيه ، كما سياتناول
اليهودية و النصرانية و ما كان لهما من اثر و انتشار في عصر النبي (ص)
و بيئته ، و ما كان يجري حولها و في صدهما من جدال و حجاج . اما
العقائد الاسلامية فانها خارجة عن نطاق الكتاب ، ولن يتناول
البحث منها الا ما كان بينه و بين ما قبل البعث من لحمة و وثيقة قد
لا يكون غني عن الاشارة اليه كما فعلنا في الفصول السابقة .

ولما كان بحث الحج و الاشهر الحرم و تقاليدھا قد دخل في باب
الحياة الاجتماعية فقد اكتفينا بذلك و لم نعد اليه في هذا الباب .

وهكذا سيكون الباب محتويًا بالفصول الآتية :

١ - الشرك و ما ينطوي فيه من عقائد و مظاهر

٢ - المعبودات المادية أو الوثنية

٣ - الملائكة في القرآن و عقائد العرب فيهم

٤ - الجن في القرآن و عقائد العرب فيهم

٥ - اعتراف العرب بالله و تمنيهم بشيئة نبي فيهم

٦ - طبقة الخنفاء أو الصابئين

٧ - اليهودية و النصرانية و مدى انتشارها و اثرها

٨ - الطقوس و العادات و الافكار الدينية المتنوعة الاخرى

الفصل الثاني

الشرك وما ينطوي تحته من عقائد ومظاهر

الشرك عقيدة العرب العامة - صدى هذه العقيدة ومظاهرها - انواع الشرك والشركاء - مدى تعابير الأولياء والشفعاء والشهداء - رجال المشركين الدينيون. رسوخ عقيدة الشفاعة والشفعاء - مدى تعابير الشركاء والأرباب والانداد والآلهة عند المشركين - تحاميلات وتعليقات لتعدد مسميات الشركاء ومدى مدلولاتهم - مظهر خطوة تطورية دينية - تعاميلات وتحاميلات لتعدد الشركاء - صورة مقارنة لما كان عليه الحال في صدد تعدد الشركاء - بحث في عقيدة العرب باتخاذ الله ولداً - صورة طريفة في مجادلة المشركين عن عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله .

- ١ -

إن كلمة الشرك ومشتقاتها ومدلولاتها قد وردت كثيراً جداً في القرآن ، بحيث يستطاع القول إن « الشرك » هو العقيدة العامة التي كانت تسود العرب في بيئة النبي (ص) وعصره ، بل يصح ان يقال إنها كانت العقيدة العربية المحامية .
فأكثر الآيات التي تضمنت الدعوة الى الاسلام او التي خوطب بها غير المسلمين - عدا الكتابيين - او وجهت الى الناس او بالأحرى الى العرب لانهم اول ناس خوطبوا بها في صدد تلك الدعوة تحتوي ما يمت الى موضوع الشرك ومدلوله بسبب ؛ سواء أكان ذلك في سياق الدعوة الى ذلك ، أم الجدل حول ما عليه الناس او العرب من عقائد ، او التنديد بهم والتسفيه لهم لاشراكهم مع الله آلهة اخرى ، ودعاء مادون الله واتخاذ الأولياء والشفعاء الخ .

واطلاق كلمة « الشرك » ومشتقاتها مثل « المشركين » و « الذين اشركوا » و « الشركاء » و « الشريك » في الآيات يتناول كفار العرب في الأعم الأغلب مترافقاً في المكينة منها مع الجدل والتنديد والتحدي والانداز ، وفي المدينة منها مع

العنف والزجر والدعوة الى القمع والبراءة، مما يتسق مع طبيعة عهدي مكة والمدنية كما ترى في الامثلة التالية :

١ - وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركاننا ، فما كان لشركانهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم سواء ما يحكمون
الانعام ١٣٦

٢ - أيشركون مالا يخاف شيناً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتهم أم اتم صامتون
الاعراف ١٩١-١٩٣

٣ - ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً . ورأى المجرمون النار فظنوا (١) أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً الكهف ٥٢-٥٣

٤ - سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماواه النار وبئس مشوى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبونهم بأذنه
آل عمران ١٥١-١٥١

٥ - فاذا انسلكوا اشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون
التوبة ٥-٦

٦ - يا ايها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا
التوبة ٢٨

-٢-

ومدلول الشرك هو « الشرك » مادون الله مع الله في الالهوية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن أن يفهم من معنى الكلمة ومن الآيات المكية التي نقلناها آنفاً ومن آيات كثيرة اخرى منها هذه الآيات :

(١) هنا بمعنى « ايقنوا » وقد ورد بمعنى اليقين في بضع آيات قرآنية .

١ — سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من

الانعام ١٤٨

شيء . . .

٢ — وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا

النحل ٣٥

آباؤنا . . .

٣ — وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . . .

الزخرف ٣٠

وهذا المدلول يسوغ القول ان كلمة « الشرك » لا تعني نوعاً محددًا من العقائد ، وانها كلمة عامة يمكن ان ينطوي فيها عقائد متنوعة ، قد تكون احياناً مختلفة ومتداخلاً بعضها في بعض ، يجمع بينها ضابط عام وهو إشراك ما دون الله مع الله سواء أكان هذا « الدون (١) » وثناً ام ملكاً ام شيطاناً ام قوة من قوى الطبيعة ، وسواء أكان ذلك الاشراك في الالهوية ام الربوبية ام العبادة والطقوس ام بقصد الاستشفاع والرائي .

فالذي يتمعن في الآيات يجد أن بعض الآيات عنيت بالاشراك إشراك مالا يعقل

ولا يسمع ولا يملك شيئاً مع الله في العبادة والاتجاه والدعاء :

« والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون . وإن

تدعوهم الى الهدى لا يسمعون و تراهم ينظرون انيك وهم لا يبصرون . الاعراف ١٩٧-١٩٨

وأن بعضاً آخر عنى إشراك الملائكة والجان مع الله :

١ — وجعوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . . .

الانعام ١٠٠

٢ — ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا

(١) هذا اللفظ بمعاني « غير » و « تحت » و « الأسفل » و « الأقرب » وقد

ورد في الآيات القرآنية التي تحتوي الاشارة الى الشركاء والاولياء والآلهة وعني به

« غير الله » و « من هم من دون الله » اقرأ تفسير الطبري والرازي والخازن مثلاً

في تفسير الآية (٢٣) من البقرة .

سبحانك أنت وإيماناً من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون... سبأ ٤-١
وأن بعضاً آخر يدل على أن الشرك كان يجمع بين الاعتراف بالله كآله اعظم
وبين عبادة الملائكة كشفعاء، مع جعل الآوثان رموزاً مادية لهؤلاء وهو ما عيناها
بكامتي الاختلاط والتدخل :

١ - ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا
عند الله...
يونس ١٨

٢ - قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن
يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل
أفلا تتقون...
يونس ٣١

٣ - والذين اتخذوا من دونه أولياء (١) ما نجد لهم إلا ليقربونا إلى الله زافى...
الزمر ٣

٤ - أفأنتم الآلة والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى
تلك إداً قسمة ضيزى (٢)...
النجم ١٩-٢٢

- ٣ -

وقد عبر عن الشركاء في الآيات تعبيراً متنوعاً أو متعدداً . فذكروا في بعضها
باسم « الشركاء » كما جاء في آيات الأنعام ١٣٦ والكهف ٥٢ والأنعام ١٠٠ التي
نقلناها قبل قليل ، وذكروا في بعضها باسم « الأنداد » :

« وجماعوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار... إبراهيم ٣٠
وذكروا في بعضها باسم الآلهة :

١ - قل لو كان معه آلهة كما يقولون إداً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً...
الاسراء ٤٣

٢ - أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم...
الأنبياء ٢٤

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها : ويقولون (٢) الآلة والعزى ومناة
اصنام وقد أثنوا اسماءها لأنها رموز الملائكة الذين كانوا يعتقدون انهم بنات الله .

وذكروا في بعضها باسم «الأرباب» :

« يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ... يوسف ٩١ »

وذكروا باسم الشفعاء في آية يونس (١٨) التي نقلناها آنفاً .

وذكروا باسم الشهداء :

« وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين ... البقرة ٢٣ »

وذكروا باسم «الأولياء» كما جاء في آية الزمر (٣) التي نقلناها آنفاً أيضاً .

— ٤ —

وتعابير «الأولياء» و«الشفعاء» و«الشهداء» تتضمن معنى التوسل والتوسط والاستنصار أو الحاجة إلى المساعدة والتقرب عند الله .

فالأولياء جمع ولي وهو الحليف أو الموالي . وقد مر بك في فصل العصبية الاجتماعية عن هذه الكلمة وأصل اشتقاقها وهو «الولاء» . ولم يكن العربي يتولى الآخر على هذه الطريقة إلا إذا كان يشعر بحاجة إلى نصر أو مساعدة ؛ فإطلاق هذا التعبير على الشركاء كأنما يعني أن المشرك كان يتخذ من الشركاء «الأولياء» وسيلة للاستنصار والامن والطمانينة بسبب شعوره بالحاجة إلى ذلك ولقد تضمنت إحدى آيات سورة الاسراء هذا المعنى :

« وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له

١١١

ولي من الذل ... »

كما أن آية الزمر التي اشرنا إليها تضمنت المعنى المراد من اتخاذ الأولياء وهو تقريب المشركين عند الله .

والشهداء جمع « شهيد » وتعني الكلمة « الحاضر أو الشاهد » كما قال المفسرون فكانه يريد بهذا التعبير أن يكون للمشرك شهداء يحضرون معه أو يعضدونه في تلبية مطالبه واستجابة دعائه لدى الله . ولقد تعددت اقوال المفسرين^(١) في محمول كلمة « الشهداء » في الآيات التي وردت فيها . فما قيل إنها يريد بها ما اتخذ المشركون

(١) اقرأ الطبري ج ١ ص ١٢٨ والنيسابوري في هامشه ص ١٨٦ والرازي ج ١

ص ٢٢٧ والنسفي في هامشه ص ١٣٩ وقد رجح الرازي أنهم الرؤساء الاحياء

من الشركاء وقد اطلقت عليهم مجازاً ، وإن هذا ما عنته آية البقرة (٢٣) التي نقلناها
قبل . ومما قيل إنه أريد بها الرؤساء الذين يستطيعون المساعدة والنصر والتأييد . وفي
الأنعام آية تجعل صرف سحر هذه الكلمة الى الرؤساء الأحياء أقوى وأرجح وهي :
« قل لهم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم... »

الأنعام ١٥٠

فهذه الآية تقيد ان الشهداء الذين يطلبون دعوتهم للشهادة قد يحضرون وقد
يشهدون . وطبيعي ان هذا لا يحتمل إلا من حي . غير اننا نريد ان نضيف الى هذا
القول الثاني رأياً نظن انه وجيه ، وان المراد يستقيم به اكثر وله مماثلة ما في القرآن
وهو أن القصد من هؤلاء الرؤساء الشهداء هم رؤساء الدين الذين كانوا يلقون
الناس واجباتهم الدينية ، ويسنون لهم او يذكرونهم بتعاليمهم الدينية لا الرؤساء
في الواجهة والغنى والزعامة . ويمكن ان يكون في روح ومضمون آية الأنعام
وسياقها تأييد لهذا التوجيه . لأن الآية جاءت تعقياً على نديد حجاجي في حدد
تحريم الأنعام وتحليلها ، وتطلب دعوة الشهداء ليشهدوا بكون هذا التحريم
والتحليل مشروعين ، ولا يحتمل هذا إلا من شهداء لهم سلطة او رأي ديني
مسموع . وعلى هذا فان المشركين كانوا يستمعون بالدعاء والتوسل ايضاً بهؤلاء او
اوتك او كليهما لانهم اقرب الى الله واحظى بسبب علمهم ورآسهم الدينية او
انقطاعهم للخدمة الدينية ، ويسمونهم شهداء اي حاضرين موجودين عند الاصنام
والاوتان او في بيوتها ، أو منقطعين الامور الدينية ومرجعاً للناس في ما يرغبون
معرفة من مراسيمها ومقاليدها وطقوسها ومشاكلها ؛ كما انه كان هؤلاء سلطة
رجال الدين في الفتيا والتشريع والأمر والنهي النافذين . واذا صح هذا التوجيه
ففيه صورة من الصور الطريفة غير المعروفة عن ذلك العهد ، ومتسقة مع ذلك مع
المنطق والمتعارف ، ومماثلة لما عند الامم الأخرى بل لما لا يزال موجوداً ومتعارفاً
في مختلف البلاد على اختلاف درجاتها في الحضارة .

ولقد جاء في سورة التوبة آيات احتوت حملة على اليهود والنصارى لاتخاذهم

احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله جاء فيها :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ... »

وطبيعي أن وصف الاحبار والرهبان بالربوبية هو بسبيل ما كان لهم على رعاياهم من تأثير شديد يجعل هؤلاء يتلقون أوامرهم كشرع واجب الخضوع والتنفيذ . فوجود رجال ذوو سلطات دينية وسدنة للاوثان والاصنام والكعبة لهم نفوذ وكلام مسموع وسنتهم مطاعة متبوعة متسقى مع طبائع الأعراف في حد ذاته ؛ ولا يبعد ان يكون العرب مع ذلك قد تأثروا في هذا او في تركيزه باليهود والنصارى .

— ٤ —

والشفعاء جمع « شفيع » وهو الذي يتقدم بالشفاعة بآخر محتاج لها لدى من يكون له حظوة عنده من الاقوياء وذوي الطول ، فكأنما كانوا إذ يتخذون شفعاء يعتبرون أن هؤلاء الشفعاء أقرب الى الله منهم واحظى . وفي القرآن آيات تدل على ان الملائكة كانوا ممن يتخذهم المشركون العرب شفعاء باعتبار انهم احظى عند الله منهم ، وكانوا أو كان منهم من يعتقد أنهم بنات الله ، وهذا ما كان يزيدهم في نظرهم حظوة عند الله وقربى :

١ — وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد (١) مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم اني اية من دونه فذاك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ...
الانبياء ٢٦ - ٢٩

٢ — أفرايتم الالة والعزى . ومناة الثامنة الأخرى . لكم الذكر وله الأثني . تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يقبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم الانسان ما تنمى فالله الأخرى والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تنفي شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأثني ...
النجم ٢٠ - ٢٧

على أن بعض الآيات تلهم أن الشفاعة لم تكن محصورة في الملائكة وان من

(١) يعني الملائكة

العرب من كان يعتبر معبوداتهم المادة شفعاء لهم أيضاً :

«أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ..

الزمر ٤٣

فالقرآن الذي مدح الملائكة بما مدحهم به في آيات الانبياء التي نقلناها وغيرها

لا يمكن ان يصفهم بغير العقل ، وبالتالي فلا بد من ان يكون المعنيون غير عاقلين أي اوثاناً .

ويبدو من بعض الآيات أن المشركين كانوا يؤدون لشفعائهم نوعاً من العبادة

حيث كانوا يعاذبون على ذلك فيعتذرون بانهم إنما هم شفعاؤهم عند الله على ما جاء في آية سورة يونس (١٨) التي نقلناها قبل .

وبهذه المناسبة يجدر ان ننبه على كثرة ما ورد في القرآن من الآيات التي

تتضمن كلمة « الشفاعة » ومشتقاتها والتي تنفي نفع الشفاعة وتأثير الشفعاء الذين لا

يرتضيهم الله ولا يأذن لهم . وصيغة الآيات قوية وحازمة ، مما يدل على ان فكرة

الشفاعة والشفعاء مما كان راسخاً ، وان الاعتقاد بفائدتها مما كان قوياً وشائئاً في

اذهان العرب حتى اقتضت الحكمة ان تكون الآيات بهذا الأسلوب لزعزعة هذا

الاعتقاد وإضعافه أو إزالته بالمرّة ، لأنه مؤد الى الشرك عن طريق الاعتقاد بنفع

الشفعاء وتأثيرهم كما ترى في الأمثلة الآتية

١ — واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ...

البقرة ٤٨

٢ — من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة... البقرة ٢٥٤

٣ — يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء

فيشفعوا لنا... الأعراف ٥٣

٤ — لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً... مريم ٨٧

٥ — يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته

مشفقون.... الأنبياء ٢٨

٦ — ويوم تقوم الساعة يباس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء

وكانوا بشركائهم كافرين ... الروم ١٣

٧ - ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ... السجدة ٤

٨ - أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يتفكرون شيئاً ولا

يعقلون ... الزمر ٤٣

٩ - وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله

لمن يشاء ويرضى ... النجم ٢٦

١٠ - فما تنفعهم شفاعة الشافعين ... المدثر ٤٨

ويمكن أن يقال إن أذهان العرب أو أذهان كثير منهم ما كانت - لتسبغ ان دعائهم الى الله يستجاب اذا وجه منهم اليه مباشرة ، وانهم لا بد لهم من وسطاء يختصونهم بالاتجاه المباشر ، ويتوسلون بهم الى الله ويشركونهم في الدعاء ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، فتركزت في أذهانهم فكرة الشفاعة والشفعاء حتى كانت جزءاً من عقائدهم وعباداتهم ، وحتى انقلبت هذه العقيدة الى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر كما يفهم من فحوى الآيات التي اوردناها وامثالها التي لم نوردناها. على ان من الحق ان نستدرك ان عقيدة الشفاعة والشفعاء ليست خاصة بالعرب وانها كانت حتى على النحو الذي كانت عليه عند العرب وما تزال في كل عصر وبيئة وعند كل امة ونحله وسواء منهم الكتابيون وغير الكتابيين وخاصة بين العوام باشكال وصور ومظاهر متعددة ، وان فكرتها انتقلت الى المسلمين وظهرت عندهم كذلك بمظاهر متعددة ايضاً . وقد كان في الآيات التي جاء فيها ان الشفاعة لا تنفع الا ان أذن الله ورضي عامل على انتقال الفكرة واستمرارها . وفي الاحاديث و كتب السيرة والتراجم روايات عديدة تؤيد ذلك . وبطبيعة الحال يجب ان يفهم ان فكرة الشفاعة التي استمرت في الاسلام وعند عقلاء المسلمين هي في الجوهر والاساس فكرة براءة من نزعات الشرك التي حاربها القرآن .

- ٥ -

اما تعابير « الشركاء » و « الأرباب » و « الأنداد » و « الآلهة »

فإنها تتضمن معنى المماثلة والاشتراك مع الله في الربوبية .

فالشريك قسم لشريكه وله وعليه في الشركة نصيب مماثل . ومعنى هذا أن المشركون إذ سموا معبوداتهم شركاء كانوا يعتقدون انهم قسيمون لله في ملكه والتأثير فيه بضر أو نفع بشكل ما ، وهذا ما يمكن أن يفهم من الآيات التي ذكر فيها الشركاء بأسلوب فيه تحد وتهكم وتسفيه ، ونفي بات بان يكون لهم أي نصيب او شركة باي شكل كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فاني تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي الى الحق أفمن يهدي إلى الحق أحق ان يتبع أم من لا يهدي إلا ان يهدي فما لكم كيف تحكمون .
يونس ٣٤ - ٣٥

٢ - الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون .
الروم ٤٠

٣ - قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير .
سبأ ٢٢

٤ - قل ارأيتم شركائكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من من الارض أم لهم شرك في السموات ...
فاطر ٤٠

ومن معاني « الرب » المالك والسيد المطاع وصاحب الامر والشأن ، والمربي والمنشئ . وقد قال الزمخشري إن هذا التعبير لا يطلق أي لا يستعمل بدون اضافة [إلا على الله وحده .

وفي سورة الناس استعملت الكلمة في ما استعملت فيه كلمة الآلهة :

« قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس ... »
١ - ٣

وفي آية سورة يوسف (٣٩) التي نقلناها مقارنة بين الله والارباب ، وهذه المقارنة يمكن ان تحمل معنى استعمال الكلمة في مقام المماثلة لكلمة « الله » و « الآلهة » وهذا المعنى يلمح كذلك في آيات قرآنية اخرى حيث تصف الله برب العالمين ورب السماوات والارض ورب العرش العظيم كما ترى :

١ - قل من رب السماوات والارض قل الله .
الرعد ١٦

٢ - قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ... المؤمنون ٨٦

٣ - الحمد لله رب العالمين ... الفاتحة ١

كما ان هذه الكلمة استعملت في آيات كثيرة في التعبير عن « الله » كما ترى في

الأمثلة التالية :

ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ... الاعراف ٥٥

٢ - رب قد آتيتني من الملك ووهبته لي من تأويل الاحاديث فاطر السماوات

والارض . يوسف ١٠١

٣ - وقل رب ادخلي مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق .

الاسراء ٨٠

٤ - وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي

سبوا يدخلون جهنم داخرين ... غافر ٦٠

فمن هذا يظهر ان تعبير « الرب » وإطلاقه على المعبودات والشركاء يحمل معنى

المماثلة والربوبية والألوهية .

والأنداد جمع « ند » وهو العدل والكفوء والمائل وقد ذكر بعض المفسرين (١)

ان هذه الكلمة تتضمن معنى المخالفة او المضادة بالإضافة الى معنى المماثلة من

« الندود » فكأنما اريد بهذا التعبير الإشارة الى ان المشركين كانوا يعتبرون الشركاء

الذين يتخذونهم أنداداً لله واكفاءً مماثلين ومناظرين له . وفي الآيات الآتية تجسد

هذا المعنى واضحاً بل تجسد في بعضها معنى المماثلة المعارضة او المخالفة التي اشار

اليها المفسر النيسابوري .

١ - ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين

آمنوا أشد حباً لله ولويلي الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن الفتوة لله جميعاً وأن

الله شديد العذاب ... البقرة ١٦٥

٢ - وجعلوا لله أنداداً أيضاً هن سبيلة قل تمتعوا فان مصيركم الى النار .

ابراهيم ٣٠

(١) النيسابوري على هامش الطبري ج ١ ص ١٧٩

٣- وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ...

سبأ ٣٣
وقد ذكر الرازي من جملة الأقوال عن الأنداد أنهم الرؤساء الذين كانوا يأمرون الناس فيطيعونهم كما يطيعون الله . غير أن أكثر الأقوال على أن المراد بالأنداد المعبودات والشركاء ، والآيات الآتية تجعل الرجحان لهذه الأقوال .

والآلهة هو أقوى التعابير في الدلالة على المعبود . ولذلك اطلق في القرآن على الله ونفى أن يكون الآلهة غيره أو معه . واطلاق المشركين هذا التعبير على شركائهم قد يعني اعتبارهم إياهم معبودات رئيسية مساوية لله عز وجل . وقد حكى القرآن عجبهم من دعوة النبي (ص) الى الله وحده :

« أجعل الآلهة لها واحداً إن هذا لشيء عجيب . وانطلق الملاء منهم أن امشوا واحبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الأخرى إن هذا إلا اختلاق ... »

صاد ٥ - ٧
ورد عليهم القرآن ردوداً فيها افحام منطقي وفيها تأييد لما قلناه من أنهم كانوا يعنون باطلاق تعبير الآلهة على شركائهم أنهم آلهة رئيسية مساوية لله كما ترى في الآيات التالية :

١ - قل لو كان معه آلهة كما يقولون إنا لا شغوا الى ذي العرش سبيلا ...
الأسراء ٤٢

٢ - لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ...
الانبياء ٢٢

٣ - أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون
الانبياء ٤٣

وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول إنه كان لمشركي العرب شركاء وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله وشركاء اصليون ومماثلون واكفاله ، وإنه كان يطلق على الاولين اسماء « الاولياء والشفعاء والشهداء » وعلى الآخرين اسماء الشركاء والارباب والانداد والآلهة .

ولقد يخطر بالبال سؤال وهو ما إذا كان اهل النبي (ص) وبيئته المشركون قد اتخذوا شفعا ووسطاء وفي الوقت نفسه كان لهم شركاء رئيسيون مع الله؟ وادا كان هذا واقعا فكيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من حكاية اقوال لهم فيها اعتذار عن اتخاذ الاصنام والشركاء بأنهم انما اتخذونهم شفعا ويعبدونهم ليقربوهم الى الله زلنى كما جاء في آيتي يونس والزمر (١٨) و (٣) ثم كيف يوفق بينه وبين ما جاء في بعض الآيات من اعترافهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السماوات والارض كما جاء آيات عديدة منها :

١ - وثئن سألتهم من خلق السموات والارض ايقولان خلقن العزيز العليم .

الزخرف ٩

٢ - وثئن سألتهم من خلقهم ليقولان الله فأنى يؤفكون . . . = ٨٧

ونظن اننا في غنى عن التنبيه على ان حكاية اقوالهم تتضمن تقرير فهمهم للمراد من لفظ الجلالة وتعبير العزيز ، وعلى ان هذا الفهم يتسق مع المدلول الحقيقى والقرآنى للتعبيرين ، وانه ليس من محل للقول إن العرب في قولهم « الله » يمكن ان يكونوا قصدوا غير الله الحقيقى المراد في القرآن ؛ ففى الآيتين اللتين نقلناهما وفي كثير من الآيات غيرها صراحة لا تتحمل تردداً ولا كلاماً .

ومها يكن امر فالآيات القرآنية تساعد على القول إن الذين حكيت فيها اقوالهم كانوا يعتقدون بالله كآله اعظم خالق الاكوان ومدبرها ، ويكتفون باتخاذ الشفعا والاولياء لديه ويقومون نحوهم ببعض العبادات ، ويعتقدون بأن لهم اثرأ في النفع والضرر والخير والشر بسبب حظوتهم عند الله ؛ ومن هنا استحقوا وصف المشركين .

وما دام ان آيات قرآنية كثيرة قد تضمنت ذكر الشركاء والارباب والانداد والآلهة ، واحتوت حملات تقريرية على المشركين الذين يشركون مع الله شركاء وأنداداً وآلهة وأرباباً ، وفيها ما يلهم أن المشركين كانوا يعتقدون لهؤلاء ثمانية او مشاركة او ندية او قدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والاعطاء والمنع

فأن منطق البحث يؤدي بنا الى القول إنه كان بين مشركي العرب من اهل بيئة النبي (ص) وعصره أناس يعترفون لله بالالوهية أو الربوبية العظمى ويكذبون بالشفعاء والأولياء ، وأناس كان لهم معبودات أو آله رئيسيون يشركونها مع الله ؛ والبيئة تحمل ذلك فيما يتبادر لنا ؛ فقد كان سكانها متفاوتين في ظروف الحياة ووسائلها من حيث الحضارة والبداءة ومن حيث التنقل والاقامة ، ومن حيث الاحتكاك بالعالم والعزلة عنه كما فصلنا ذلك في بحوثنا السابقة ؛ ولا يعتل أن يكون التفكير الديني واحداً في هذه البيئة التي يتفاوت سكانها هذا التفاوت .

- ٧ -

فإذا صح استنتاجنا هذا ونعتقد انه صحيح فيكون الاكتفاء بالشفعاء والأولياء وبكلمة اخرى اعتبار الشركاء من أصنام ومخلوقات أخرى وسائل ووسائط الى الله إنما كان من قبل الطبقات النيرة التي تيسر لها ان تتصل بالعالم وبالكتابين ، وأن ترتفع عن درجة اتخاذ الاصنام المادية والمخلوقات الاخرى آلهة رئيسية لها قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجاد والافناء وان تنزلها الى مرتبة الشفعاء والأولياء، لاسيما وقد كانت حوصلة الكتابين الذين يؤمنون بالله تتسع لشيء مثل هذا حيث كانوا الى جانب إيمانهم بالله واحد صراحة او تأويلا يتخذون من قديسيهم وانبيائهم ومن الملائكة شفعاء وأولياء يشركونهم في الدعاء ويتوسلون بهم إلى الله ، ولعل في الآية التالية اشارة ما إلى هذا :

« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون... »
آل عمران ٧٩ - ٨٠

اما طبقة العوام والبدو خاصة فانهم ظلوا في تلك الدرجة يعتقدون في معبوداتهم المادية وغير المادية قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والايجاد والافناء مع معنى غير واضح عن الله كآله أعظم ورب للآرباب .

وهكذا تبدو لنا آثار خطوة تطورية في التفكير الديني قبل البعثة النبوية بما

سوف نشير اليه بتوسع اكثر في مناسبات آتية .

هذا ؛ واذا نحن سقنا الحديث الى البيئة الحجازية فاننا لا نرمي إلى إخراج البيئات العربية الاخرى مما يمكن أن تحمله البيئة الحجازية من التفاوت في التفكير او الذهنية الدينية ، ولا من احتمال أن يكون آثار خطوة مماثلة قد ظهرت فيها ايضاً .



وورود كلمات الشركاء، والأنداد والآلهة والشفعاء والانبياء والشهداء في الآيات القرآنية بصيغة الجمع يمكن ان يدل على ان المشركين كانوا يعددون شركاءهم ، سواء منهم من اتخذ شركاء رئيسيين ، او شركاء شفعاء ؛ اي إنه كان للجماعة الواحدة مثلاً شركاء عديدون في وقت واحد . وقد حكى آيات سورة صاد ٥ - ٧ التي نقلناها استغراب المشركين وغيظهم من دعوة النبي (ص) إلى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، وحكى كذلك آيات في سورتي الانبياء والفرقان استخفافهم بالنبي (ص) لانه يذكر آلهتهم بما يكرهون وتمدحهم لانفسهم لعبرهم عليها وعدم تأثرهم بدعوة النبي (ص) مما يؤيد ما نقوله من تعدد المعبودات :

١ - وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون . . . الانبياء ٣٦

٢ - وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها . . . الفرقان ٤ - ٤٢

وايس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على شيء محدود في موضوع تعدد الآلهة او ايضاح المقصود منه ، وكيفية الجمع بين عبادة آلهة متعددة من قبل جماعة واحدة ، غير ان بعض الروايات قد ذكرت اشياء يمكن ان تكون صحيحة ومفسرة لهذا التعدد . ففي ابن هشام (١) في بحث أصنام العرب ما يفيد أنه كان لكل قبيلة او ناحية او مدينة صنم خاص باهلها . وقد اورد اسماء بعض القبائل والمدن وسمى لكل اسم صنمها او معبودها . فإخولان صنم « غم انس » وابني ملكان صنم اسمه « سعد »

(١) ج ١ ص ٧٥ ج ١ ص ٨٠

وكانت المزي لقريش وكدانة ، و « الالة » للثائف و « مناة » لثرب ، وكان لدوس
 وخشمم وبجيلة صنم اسمه « ذو الخلصه » ، ولقبائل طي ومن يليها صنم اسمه « الفللس »
 ولقبائل بكر بني وائل صنم اسمه « ذو الكعبات » في حين أن العرب جميعهم كانوا
 يشتركون في مناسك حج واحدة ، ويطوفون حول الكعبة ، ويقصدون حجها
 ويسعون بين الصفا والمروة ، وكان على الصفا والمروة اصنام ، وفي فناء الكعبة وداخلها
 اصنام يقدمون لها العبادة والتعظيم ، وقد ذكر ابن هشام كذلك أن الهدي والذبايح
 كانت تذبح عند صنمي اساف ونائله قرب الكعبة ؛ وان العرب كانوا اذا ارادوا
 ان يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً ، أو اذا شكوا في نسب
 احدهم أو ارادوا سفراً أو تجارة أو استخارة في نازلة أو خلاف أو مقصد ذهبوا
 إلى هبل وكان صنمها في جوف الكعبة فاعطوا صاحب القداح مائة درهم وجزوا
 وطلبوا منه ان يضرب بالقداح على الأمر الذي ارادوا أو اختلفوا فيه (١) ، وكان
 على القداح كلمات أمر ونهي ونعم ولا ، وانه كان لكل بيت صنم خصوصي (٢) ،
 وقد جاء في تفسير البيضاوي أن مناة مشتقة من « النوع » وان العرب كانوا يستمطرون
 بها أي يدعون عندها من اجل نزول المطر اذا امسكت السماء ، ومهما كان من امر
 هذه الروايات والاقوال وامثالها فان فيها توجيهاً وجيهاً لهذا التعدد الذي كان
 موجوداً عند العرب بنص القرآن .

— ٩ —

وإذا أردنا أن نرسم صورة قائمة على الفرض المقارب للواقع على ما نظن فاننا لانكون
 متجوزين اذا قلنا إن هذا التعدد لا يتخلو من احد تفسيرين : فاما ان يكون هناك
 آلهة عموميون يشترك في عبادتها اهل المدينة أو الناحية أو الصقع في المناسبات
 العامة ، وآلهة خصوصيون للجماعات الصغيرة التي تجمع بينها الأرحام والسكنى
 والحلة كالعشيرة والفيخذ والمي بل والقبيلة ؛ وأما ان يكون لكل مطلب من

(١) ج ١ ص ١٤٢

(٢) ج ١ ص ٨٠ وفي كتاب الاصنام للكبي كثير مما ذكره ابن هشام
 وزيادات عليه لم نر ضرورة الى ايرادها .

مطالب الحياة إله اخاص ، فاذا أرادوا أن يستغيثوا جاؤا الى إلهه او دعوه ، واذا أرادوا ان يستشفوا من مرض جاؤا الى إلهه او دعوه ، واذا أرادوا أن يقربوا القرابين قربوها عند إلهها ، واذا أرادوا ان يستخبروا في عمل استخاروا عند إلهه وهلم جرا .

ولا يبعد أن يكرنوا جمعوا الأمرين معاً ، او ان يكون منهم من جمعها بحيث كان هناك آلهة عموميون وآلهة خصوصيون ، وكان هناك في الوقت نفسه آلهة مخصوصون لكل مطلب من مطالبهم .

واقدم فعلت الأعم الأخرى مثل هذا في مصر والشام واليونان فمن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوا الفكرة ابتسأ ، او لعل هذا طور من اطوار الحياة الدينية حيث يتوهم الناس وجود آلهة عموميين وآلهة خصوصيين ، وانهم لا غنى لهم عن هذه وتلك ، وحيث يتوهمون كذلك ان تعدد مطالبهم وحاجاتهم او تعدد مظاهر الحياة والطبيعة يقتضي وجود إله لكل حاجة ومطلب أو لكل مظهر من مظاهر الحياة والطبيعة وهذا هو الذي نميل اليه .

وهذا الذي قلناه ينسحب على المشركين الذين اعتبروا شركاءهم رئيسيين او مماثلين او أمداداً او الذين اعتبروهم وسطاء وشفعاء ؛ حيث يصح ان يقال بالنسبة لآخرين إنهم كان لهم شفعاء عموميون اي يشترك في الاستشفاع بهم مختلف الناس وشفعاء خصوصيون للمحلة او القبيلة او العشيرة ، او كان لهم شفعاء ووسطاء لكل مطلب ، أو إنهم جمعوا بين الأمرين ، لاسيما واعتبار الآلهة والشركاء شفعاء ووسطاء هو كما قلنا خطوة تطورية عن الأصل الذي ظل في نطاقه جمهور المشركين وبدوهم خاصة . واذا لاحظنا ان هذه الطبقة كانت من أهل مكة او ان منها من هم من أهل مكة امكن تقوية هذا برواية ابن هشام التي كانت تدور حول امور مكية ، فأساف ونائلة في مكة وهبل في مكة والكعبة في مكة ؛ هذا بالاضافة الى ان الآيات المكية كانت تحكي على الأغلب مواقف وحباج أهل مكة كما هو المتبادر .

— ١٠ —

وقد مر في بحث الشفعاء أن المشركين العرب كانوا أو كان منهم من يعتقد

أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم على هذا الأساس .

وقد رأينا من المفيد ان نتوسع قليلا في هذه النقطة لأنه قد اشير اليها في آيات قرآنية كثيرة ، كما انها تنطوي على صور طريفة من صور التفكير الديني في عصر النبي (ص) ويثبته قبل البعثة .

إن هذه الآيات متنوعة الاسلوب . فمنها ما ورد فيه لفظ البنين والبنات معاً :
« وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه
وتعالى عما يصفون ... الأأنعام ١٠٠

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ « الولد » بصيغة المفرد :

١ — وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغي ... يونس ٦٨

٢ — وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم ...

الكهف ٤-٥

ومنها ما ورد فيه نسبة اتخاذ البنات فقط :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ... النحل ٥٧

٢ — فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ... الصافات ١٤٩

والمتمعن في الآيات على انواعها الثلاث وسيانها يرى انها إنما تحكي اقوالاً ومزاعم أو بالأحرى عقائد عربية ، وليست بسبيل العقيدة النصرانية وبنوة عيسى (ص) ، وبكلمة ثانية ليست واردة في صدد مجادلة النصارى أو حكاية عقائدهم ، وإنما هي في صدد مجادلة مشركي العرب وتقريرهم .

وننبه اولاً على ان تعبير « الولد » يشمل الذكر والأنثى بل والمفرد والجمع

أحياناً وينص القرآن (١) وثانياً انه جاء في سورة الانبياء آيات تدل بصراحة على ان المقصود من نسبة الولد للملائكة :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم

بأمره يعملون .

٢٦ - ٢٧

(١) آيات الانبياء ٢٦ - ٢٧ بدعت بكلمة ولد وفسرتها بعباد

وثالثاً انه جاء في سورة الصفات عقب الآية (١٤٩) ما يدل بصراحة على ان البنات المنسوبة الى الله في عقيدة العرب هم الملائكة :

«أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون. ألا انهم من إيمانهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. أحطفي البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون. أفلا تذكرون ١٥٠-١٥٥» وهكذا ترتبط حلقات السلسلة بحيث يمكن القول إن الآيات القرآنية بسبيل حكاية عقيدة عربية بان لله اولاداً وإن هؤلاء الأولاد بنات وانهم الملائكة .

وليس بعيداً أن تكون فكرة او عقيدة العرب في اتخاذ الله اولاداً قد تسربت اليهم من النصراني والعقيدة النصرانية . ولقد تجدتهم آيات في سورة الصفات التي احتوت تنديهاً بهم على نسبتهم البنات لله بان يأتوا كتاباً يؤيد عقيدتهم :

« أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . »

١٥٧ - ١٥٦

حيث يمكن الاستئناس بهذا التحدي على هذا التسرب ، كما أننا أريد القول لهم اذا كان للنصارى كتاب فيه نسبة المسيح ابناً لله ولو مجازاً فهل عندكم كتاب فيه برهان او ذكر يؤيد نسبة الملائكة بنات لله .

— ١١ —

على اننا نرجح اذا كانت هذه الفكرة قد تسربت للعرب من النصراني او العقيدة النصرانية ان يكون هذا وقع قبل البعثة بزمن غير قصير ؛ ثم تطورت او بعبارة أصح « تأملت » ، وارتدت ثوباً طريفاً فصارت بدل الابن الواحد بنات كثيرين ، وبدل الجسم الانساني أو الناسوتي المادي او المشاهد الذي مشي في الأسواق واكل الطعام ملائكة او بعبارة أخرى موجودات روحانية تصويرية وغير مرئية .

والأطرف من هذا أن العرب جادلوا عن فكرتهم أو عقيدتهم التي طوروها وأقلعوها ، واعتبروها معقولة ومنسجمة مع الفكرة الالهية اكثر من فكرة بنوة عيسى (ص) كما حكى ذلك بعض آيات سورة الزخرف :

« ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو

ما ضر بوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه
مثلاً لبني إسرائيل. ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون .

الزخرف ٥٧ - ٥٠

فهذه الآيات تشير الى جدل وقع بين النبي (ص) والعرب الذين اعتقدوا بأن
الملائكة بنات الله واتخذوهم شفعاء لهم ، وتلهم انهم قالوا ان فكرة بنوة الملائكة
لله معقولة اكثر من فكرة بنوة ابن مريم لان الملائكة موجودات روحانية غير
مرئية وهم بذلك اكثر لصوقاً او انسجاماً مع ابيهم الله في حين ان ابن مريم
انسان مادي كسائر الناس ، وتلهم انهم قالوا ايضاً ان عقيدتنا بنوة الملائكة اكثر
اصابة من اصابة النصارى في عقيدتهم بنوة المسيح (ص) وأن آلهتهم والحالة هذه
ويعنون بها الملائكة هي خير من عيسى (ص) الذي اتخذ النصارى الآلهة .

وورود ذكر الملائكة في الآيات وما جاء فيها من ان الله لو شاء لجعل ملائكة
في الارض لانهم عبيده كما ان عيسى (ص) عبده يؤيد ان الجدل كان بين عقيدتهم
بينوة الملائكة والوهيتهم وعقيدة النصارى بنوة عيسى (ص) والوهيته .

وقد رد القرآن عليهم بان القياس غلط والاحتجاج بعقيدة النصارى فيه مع
النبي في غير محله فعيسى (ص) هو بشر وعبد أنعم الله عليه وأرسله رسولاً لبني
اسرائيل أن اعبدوا الله ربي وربكم، إن ما كان من انحراف في شأنه انما جاء من
الناس والمنحرفين عذاب الله :

«ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولا بين لكم بعض الذي تختلفون
فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .
فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم .»

الزخرف ٦٣ - ٦٥

الفصل الثاني

المعبودات المادية او الوثنية

المعبودات المادية عند العرب بوجه عام واستدلالات قرآنية -- الفاظ المعبودات
المسادية في القرآن -- لفظ الاوثان ودلالاته -- لفظ الاصنام ودلالاته -- لفظ
التمثيل ودلالاته -- لفظ الانصاب ودلالاته -- اسماء الاصنام في القرآن -- الملاة
والعزى ومناة -- صلة التسمية بين اللاتو البابية والملاة الحجازية ولفظ الجلالة --
ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر -- بعل -- الطاغوت والحبت -- الطواغيت او
بيوت الاصنام وكمباتها .

- ١ -

إن المعبودات المادية كانت اكثر مظاهر الشرك عند العرب ؛ وكانت تشغل
حيزاً كبيراً في اديانهم وعتقادهم ، سواء في ذلك الذين اعتبروا معبوداتهم آلهة
وشركاء رئيسيين مع الله او الذين اعتبروها شفعاء ووسطاء اليه كما تدل على ذلك
آيات قرآنية عديدة .

فآية الزمر (٤٣) التي نقلناها في الفصل السابق والتي ذكر فيها الشفعاء وصفرا
فيها بأنهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، وهذه صفات المادة الجامدة . وآية يونس
(١٨) التي نقلناها كذلك فيه ، تتضمن شيئاً من هذا ايضاً إذ جاء فيها انهم يعبدون
مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون انهم شفعاؤهم عند الله ، وقد جاء في سورة الانبياء
آية تذكر انهم اتخذوا آلهة من الارض مما يعني المواد الجامدة كما هو المتبادر :

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُشركون . . . »

٢١

وفي سورة الاعراف آيات اطلق فيها على الشركاء صفات المادة الجامدة التي
لا تستدعي المشي ولا البطش ولا الابصار ولا السمع كما ترى فيها :

١ -- إن الذين تدعون من دون الله عباداً (١) امثالكم فادعواهم فليستجيبوا لكم

(١) عباد هنا بمعنى مخلوقات حيث يدخل فيها الحي وغير الحي كما فسرها

المفسرون وكما هو واضح من روح الآية .

إن كنتم صادقين . اللهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون .
الأعراف ١٩٤-١٩٥

٢ - - والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون
الأعراف ١٩٧-١٩٨



وألفاظ المعبودات المادية الصريحة لم ترد في القرآن بكثرة . غير أن الآيات التي ذكر فيها الشرك والشركاء والآلهة والشفعاء والأولياء والتي فيها إشارة إلى عبادة أو دعاء مادون الله قد تضمنت الإشارة إليها في سياق التسفيه والتنبه بدعبادة مالا يعقل ولا يملك ولا يخفق ولا يرزق ولا يجبي ولا يعيت ولا ينفع ولا يضرو ولا يسمع ولا يبصر . على أنه قد ورد في القرآن آيات ذكرت فيها ألفاظ « الأوثان » و « الأندنام » و « الأنصاب » و « الثمائل » أولاً وذكرت فيها كذلك أسماء بعض ما كان موجوداً منها في عصر النبي (ص) وبيئته ثانياً .

فأولاً إن لفظ « الأوثان » قد ورد في آية من سورة الحج وفي سياق الإشارة إلى مناسك الحج وشعائره كما ترى :

« وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق الحج ٣٩-٣١
وقد ورد هذا اللفظ أيضاً في آيات قصص إبراهيم وحكاية خطابه لآبيه وقومه كما ترى :

١ — إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً العنكبوت ١٧
٢ — وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا العنكبوت ٢٥

وآيات الحج خاصة في حق أوثان العرب في الوقت الذي نزلت فيه ،
لهم بأن هذه الكلمة تطلق على المعبودات المادية عموماً ، وأيست على نوع معين
منها ؛ حيث امرت الساميين باجتناها وبأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين
معه شيئاً ما مطلقاً ، وحيث نعمت الإوثان بالرجس وهو نعمت يمكن ان ينمت به
كل معبود مادي .

والمفهوم العام لهذه الكلمة ولا سيما كلمة « الوثنية » يؤيد تلك العمومية ، حيث
تعني عبادة المعبودات المادية على إطلاقها ، وليس عبادة نوع معين منها .

وثانياً ان لفظ « الأصنام » لم يرد في الآيات التي وجه فيها الخطاب الى المشركين
او العرب وإنما ورد في آيات قصص ابراهيم كذلك كما ترى في مايلي :

١ - رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . . .

ابراهيم ٣٥

٢ - ونالله لآئكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . الأنبياء ٥٧

٣ - إذ قال لآبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين .

قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . الشعراء ٧٠ - ٧٣

وورد هذا اللفظ أيضاً في سياق آيات قصص بني اسرائيل كما ترى :

« وجاوز نابي اسرائيل البحر فأتوا على قوم يكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى

اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . الأعراف ١٣٨

وهذا اللفظ وان لم يرد كما قلنا موجهاً الى مشركي العرب فان آيات سورة

ابراهيم قد وردت في سياق حكاية دعاء ابراهيم (ص) في الحرم وقصة إسكانه من ذريته

فيه ، وللعرب وخاصة للحجازيين صلة وثيقة بهذه العبارة وذلك السياق كما لا يخفى .

كذلك فان موقف ابراهيم (ص) من قومه ومخاورته لهم مما لم يرد في التوراة ، وما

يسح ان يكون عربي الرواية والتداول كما كثرت قصص ومواقف ابراهيم (ص) على ما اشرفنا

اليه من قبل . وعلى هذا فلا تجوز اذا قلنا استنباهاً من القرآن ان العرب الذين يسمعون

القرآن كان لهم أصنام ، وإن الآيات استهدفت فيما استهدفتها الاشارة الى مخالفة صريحة لدعاء

ابراهيم ابراهيم (ص) ، ولقدسية البلد الذي جعله الله آمناً بدعوته ، والى انهم يدخلون

في تناول تنديد ابراهيم (ص) لقومه على اتخاذهم الاصنام . هذا الى بداهة وجود
مسمى معروف المسمى والعيان عند العرب لكلمة « الاصنام » التي وردت في القرآن
والتي لا بد من انها كانت موجودة مألوقة في اللغة العربية قبل نزوله .

وثالثاً ان لفظ التماثيل ورد مع لفظ الاصنام في سلسلة واحدة من آيات سورة الانبياء كما ترى :
« إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي اتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا
لها عابدين . قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا اجئتنا بالحق أم انت من
اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذالك من
الشاهدين . وتالله لآء كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . . . الانبياء ٥٢ - ٥٧
وورد كذلك في معرض ذكر ما كان يعمل الجن لسليمان (ص) من اعمال
عظيمة كما ترى :

«ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من
عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور
راسيات . . . سبأ ١٢ - ١٣

وورد ذكر التماثيل والاصنام في سلسلة واحدة يدل على أن الكلمتين
مترادفتان او على الأقل ان الواحدة منهما يمكن ان تعبر عن الاخرى او تدل
عليها احياناً . وآيات سبأ يمكن ان تدل على ان التماثيل تصنع صنعاً عدا ان اللفظ
نفسه يفيد معنى المماثلة لصورة ما ، وهذا يكون بالصنعة في الغالب . وقد ورد في
بعض آيات قصص ابراهيم (ص) ايضاً ما يفيد ان قومه كانوا ينتحون اصنامهم
او تماثيلهم كما ترى :

«فراغ إلى آلهتهم فقال ألاتاً كاون . ما لكم لا تتطقون . فراغ عليهم ضرباً بائيمين .
فأقباوا إليه يزفون . قال تعبدون ما تحتون . والله خلقكم وما تعملون . . الصافات ٩١ - ٩٦
وهذا يعني ان التماثيل او الاصنام هي احجار او معادن كانت تحت تحتاً وتصنع
صناعة على اشكال وصور ؛ ويعنى او يلهم كذلك ان العرب كانوا يطلقون اسم
الاصنام والتماثيل على ما هو مخلوق من الاوثان ، وانهم كانوا يعرفون مسميات
اللفظين وكان لهم شيء منها .

وآيات الاعراف (١٩٤-١٩٥-١٩٧-١٩٨) التي نقأناها قبل قليل تؤيد هذا إذ تلهم ان الاصنام كانت تصنع على أشكال او صور المخلوقات الحية لها أيد وأرجل واعين وآذان .

ورابماً ان لفظي « النصب » و « الانصاب » قد وردا في آيات ثلاث وجه الخطاب فيها للمسلمين ، ومثل في احداها حركة خروج الناس من القبور يوم الحشر بما اعتادوه من سرعة الجرى نحو الانصاب ، والكلام في صدد المشركين وانذارهم :

١ - حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام ...
المائدة ٣

٢ - يا ايها الذين آمنوا إنما الحجر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ...
المائدة ٩٠

٣ - يوم يخرجون من الاجداث سراغاً كأنهم الى نصب يوفضون .
خاشعة
ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ...
المعارج ٣٣-٤٤
والكلمة مشتقة من نصب ، وقد قال بعض المفسرين إن الانصاب هي الاحجار المنصوبة للعبادة كما قال بعضهم انها مرادفة للاصنام . وقد ذكر هذا الخازن في رواية معزوة إلى ابن عباس (رض) . ومن المحتمل ان لم نقل من المرجح انها تعني المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلتة او غير مخلتة . وفي الآيات قرائن على هذا ؛ فآية المائدة (٤) تشير إلى تحريم اكل الذبائح التي تذبح على النصب أي تذبح عند الاصنام ويذكر اسمها عليها كما فسرها بذلك بعض المفسرين . وقد ذكر ابن هشام (١) ان قريشاً كانت تقرب قربانها عند حنين قرب الكعبة اسمها « اساف ونائنه » وهما في تقاليد العرب ممسوخان عن رجل وامرأة مما يمكن ان يدل على انها كانا مخلقين رجلاً وامرأة ؛ كذلك فانه ذكر (٢) ان بعض اصنام العرب كان

(١) ج ١ ص ٨٠

(٢) ج ١ ص ٧٩

صخرة وهي صنم بني ماسكان الذي كان يسمى « سمداً » وهي غير مخلقة .
وعلى كل حال فالنصب والائتصاب قد ورد ذكرها في القرآن في صدد العرب
مباشرة ، وان من المحتمل جداً انهما كانا يمالقان على معبوداتهم المادية المخلقة
وغير المخلقة كاللاوثان ايضاً .

- ٣ -

اما الاسماء الواردة في القرآن كمعبودات أو أوثنان أو اصنام معينة فهي اولاً الالة
والعزي ومناة . وهذه الاسماء وردت في آيات سورة النجم (١٩ - ٢٠) .
وقد ذكر ابن هشام (١) ان العزي كانت لقريش وكنانة ومناة الاوس
والخزرج والالة لثقيف الطائف . وقال الكلبي صاحب كتاب الاصنام (٢) ممالخصه
ان مناة كانت اقدم الثلاثة وكانت نصيباً منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشال
بقيديبين المدينة ومكة ، ومع ان العرب كانوا جميعهم يعظمونه ويذبحون له فقد كانت
الاوس والخزرج اكثرهم له تعظيماً وبه اختصاصاً ؛ وان الالة احدثت من مناة وكانت
صخرة مربعة وكانت في الطائف وسدنتها من ثقيف ، وكان العرب وقريش
يعظمونها غير ان اهل الطائف اكثرهم تعظيماً لها واختصاصاً بها ، وان العزي
احدثت الثلاثة وهي شجرة بواد نخلة على بعد تسعة اميال من مكة ، وكانت اعظم
الاصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون إليها ويذبحون عندها ، وكان سدنتها بني
شيبان ؛ وقد استفاضت الكتب بتسميات عربية بعبودية هذه الآلهة مثل عبد
الالة وعبد مناة وعبد العزي وزيد الالة وتيم الالة وعبد مناف لاشخاص كانوا في
عصر النبي (ص) وبيئته . على ان هناك رواية (٣) ذكرت ان الآلهة الثلاثة كانت
اصناماً مخلقة منصوبة في فناء الكعبة ، ونما قاله اكثر من مفسر ان الحجازيين
كانوا يستمطرون بمناة وان اسمها مشتق من النوء وهي الريح الماطرة (٤) .

(١) ١ ص ٨٢ هامش وذكر هذا جملة من المفسرين منهم الزمخشري والخازن

(٢) ص ١٣ - ٢٧

(٣) الخازن والطبري والذسفي في تفسير آيات النجم .

(٤) ج ٣ ص ٤٠٨ و ج ع ص ٢٤٤ .

وإذا كان من الممذر قول كلمة جازمة في هذه الروايات ونرى الأفضل الوقوف منها موقف المتحفظ فإن ذكر المعبودات الثلاثة في القرآن خبر حاسم بوجودها أولاً ، وعدم شذوذ الروايات في صدد ماديتها يسوغ القول بشيء من الجزم أنها معبودات مادية ثانياً ، وورود ذكرها في آيات مبكرة في النزول ، وفي وقت لم يكن قد اتصل النبي (ص) بخارج مكة اتصالاً واسماً ، وبأسلوب الخطاب الموجه إلى قريين أو بالأحرى أول ساهمي القرآن وهم أهل مكة يمكن أن يابهم ان هذه المعبودات من معبودات الملكيين ثالثاً ؛ لاسيما وعدد من القرشيين المعاصرين للنبي (ص) كان يتسمى بها جميعها فاسم ابي طالب هو عبد مناف التي يغلب ان تكون مقبولة عن مناة ، واسم ابي لهب عم النبي (ص) هو عبد العزى ، وفي أسد الغابة ذكر لصحابيين اسماؤهم أو اسماء آبائهم عبد اللة وزيد اللة وتيم اللة ؛ هذا بالإضافة إلى ما استفاضت به الروايات من حلف قريش وغيرهم من العرب باسم « اللة والعزى » خاصة . على انه يجوز ان تكون هذه المعبودات معبودات عمومية للعرب جميعهم وفي ذات الوقت اختلفت ثقيف باحداها كمعبود خاص واختلفت الاوس والخزرج باحداها واختلفت المكيبون باحداها ايضاً .

وهذه الاسماء الثلاثة بصيغة التأنيث . وقد قال غير واحد من المفسرين (١) ان اللة مؤنث « الله » والعزى مؤنث « الاعز » او « العزيز » ومناة مفعلة من النوع ومقصود به المعبودة الماطرة .

ومضمون آيات النجم (١٩-٢٧) التي نقلناها بدل بقوة على ان بين هذه المعبودات واسمائها وبين الملائكة حلة ما على اعتقاد العرب ، فالآيات تستنكر تسمية البنات الى الله كما تستنكر تسمية الملائكة بالاسماء المؤنثة ، وتنبه على ان الشفاعة ان تكون الا من بعد اذن الله ورضائه ، مع الهامها ان مقر الملائكة هو السموات ، وكل هذا يأتي في سلسلة منسجمة مع الآيتين الأولىين منها التي ذكرت فيها اسماء المعبودات الثلاثة ، ولقد ذكرنا في بحث سابق عقيدة الملائكة بنات الله وبانهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى واوردنا الآيات القرآنية التي تتضمن ذلك ؛ فكل هذا يسوغ القول ان المشركين العرب او

فريقاً منهم قد اعتبر هذه المعبودات رموزاً ارضية للملائكة الذين هم في السماوات ،
 وسموها باسماء التأنيث تبعاً لعقيدتهم بان الملائكة بنات الله وعبدوها وعظموها
 واستشفعوا بها واتجبروا اليها على هذا الاعتبار ايضاً؛ واتقد رأينا البيضاوي في تفسيره
 يقول شيئاً من هذا في سياق تفسير آيات النجم حيث قال إن المعبودات الثلاثة ،
 « هياكل للملائكة » . وقد قال الطبري (١) ايضاً شيئاً مقارباً حيث قال انهم صوروا
 اصنامهم على صور الملائكة، وزعموا انها بنات الله وعبدوها من دون الله واشتقوا
 لها اسماء الله فقالوا « الالة » من الله و العزى من « الاعز » او « العزيز » . هذا؛
 ولقد اكتشف في آثار بابل اسم معبود قديم وهو « الاتو » ، ولا ندري ما اذا
 كان بين هذا الاسم وأسم « الالة » صلة ما . ومهما يكن من أمر فاننا نرجح ان
 لفظ الجلالة واطلاقه على رب العالمين متطوران عن هذا الاسم المعبود . وقول
 المفسرين إن الالة مؤنث الله هو نوع من التعبير عما نقول كما هو المتبادر .



وفي القرآن غير الاسماء المذكورة اسماء خمسة اصنام ذكرت في سورة نوح
 في سياق حكاية موقف قومه وجداله معهم كما ترى في هذه الآية :

« وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »

نوح ٢٣

والذي يتبادر لأول وهلة أن هذه الاصنام اجنبية عن العرب ، وانما وردت
 في القرآن في سياق قصة نوح (ص) وقومه . غير أن روايات السيرة وكتب المفسرين
 ذكرت ما يمكن ان يجعل بين العرب قبل البعثة وبين هذه الاصنام صلات وثيقة
 ايضاً من حيث التسمية بعبوديتها واتخاذ مسميات لها معبودات معاً . فقد ذكر ابن
 هشام (٢) ان قبائل هذيل كانت تسمي صنمها « سواعاً » وان قبائل همدان كانت
 تسمي صنمها « يعوق » وان قبائل مذحج كانت تسمي صنمها « يغوث » وان قبائل

(١) ج ٩ ص ١٧٦

(٢) ج ١ ص ٧٧ وقرأ ايضاً تفسير البيضاوي والطبرسي وغيرها لسورة

نوح . اقرأ ايضاً كتاب الاصنام للكلبي ص ٩ — ١٠

كَلْبَ كَانَتْ تَسْمِي صِنْمِهَا « وِدَا » وَاِنْ قَبَائِلَ ذِي الْكَلَاعِ كَانَتْ تَسْمِي صِنْمِهَا « نِسْرًا ». كَذَلِكَ فَقَدْ ذَكَرَهُ هُوَ (١) وَذَكَرَ غَيْرُهُ اسْمَاءَ اشْخَاصٍ عَدِيدِينَ مَعَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ (ص) وَقَبْلَهُ بِقَابِلٍ كَانُوا يَتَسَمَّوْنَ بِاسْمَاءِ بَعْضِ هَذِهِ الْاَصْنَامِ وَخَاصَّةً « عِبْدُ وِدٍ » وَ « عِبْدُ يَغُوْثٍ » وَطَبَعًا لَا يُمْكِنُ اَنْ يَكُوْنَ هَذَا اِلَّا اِذَا كَانَتْ الْاَصْنَامُ مَعْرُوْفَةً وَمَعْبُوْدَةً عِنْدَ الْعَرَبِ .

هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَانْ هَذِهِ الْاَسْمَاءُ تَحْمِلُ طَابِعَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِبَعْضِ الشَّيْءِ اَوْ فِي طَوْرٍ مِنْ اَطْوَارِهَا بِبَعْضِ الشَّيْءِ . فَيَغُوْثٌ مِثْلًا مُتَنَاسِبٌ مَعَ الْغُوْثِ وَالغَيْثِ وَالْاَغَاثَةِ ، وَكُلُّ امْرءٍ اِنَّهُ مَضَارِعٌ ثَلَاثِيٌّ غَيْرُ فَصِيْحٍ ، وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ عَنِ الْعَوْقِ الَّذِي هُوَ كَذَلِكَ مُتَنَاسِبٌ مَعَ الْعَاقَةِ اَوْ الْاِعَاقَةِ وَالتَّعْوِيْقِ (٢) وَنِسْرٌ هُوَ اسْمُ الطَّائِرِ الْجَارِحِ الْمَعْرُوْفِ مِنَ الْاَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيْحِيَّةِ ، وَاِذَا لَمْ يُمْكِنَّا عَزْوُ « وِدٍ » وَ « سَوَاعٍ » اِلَى مُتَنَاسِبَاتٍ فَصِيْحَةٍ فَانْ هَذَا لَا يَعْنِي اِنَّهَا مَنقَطَعًا الصَّلَاةَ بِالْفَصِيْحِيِّ بِالْمَرَّةِ . وَمِمَّا يُمْكِنُ مِنْ اَمْرٍ ثَمَّ مِمَّا يُمْكِنُ رَأْيُنَا فِي التَّحْفِظِ اِزَاءَ الرِّوَايَاتِ فَانْ هَذَا التَّقَارُبُ اللَّفْظِيُّ بَيْنَ هَذِهِ الْاَسْمَاءِ وَالْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيْحَةِ ثَمَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ عَنِ تَسْمِيَةِ الْاَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْاَشْخَاصِ بِاسْمَاءِ هَذِهِ الْاَصْنَامِ تَسُوْغُ التَّرْجِيْحَ بِانْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ كَانُوا يَنْعَتُوْنَ اَصْنَامَهُمْ وَاشْخَاصَهُمْ بِهَذِهِ الْاَسْمَاءِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ (ص) وَبَيْنَتِهِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ ، وَبَانَ هَذِهِ التَّسْمِيَّاتُ اَقْدَمَ طَوْرًا مِنْ طَوْرِ اللُّغَةِ الْفَصِيْحِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَلَكِنْ الْعَرَبُ احْتَفَظُوا بِهَا كَمَا هِيَ لِاَنَّهَا دَخَلَتْ فِي نِطَاقِ الْقُدْسِيَّةِ الَّذِي لَا يُسْبَلُ تَجَاوُزُهُ

— ٥ —

وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ ذَكَرَ اسْمَ « بَعْلٍ » كَصِنْمٍ اَوْ اِلَٰهَةٍ فِي سِيَاقِ حِكَايَةِ خُطَابِ الْيَاسِ (ص) لِقَوْمِهِ :

(١) ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٥٦ و اُسْدُ الْغَابَةِ . ج ٤ ص ٨٧ و ٢٢٢ . وَفِي الْاٰخِرِ صِحَاحِي اسْمُهُ الْعَوَامُ بِنِ جَبَلِ الْمَسَالِي مِنْ هَمْدَانَ ذَكَرَ فِي تَرْجُمَتِهِ اِنَّهُ كَانَ سَادِنًا لِلصِنْمِ يَغُوْثُ ج ٤ ص ١٥٣

(٢) بَعْضُ مُشْتَقَّاتِ هَذَيْنِ اللَّفْظِيَيْنِ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ ١ — هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثُ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا . ٢ — عَامٌ فِيهِ يَفَاثُ النَّاسُ . ٣ — قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ .

« وإن الياسمين المرسلين . إذ قال اقومه ألا تتقون . أتندون بلاً وتذرون

١٢٣-١٢٥

احسن الخالقين .

والذي يتبادر كذلك لأول وهلة ان هذا الصنم او المعبود اجنبي ولا علاقة

للعرب به . غير ان صلة هذا الاسم باللغة العربية القرآنية تستوقف النظر ، حيث ورد في القرآن كناية عن الزوج كما ترى في الآيات التالية :

١ - ولا يحل لمن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامه ان كره يؤمن بالله

واليوم الآخر ويعولنهن احق بردهن في ذلك ان ارادوا إصلاحا .

البقرة ٢٢٨

٢ - وامراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب .

قالت يا ويلتي اهلك وانا عجزوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب .

هود ٧١ -- ٧٢

وفي التراكيب العربية يكنى الزوج بكنتى « رب العائلة » و « رب البيت »

وهذا متصل من جهة بدلالة « بعل » في العربية واطلاقه على الزوج ، ومن جهة

اخرى بمعنى الربوبية التي كان يعتقدها قوم الياس (ص) في المعبود « بعل » كما

هو المتبادر .

وبعل كما هو معروف من معبودات بلاد الشام الرئيسية قبل الاسلام بمدة

طويلة وكان يمثل بصنم مخاضق ، ولا تزال الكلمة تلتق في هذه البلاد الى اليوم على

الارض التي تسقى بماء المطر فقط ؛ فكأنما هذه التسمية موروثه عن تقليد قديم

يراد به الاشارة الى الزرع الذي يرويه الله بماء السماء مباشرة .

فهل من التجوز ان يفترض ان الكلمة دخيلة على العربية من قبل البعثة بامدما

قد لا يكون قصيراً ، وان يفترض انها جاءت من بلاد الشام ، وانها لم تحي ووحدها

وانما جاءت مع مسماها ؛ اي ان يكون المعبود الشامي « بعل » قد دخل كصنم

الى بلاد العرب او الى بلاد الحجاز ، وانه كان من المعبودات العربية فاستعير اسمه

لاطلاقه مجازاً على الزوج باعتباره سيد العائلة او رب العائلة ؟ اما نحن فانا لازى

في هذا تجوزاً بل ونرجح امكانه وحدثه فلا . واذا كانت الكتب والروايات

العربية لم تذكر فيما اطلعنا عليه معبوداً أو صنماً للعرب اسمه « بعل » فاننا لا نرى في ذلك هدماً لهذا الفرض وصحته . فانه ان يجادل احد في ان أسماء كثير من أصنام العرب لم تنقلها الروايات ولم تدونها الكتب التي وصلت الينا .

ولقد جاء في ابن هشام (١) حكاية عن عمرو بن لحي وانه رأى اهل الشام يعبدون اصناماً ويستنصرون ويستسقون بها فحمل واحداً منها واتى بها الى مكة ووضعها في الكعبة ، وان هذا الصنم هو « هبل » وان هذا كان أصل دخول عبادة الأصنام الى بلاد العرب وأولها . وفي ما عدا القول بان عمرو بن لحي هو الذي كان أول من أدخل عبادة الأصنام الى بلاد العرب وان أول صنم فيها كان « هبل » - لانه من الصعب جداً أن لم نقل من المستحيل التأكد من هذا الاقوال او التماسيم بها - فاننا نرى الفكرة في الرواية معقولة ، وانه من الممكن ان يكون بعض زعماء العرب قد أعجب في رحلة له في بلاد الشام باحد الأصنام أما لشكله رصوته ، واما بسبب حادث خارق وقع له اوروي له منسوباً الى كرامة هذا الصنم فحمل نسخة منه الى مكة ووضعها في الكعبة ودعا الناس الى عبادته .

ومن الروايات المتواترة انه كان لقريش صنم اسمه « هبل » وانه كان من الأصنام المهمة عندهم حتى انهم هتفوا بأسمه في غزوة أحد بالرأوا انفسهم قد انتصروا على المسلمين فيها؛ (٢) وان قريشاً كانت تستقسم عنده بالقداح في مشاكلها واستخارتها على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . فاذا كان وقع ان احد زعماء العرب اتى بصنم من بلاد الشام - وهو ما لا نستبعد - وان هذا الصنم هو هبل هذا فاماذا لا يكون قد وقع تحريف ما في القل او في التسمية الأولى . فالصنم الشامي المعروف هو « بعل » و« هبل » واللفظان متقاربان في الوزن ، وفيها حرفان مشتركان ، والأعجم يلفظون « المين » « هاء » او ما يقرب منها كما لا يخفى ، فيكون الحرف الثالث كذلك مشتركاً او شبه مشترك ، والقلب والابدال سنة معروفة في اللغات وفي اللغة العربية ، وقد رأيت مدى معنى كلمة « بعل » في اللغة العربية الفصحى ، ولقد قال

(١) ج ١ ص ٧٦ .

(٢) ج ٢ ص ٣٧٧ ابن هشام .

بعض المستشرقين (١) ان هبل شرفة من هابل « وها » هي اداة التعريف في
المبرانية والكنعانية حيث كان يعبد بعل ، وسقوط العين احتمال قريب وبعده سقوطها
تصبح الكلمة « هابل » او « هبل » وهذا تخريج معقول لتطور انتقال كلمة بعل
التي ربما كانت تلفظ بثل الى « هبل »

وقد يرد على هذا سؤال ؛ وهو كيف وجد لفظ « بعل » في اللغة الفصحى
منقولا عن الاسم الشامي القديم بعينه ؟ والذي نرجحه ان لفظ بعل ليس هو نص
الاسم واصله في بلاد الشام قبل البعثة وانما هو تعريب ، وان استفاضة اللفظ في
الكتب والاسنة واطلاقه بنصه « بعل » على المعبود الشامي مما يمت الى التعريب اكثر
مما يمت الى اصل لفظه الذي يرجح انه هابل . ولا ينقض هذا ان يكون الصنم
القرشي قد احتفظ باسم « هبل » فمن الممكن ان يكون انتقل من الشام « هابل »
واختصر على هبل وصار مقدساً لا يضح ان يغير ويبدل فيه ؛ وايس هذا شأن
الفاظ اللغة بطبيعة الحال .

- ٦ -

وقد ورد في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الطاغوت وعبادتها . منها ما هو
مكي ومنها ما هو مدني . وفي احدي الآيات المانية ذكر الطاغوت مع الجبت كما
تري في الآيات التالية :

١ - لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت
ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي
الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت

(٢) تاريخ الإسلام لكايتاني الترجمة التركية . ح ١ وقد ذكر الكايتاني عن
صفة هذا الصنم انه كان من عتيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى
ادر كته قریش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب وخالف ابن هشام في امرأولية هذا
الصنم حيث ذكر ان أول من نصبه هو خزيمه بن مدركه فكان يقال له هبل
خزيمه (ص ٢٨)

يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . . .

البقرة ٢٥٦ - ٢٥٧

٢ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ آوَوْا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . النساء ٥١

٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَفِدَاءً وَأَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . النساء ٦٠

٤ - الَّذِينَ آمَنُوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغُوتِ فَقاتلوا أُولِيَاءِ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . . . النساء ٧٦

٥ - قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَالِيهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ . المائدة ٦٠

٦ - وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتِ . . .

النحل ٣٦

٧ - وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتِ أَنْ يعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى .

الزمر ١٧

فما هو هذا الجبْتِ والطَّاغُوتِ الذين آمن بهما فريق اليهود والطَّاغُوتِ الذي أمر الله الناس أن تجتنب عبادته والذي يخرج من النور إلى الظلمات ويقاوم الكفار في سبيله والذي عبده فريق من اليهود ؟

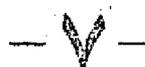
ولقد تعددت أقوال المفسرين ورواياتهم في ذلك ، فمنهم (١) من روى أنها اسمان صنميين لقريش ، حيث طالب القرشيون من الوفد اليهودي الذي ذهب لعقد حلف ضد النبي أن يقسموا عندها ويسجدوا لها ؛ ومنهم (٢) من قال إن الجبْتِ فقط هو اسم صنم لقريش وإن الطَّاغُوتِ بمعنى شديد الطغيان على وزن فعلوت كما كوت وجبروت ، وأنه كان يطلق على الشيطان وعلى كل من كان شديد البغي من الكفار ،

(١) الخازن والطبرسي والبيضاوي في تفسير آية النساء (٥١) مثلا

(٢) الطبري والكشاف في تفسير آية النساء (٦٠) مثلا .

وأن الكلمة في آية النساء (٦٠) قد عنت أحد زعماء اليهود البغاة كعب بن الأشرف،
ومنهج (١) من قال إن الجبت والطاغوت هما كل ما يمت إلى الشرك بسبب من أصنام
وأوثان وانصاب ومن عبادة وولاء واستشفاع واستخارة ؛ وقد ذكر في سياق هذا
القول حديثاً عن النبي (ص) فيه ذكر للجبت جاء فيه :
«العيافة والطيرة والطرق من الجبت» .

ويلفت النظر إلى أن آية النساء (٧٦) قد ذكرت الشيطان والطاغوت معاً
وجملت الشيطان بدلاً من الطاغوت كما أن اللفظان مترادفان . فهذا من جهة ومحصل
أكثر الأقوال من جهة أخرى في جانب عمومية اللفظين أكثر منها في جانب
كونها اسمين لصنمين لقريش وبشبير ادق في جانب الرأي الأخير القائل إنهما
كنايتان عن الشرك والوثنية والاتجاه لغير الله . وهذا ما تراح إليه البنس وتلجمه
الآيات بصورة عامة وخاصة بالنسبة إلى لفظ الطاغوت الذي تعدد وروده في عدد
التنديد بمعبادة غير الله . وآية النحل (٣٦) المكية تؤيد رأي عمومية معنى الطاغوت
وبوضوح أكثر وتحمله معنى الشرك والعبادات الباطلة ، وكذلك آية الزمر (١٧)
أيضاً . واليهود الذين ذكروا في آية المائدة (٦٠) بأنهم عبدوا الطاغوت في دور
من ادوارهم إنما عبدوا المعجل وبطل والأصنام كما ذكرته أسفار التوراة ، وهذا
يؤيد كذلك بقوة كون الطاغوت لفظاً عاماً يعني الشرك والوثنية والعبادات والعقائد
الباطلة . ومما يمكن أن يضاف إلى هذا ويؤيده أن روح الآيات جميعها تلهم أن
الطاغوت والجبت ليسا اسمين وإنما هما نعمتان ونعنا تشبيح وذم . وهذا يبدو خاصة
في لفظ الطاغوت الذي ذكر المفسرون أنه مشتق من الطغيان .

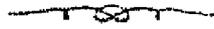


ولقد ذكر ابن هشام (٢) أنه كان للعرب بيوت يعظمونها ويهدون إليها الهدى
ويطوفون حولها ويضرون أصنامهم فيها ، وأن هذه البيوت كانت تسمى طواغيت
جمع طاغوت وأنه كان لهذه البيوت سدة وخدام ؛ وقد سمي بن هشام أسماء بعض

(١) الخازن في تفسير آتي النساء (٦٠ و ٧٦) مثلاً

(٢) ح ١١ ٨١

البيوتات التي كانت سدانة بعض هذه الطواغيت فيها ، وانها ظلت الى أن تم الفتح الاكبر فارسل النبي (ص) من هدمها ، ومما قاله كذلك إن العرب كانوا الى ما كان لهم من هذه البيوت الخاصة في منازلهم يعترفون بفضل الكعبة ويعتبرونها البيت الأكبر الذي يجب حجه . وقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام (٢) شيئاً من هذا دون ان يذكر ان هذه البيوت كانت تسمى طواغيت بل ذكر اسم الكعبة لبعضها ، ومعلوم من الروايات المتواترة انه كان يوضع في داخل الكعبة وفي فنائها اصنام عديدة يعظمها اهل مكة وسائر العرب معاً . فهذه الروايات تساعد على الاستئناس والقول إنه كان للعرب كعبات محايه وكعبة عمومية كما كان لهم آلهة او اصنام محلية واخرى عمومية. غير اننا نرجح ان تسمية تلك الكعبات بالطواغيت التي انفرد بذكرها ابن هشام لم تكن التسمية التي يطلقها أصحابها عليها لأن في الكلمة كما قلنا نعتاً ذمياً لا يعقل ان تطلق من قبل أصحاب الكعبات على كعباتهم وانما هي تسمية اسلامية ، وان التسمية الشائعة كانت الكعبة كما ذكر ذلك صاحب كتاب الأصنام ولو انه ذكر التسمية مضافة الى بعض البيوت دون بعض .



(١) ص ١١ و ١٩ و ٢٠ و ٤٤ و ٤٥ وما ذكره انه كان لخمير بصنعاء بيت يقال له رثام وانه كان لبني ربيعة بيت يقال له رضي وكان لبني الحارث كعبه بنجران ولا ياد كعبة بسنداد بين الكوفة والبصرة .

الفصل الثاني

في الملائكة وعقائد العرب فيهم

حفاوة القرآن بالملائكة — تصنيف الآيات حسب المواضيع — اشتقاق كلمة الملائكة — ماهية الملائكة في ذهن العرب — الآيات المتصلة بعقائد العرب في الملائكة ودلالاتها — عقيدة الملائكة بنات الله — عبادتهم والاستشفاع بهم — قدم العقيدة العربية فيهم — الالة والعزى ومناة رموز لهم — العرب والتجريد في العقيدة — عقيدة العرب بالملائكة خطوة دينية تطويرية — صلة العقيدة بالكتابين — الآيات في تحدي العرب بالملائكة ومداهها ودلالاتها — الآيات عن مكانة الملائكة — دلالاتها أسلوباً ومضموناً وكثرة — قصة سجود الملائكة لآدم وهدفها — استدلال على معرفة العرب للقصة قبل البعثة — الآيات الايمانية عن الملائكة — ما يمكن أن يستدل عليه من الآيات واساوبها .

— ١ —

أشرنا في الفصولين السابقين إشارات مقتضبة إلى الملائكة وعقائد العرب فيهم . ولهذا الموضوع خطورة تقتضي ان يعن النظر فيه ، وينظر في الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الملائكة بانعام ، فقد ذكرت الملائكة في عدد كبير من الآيات ، وبحفاوة واهتمام وأساليب ومواضيع متنوعة ، وهذا مما يزيد في خطورة موضوعهم ايضاً . ومن الممكن تقسيم المواضيع التي ذكر فيها الملائكة أو بالأحرى تصنيف آياتها إلى أربع مجموعات :

الأولى ماله صلة بأديان العرب وعقائدهم .

الثانية ما حكي فيه عن تحدياتهم في صدد الملائكة .

الثالثة ما احتوى بيان فخامة مركز الملائكة عند الله من جهة وتوكيد عبوديتهم

له من جهة اخرى .

الرابعة ما فيه تقرير لعمدة الايمان بالملائكة وما يقومون به من أعمال وخدمات لله،
والموضوعان الثاني والثالث لهما علاقة بالموضوع الاول ، او فيها ترديد لصداه ،
ودلالة على ما كان في اذهان العرب عن الملائكة ، ورد على ما كانوا يعتقدونه فيهم .
والموضوع الرابع وإن كان موضوعاً إيمانياً فإنه هو الآخر لا يخلو من صلته بالموضوع
الاول ؛ إذ فيه إقرار لوجود ومركز الملائكة مع تصحيح لما في الازهان عنهم من
عقائد ومفاهيم ناقصة او مغلوطة .

— ٢ —

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نود ان نقول كلمة فيما يعنيه لفظ « الملائكة »
وما يمكن أن يكون العرب قد فهموه من هذه التسمية ومن ماهية الملائكة .
لقد قال جهمرة من المفسرين (١) في صدد الآية (٣٠) من سورة البقرة أن
الكلمة مشتقة من الالوكه « أي الرسالة » . وقال بعضهم (٢) إنها مشتقة من
« الملك » وان الميم فيها أصلية . ويرى بعض الباحثين أنها مشتقة أو متطورة من
جذر « مآك » الموجود في اللغات السامية على اختلاف في نطقه .

وفي القرآن آيات تشير إلى مهمة الرسالة التي كان يحملها الملائكة عن الله مما
يمكن أن يستأنس به في تصويب اشتقاق الكلمة من الالوكه كما ترى في الامثلة الآتية:

١ — ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه

لا إله إلا أنا فاتقون . . .

٢ — الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس . . .

٣ — الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة . . .

فاطر ١

ومع أن من الاضوب ان يقبل ما عليه الجمهور من اشتقاق الكلمة من الالوكه
لاسيا ويعضد ذلك او يستأنس عليه بالآيات التي نقلناها ، وكثير من آيات القرآن
والفاظه يفسر بعضها بعضاً وهو الحجية اللغوية الصادقة في العربية ، فاننا لانرى كبير

(١) الطبري والرازي والحازن والنسفي وابو السمود والبيضاوي مثلاً .

(٢) الطبري مع روايته اشتقاق الكلمة من الالوكه ايضاً .

أهمية في إرجاع اشتقاقها الى جذر « الملك » السامي ، لأنه لا يبعد أن يكون هذا الجذر يحمل نفس المعنى الذي أشار اليه المفسرون اولاً ، ولا أن ورودها في القرآن قد جعلها تدخل في معجم اللغة العربية ومفرداتها قبل البعثة كعلم على حنف من عباد الله وهم « الملائكة » ثانياً .

ومهما يكن من أمر فإن مما لا شك فيه أن العرب كانوا يعتقدون بوجود الملائكة الذين اطلقوا عليهم هذه التسمية عاماً ، وباتصالهم مع الله ، وبأن الله هو الذي يرسلهم إلى الناس ، واعتقاد العرب بوجودهم مؤيد بالدرجة الأولى بوجود هذه التسمية في لغتهم ، عدا ما في القرآن من آيات كثيرة تحكى عقائدهم فيها ومنها وجودهم . واعتقاد العرب باتصالهم بالله مؤيد بآيات قرآنية عديدة حكمت تحديدهم النبي (ص) باستئصال الملائكة لتأييد نبوته إن كانت من الله حقاً كما ترى في الآيات التالية :

١ — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... الأنعام ٨

٢ — فلعنك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل

عليه كنز أو جاء معه ملك ... هود ١٢

٣ — وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن

كنت من الصادقين ... الحجر ٦-٧

٤ — وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيراً ... الفرقان ٧

هذا فضلاً عن ما ينطوي في عقيدتهم بأن الملائكة بنات الله من تأييد ذلك أيضاً .

— ٣ —

هذا عن التسمية ودلالاتها . أما عن الخلقة والمنشأ في القرآن آيات تحكي

اعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله مثل آيات الصافات ١٤٩ - ١٥٥ التي نقلناها في

فصل سابق ، عدا ما هناك من آيات عديدة في نفس الصدد سنستعرضها في ما بعد .

وقد جاء في القرآن آية حكمت جعل العرب بين الله والجن نسباً وهي هذه :

« وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ... الصافات ١٥٨

وقد قال المفسرون (١) في تفسيرها إن العرب كانوا يعتقدون أن الله سبحانه قد

(١) الطبري والخازن وغيرها .

أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهم ؛ وبما يمكن أن يوجه هذا القول أن الآية جاءت عقب السلسلة التي حكى عقيدة العرب بأن الملائكة بنات الله ونددت بهم من أجل ذلك وهي الآيات (١٤٩-١٥٥) التي أشرنا إليها وثلاث آيات أخرى فيها استمرار في التنديد والافحام أي انها من نفس السلسلة كما ترى :

« أصطفى البنات على البنين . ما لكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ... الصافات ١٥٣-١٥٧ .
أما عن الماهية فليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على عقيدة العرب فيها . غير أن بعض المفسرين روى في صدد آية البقرة (٣٠) حديثاً نبوياً مفاده ان الملائكة خلقوا من النور . ومع التنبيه على عدم إمكان القول بجزم بأن العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ذلك قبل البعثة استناداً الى هذا الحديث فان اعتقاد العرب بعلة الملائكة بالله وبولادتهم منه يحمل على الترجيح بأنهم او بأن فريقاً منهم كان يعتقد نورانية الملائكة او بأنهم غير ماديين . ولعل في عقيدتهم بولادتهم من الصبارة بين الله سبحانه وبين الجن ما يستأنس به على عقيدة النورانية . فالقرآن قد ذكر أن الجن خلقوا من النار ولا نستبعد إن لم نقل نرجح ان العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل البعثة فتكون مصاهرة الله سبحانه للجن على زعمهم قد حفت النار حتى صارت نوراً فكان هذا النور الآلهي هو الملائكة . ومع ذلك فان طلبهم الاتيان بهم واستنزالهم عليهم مما حكته آية في سورة الاسراء :

« او تأتي بالله والملائكة قبيلاً ... »

٩٢

وآية في سورة الفرقان :

« وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... »

لما يمكن ان يلهم أنهم كانوا يخيلونهم اجساماً يمكن ان يراها الناس ماثلة

أمامهم ايضاً .

— ٤ —

واليك الآن آيات الصنف الاول المتصل بأديان العرب وعقائدهم بالملائكة :

١ — ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بسر أحدكم بالآتي ظل

وجبه مسوداً وهو كظيم ... النحل ٥٧-٥٨

٢ - أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذمن الملائكة إناثاً إنكم اتقون قولاً عظيماً

الاسراء . ٤

٣ - آيات سورة الانبياء ٢٦ - ٢٩ التي نقلناها في فصل سابق .

٤ - ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا

سبحانك أنت وإينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ...

سبأ ٤٠-٤١

٥ - آيات الصافات (١٤٩-١٥٩) التي نقلنا بعضها في الفصل السابق وبعضها

قبل قليل .

٦ - وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق

بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً

وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجاءوا الملائكة

الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتن شهدتهم ويسألون . وقلوا لو شاء

الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله

فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ...

الزخرف ١٥-٢٢

٧ - آيات سورة النجم ١٩-٢٧ التي نقلناها في فصل سابق .

فهذه الآيات تدل :

اولاً على أن العرب او فريقاً منهم كان يعتقد بأن الملائكة بنات الله . وفي آيات

سورة الاسراء والنحل والزخرف والصفات والنجم مساجلة استنكارية لزعمهم هذا

حيث تقول للعرب على سبيل المساجلة والتبكيث كيف تجوزون على الله ان يكون

اولاده بنات بينما تعتبرون البنات أدنى من البنين وتكرهونهن هذا الكره الشديد

في حين انه إذا جاز أن يكون له اولاد فالمعقول ان يتخذهم من المرتبة العليا .

وثانياً على ان العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويتقربون الى الله بهم استشفاعاً

بهم لانهم بنات الله ولهم حظوة لديه . على أن الآيات في هذا الصدد متنوعة المضمون ،

فمنها ما فيه الدلالة على اتخاذ الملائكة شفعاء، ومنها ما ذكر فيها عبادة العرب لهم دون إشارة إلى ماهية العبادة وصفة هدفها؛ أي ما إذا كانت عبادة أصلية أو عبادة استشفاع. وهذا النوع يجعلنا نقول إن من المحتمل أن يكون هناك من كان يعبد الملائكة عبادة أصلية اشراكاً مع الله ومنهم من كان يبدع عبادة استشفاع. وإذا صح هذا فالمرجح أن تكون عبادة الاستشفاع قد جاءت متأخرة وكم خطوة تطورية إلى الاعتراف بكون الله هو الإله الأعظم وبكون الملائكة إناهم وسائل وشفعاء؛ وطبعي أن يكون المستشفعون من الطبقة الأقل أكثر استنارة واحتكاكاً بالعالم وخاصة بالكتابين، كما أن وجود هذا التنوع سائغ كنتيجة لتفاوت الذهني بين بيئة النبي (ص) وعصره على ما نبهنا على هذا وذلك في مناسبة سابقة.

وثالثاً على أن عقائد العرب في الملائكة موروثية عن الآباء أو بكلمة أخرى ليست حديثة عهد، حيث تنص على استمسكهم بها لأنهم وجدوا آباءهم عليها من قبل وهم مهتدون بهديهم (آية الزخرف ٢٢)

ورابعاً على أن الذين كانوا يؤهلون الملائكة ويمبدونهم أو أن فريقاً منهم كانوا يمتدحون الآلة والعزى ومناة رموزاً وهياكل مادية في الأرض للملائكة الذين هم في السماء، ويمضون بها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ويذبحون لها على هذا الاعتبار. وننبه على أن آيات النجوم التي تلهم هذا هي التي تلهم في الوقت نفسه أن الذين يعتقدون بصلة هذه المعبودات بالملائكة كانوا من الطبقة التي اتخذت الملائكة شفعاء.

وخامساً على أن اتخاذ رموز مادية للملائكة من قبل العرب يمكن أن يدل أيضاً على عقيدتهم بأن الملائكة غير ماديين وغير مرئيين، وأن إيمانهم بهم غيبي وتجريدي، كما إيمانهم بالله الذي هو أبهم على زعمهم سبحانه. إذ إن التطور الديني لم يكن بعد قد بلغ فيهم مبلغاً يجعلهم يكتبون بهذه العقيدة الغيبية التجريدية فاتخذوا هذه الرموز المرئية كجسور متوسطة بين العقيدة القياسية التجريدية والعقيدة المادية. والذي نرجحه أن الذين كان لهم معبودات مادية غير المعبودات الثلاثة خصوصية وعمومية وكانوا يعتبرون بالله كإله أعظم في نفس الوقت إنما كانوا يفعلون ذلك لذات السبب أيضاً.

وسادساً على أن عقائد العرب وتكبيرهم الديني لم يكن قاصراً على الجسادات

والأحجار ! ولم يبقوا على ذلك على الأقل كما حاول ان يوهمه الرواة والكتاب
القديمون وجاراهم بعد ذلك بعض الكتاب الحديثين من المسلمين ايضاً (١) .

(١) نذكر اننا قرأنا لآحد علماء العرب مقالاً في مجلة الثقافة المصرية حاول
الكتاب ان يؤكد ان العرب في جاهليتهم كانوا وضيعين في تفكيرهم الديني وأن
الأحجار هي التي كانت مظهر عبادتهم وتفكيرهم الديني، وقايس بين هذا وبين ما كان
عليه تفكير اليونانيين الديني من الارتفاع الى السماء وتخيل معبوداتهم فيها وكونها
رموزاً او آلهة للقوى الطبيعية . وكان في هذا المقل حط مقصود كما خيل لنا
لأفكار العرب وقصور خيالهم ، وانحصاره في المادة والأحجار على عكس ما كان
عليه اليونانيون . والآيات الواردة في القرآن عن عبادة العرب للملائكة وجعل
معبوداتهم المادية رموزاً وتخيل الملائكة بنات لله ، ينقض ذلك ؛ فكما ان اليونانيين
تخيلوا آلهتهم في السماء وتخيلوا ان بعضها جاء نتيجة اتصال زواجي بين بعض الآلهة
الأبطال وبين بعض النساء الآدميات او الآلهات تخيل العرب ؛ وكما ان
اليونانيين اتخذوا آلهتهم رموزاً من الأصنام او هياكل لها فعل العرب ذلك . وامله
لو وصل الينا شيء مكتوب في ذلك العصر غير القرآن وقبله لرأينا أشياء كثيرة
عن تخيلاتهم الدينية كما روي عن اليونانيين في الكتب التي وصلت الينا من عهدهم
وكتبت في عصورهم او في عصور مقاربة لعصورهم ووصفت فيها هياكلهم وآثارها
وكتابتها . ومع أن ما في القرآن عن الملائكة وعقائد العرب فيهم من
الأشياء الكثيرة وكذلك عن الجن كما سيأتي في الفصل الثاني انما جاء بسبيل
التنديد ومحاربة الشرك والوثنية والعقائد الباطلة وتنكيس أعلامها وطمس معالمها ،
وهو بعد ليس كتاب تاريخ وفن واحصاء ووصف فلم تقتض الحكمة ان يكون فيه
معلومات واصف واسعة عن عقائد العرب وتخيلاتهم ، فان من الممكن القياس
على ما فيه وتكبيره ، وحينئذ يمكن ان يرى المرء كما قلنا صوراً طريفة حقاً تجعل
من السائق ان يسلك العرب بها في سلك غيرهم في التفكير الديني وتطوره ، وتجعل
من غير السائق ان يمدوا من هذه الناحية في طور بدائي مما يحكي عن الامم
المتوحشة في افريقية وغيرها .

ويتبادر لنا أن عقيدة العرب بالملائكة من حيث أصلها اشراكاً أو استشفافاً أو اعتقاداً بوجودهم وصلاتهم بالله هي خطوة تطورية ، وأولها خطوات أولها اعتقادهم بوجودهم ثم بألوهيتهم ثم بينوتهم لله وعبادتهم شركاء ثم شفعاء . وأول من الصحيح أن يفرض أن العقيدة العربية كانت في بادئ أمرها وثنية أو عبادة قوى طبيعية غير محددة أو الاثنتين معاً وحيث تكون الأولى زموراً لثانية ؛ ثم تطورت إلى الشعور بقوى الأذى والشر الخفية التي عبر عنها بالجن وبشوى البر والخير والرحمة التي عبر عنها بالملائكة ثم انبثق معنى الله أو وحد اليهم هذا من أخبار الأمم العربية البائدة وانبياؤها وأهل الكتاب ، غير أنه لم يكن واضح المدى ، فتطورت عقيدة الوهية الملائكة ، عبادتها فصاروا حلقة متوسطة بين الله شركاء أو استشفعاءً . وواضح أنه ينطوي في هذا التطور إنتقال إلى العقيدة التجريدية بعد العقيدة المادية مع الاحتفاظ بظاهر هذه العقيدة في المعبودات المادية التي كانت منتشرة سائدة معظم وتترك في الدعاء والاتجاه والعبادة ويذبح لها ، أصلاً أو استشفعاءً إلى جانب عقيدة وجود الله كآله أعظم ووجود الملائكة كبنات الله لهم عند الحظوة ، ولهم التأثير في النفع والضرر والمنع والاعطاء . وقد جاء الإسلام واكثرية العرب الساحقة في هذا الطور مع التفاوت الذي كان طبيعياً في بيئاتهم من حيث الحضارة والبداءة والاتصال والعزلة .

وفي آيات الصافات والزخرف سئل العرب عما إذا كان لديهم سند من كتاب لعقيدتهم بكون الملائكة اناثاً وبنات لله . وهذا السؤال جعلنا نتساءل عما إذا كان من قبيل التحدي والتهكم والأفهام فقط أو أن المعتقدين كانوا يزعمون أنهم على حق في عقائدهم وأن الكتب السماوية قد أيدتها ؟ وإذا كان فرض هذا الزعم صحيحاً فهل سمعوا شيئاً من الكتابيين عن شفاعة الملائكة وحظوتهم عند الله فانتبسوه وكيّفوه في اذهانهم إلى أن انتهى إلى عقائدهم التي اشارت إليها الآيات ؟ والذي نرجحه أن الكتابيين كانوا مصدرراً رئيسياً لمعلومات العرب وتخيلاتهم وعقائدهم في الملائكة ،

واعلم من الجائز ان يقال ان تسمية قوى الخير والبر والرحمة الخفية التي كان العرب يعتقدون بها ويرحون عطفها وعونها بالملائكة قد كان أراً من آثار هذا المصدر. فقد كان علم الكتابيين بالملائكة ومصلحتهم بالله ورسالاته وشامته قديماً جداً لأن ذلك مما ذكر في أسفار التوراة والإنجيل ؛ وقد كانوا يثذرونهم شفعاء كما تراه في بعض آيات سورة آل عمران :

«ما كان ابشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة فيقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون..»
آل عمران ٧٩ - ٨٠

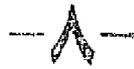
حيث تلمح فيها في صدد جدل بين النبي (ص) وبين بعض الكتابيين حول تعظيم الانبياء والملائكة تعظيماً يقرب من العبادة ، ويحملهم كأنهم أرباب أو أدنى الى الربوبية والاستشفاع بهم استشفاع المعتقد بتأثيرهم .
فمن الجائز والحالة هذه ان يكون العرب قد قالوا ان الكتب السماوية تؤيد عقائدهم على اعتبار ان الكتابيين على شيء منها فتجدهم القرآن بأبواب ذلك على ما المعنا اليه .



ونأتي الآن الى الآيات المتعلقة بالموضوع الثاني :

- ١ — من هذه الآيات ما نقلناه سابقاً وهو آيات الأنعام (٧) وهود (١٢) والحجر (٦ - ٧) والفرقان (٧) .
 - ٢ — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . . .
الأسراء ٩٢
 - ٣ — وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً . . .
الفرقان ٢١
- فهذه آيات وان كانت تحكي أقوال العرب التعجيزية والتهكمية فانها تدل على انه كان للملائكة في اذهانهم او اذهان فريق منهم على الاقل في عصر النبي (ص)

وبيئته مكانة او صورة عظيمة خارقة ، عدا دلائلها على اعتقادهم بوجود الملائكة
 وصلتهم بالله ، فكانوا يطلبون من النبي (ص) تأييد دعواه بالنبوة ودعوته التي بلغها
 عن الله بملائكة ينزلهم الله اليه او ينزلهم عليهم ليروهم ما تايين امامهم . والماني الاول
 واضح بنوع خاص في آيات الحجر ، حيث تلهم ان المشركين قالوا للنبي (ص) انك
 تدعي ان الذكر - اى القرآن - ينزل عليك من الله فان كنت صادقاً فأنا بالملائكة
 الذين هم ذروا اتصال بالله ، المبلغون عنه . اما الماني الثاني فهو واضح في آيات
 الاسراء ١٢ والفرقان ٢١ .



وهذه هي آيات الموضوع الثالث :

١ — قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله مصداقاً لما بين يديه
 وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال
 فان الله عدو للكافرين ... البقرة ٩٧ ٩٨

٢ — إن الذين كفروا وما اتوا وهم كفار اوائك عليهم لعنة الله والملائكة
 والناس أجمعين ... البقرة ١٦١

٣ — هله ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر
 والى الله ترجع الامور ... البقرة ٢١٠

٤ — شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ...

آل عمران ١٨

٥ — إذ تقول المؤمنون ألن يكفيم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة
 منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف
 من الملائكة مسومين ... آل عمران ١٢٤ - ١٢٥

٦ — لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنه بعلمه والملائكة يشهدون ...

النساء ١٦٦

٧ — لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون .

النساء ١٧٢

- ٨ — إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... النساء ٩٧
- ٩ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ... الأنعام ٥٠
- ١٠ — ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحذرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ... الأنعام ١١١
- ١١ — أذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ... الأنفال ١٢
- ١٢ — ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ... الأنفال ٥٠
- ١٣ — الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا السلم ما كنا نعمل من سوء ... النحل ٢٨
- ١٤ — الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ... النحل ٣٢ - ٣٣
- ١٥ — ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ... النحل ٤٩ - ٥٠
- ١٦ — وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله رسلاً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ... الإسراء ٩٤ - ٩٥
- ١٧ — وما تنتزل (١) إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ... مريم ٦٤

(١) الجمهور على أن هذا من كلام الملائكة

١٨ - إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا

الاحزاب ٥٦

تسليماً ...

١٩ - هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ...

الاحزاب ٤٣

٢٠ - وترى الملائكة حائرين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ...

الزمر ٧٥

٢١ - الذين يحملون (٢) العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون

بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا

وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ... غافراً ٧

٢٢ - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا

وفي الآخرة ... فصلت ٣٠ - ٣١

٢٣ - تكاد السواوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم

ويستغفرون لمن في الارض ... الشورى ٥

٢٤ - ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون ... الزخرف ٦٠

٢٥ - يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة

عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ...

التحريم ٦

٢٦ - والملاك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ...

الحاقة ١٧

٢٧ - تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة .

المعارج ٤

٢٨ - يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن

وقال صواباً ...

النبا ٣٨

(٢) الجمهور على ان المقصودين هم الملائكة

ففي هذه الآيات وقد أكثرنا منها بقصد لفت النظر الى ما أسبغ على الملائكة من خطورة ، تنويه بالملائكة ومنزلتهم عند الله من ناحية ، وتوكيد لعبوديتهم من ناحية ثانية ؛ وفيها رد على اقوال العرب وتحديدهم وتهكيمهم وتصحيح لما في أذهانهم من انحراف في اتخاذهم آلهة او شفعاء من ناحية ثالثة ؛ كما ان فيها من ناحية رابعة وعلى ما يتبادر لنا تثبت لما في أذهانهم عنهم من عظمة وفخامة وعلو قدر واتصال بالله ايضاً .

فالله عدو لأعداء الملائكة ، وهم عنده يحسبون عرشه ، ويحفظون حوله ريسبحون بحمده ، ولا ينزلون إلا في ما عظم من الأمور ، ويشهدون مع الله على صحة ما أنزل على النبي (ص) من قرآن وحمل من رسالة ؛ وهم يشهدون المؤمنين في جهادهم ويصاون عليهم مع الله ، ويتلقونهم حين الوفاة بالبشرى والتحية والتكريم ويستغفرون لهم في حين أنهم يعاملون الكفار عند وفاتهم بالغلظة والقسوة والشدة ويتلقونهم في الآخرة بمثل ذلك ويلعنونهم مع الله ؛ ومع كل ذلك فهم بصورة عامة والمقربون منهم في المقدمة لا يستنكفون عن عبادة الله والخضوع له ، ويعرفون حدودهم فلا يتكلمون إلا بأذنه ورضائه ...

فهذه التقارير عن الملائكة تلهم كما قلنا أن لهم في اذهان العرب صورة قوية مستقرة من علو المنزلة وعظمة الشأن ، وتثبت شيئاً مفهوماً مستقراً عند العرب الذين كانوا أول المخاطبين بالقرآن سواء منهم المسلمون والكفار ؛ وقد أريد كما يتبادر لنا ايضاً تقرير عدم إمكان شفاعة الملائكة للشركيين وإن عبدوهم واستشفعوا بهم ، وإنما سيكونون نقمة وشرأ عليهم ، وإنهم مها علت منزلتهم وعظمت اقدارهم لا يخرجون عن كونهم عبيداً خاضعين لله لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون^(١) ويخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . وهذه التقارير إنما تكون أقوى تأثيراً حينما تقرر لأناس قد شغلت الملائكة حيناً كبيراً في اذهانهم بطبيعة الحال .

(١) آيات سورة الانبياء ٢٦-٢٩

ومما هو جدير بالتنبيه استطراداً وبصورة خاصة تكرر ذكر قصة آدم وسجود
الملائكة له ، وفي السور المكية بنوع خاص كما ترى في مايلي :

١ - ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا...
الاعراف ١١

٢ - وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. فإذا
سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون...
الحجر ٢٨-٣٠

٣ - وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا... الإسراء ٦١ والكهف ٥٥

٤ - وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت

فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون... ص ٧١-٧٣

ففي هذا التكرار معنى توكيد عبودية الملائكة لله ، وكونهم لم يستنكفوا عن
السجود لآدم الذي خلق من تراب تنفيذاً لأمر الله . ونرجح انه توخى في هذا
ايضاً رد على ما كان المشركون يعتقدونه من صفات الاغلوهمية والربوبية في الملائكة.
واقدم وردت هذه القصة في سورة البقرة بأسلوب آخر كما ترى في مايلي :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجمل فيها من يفسد

فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم

آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم

بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم

ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى

واستكبر وكان من الكافرين... البقرة ٣٠-٣٤

فهذه الآيات وما فيها من حوار يدل من جهة على مكانة الملائكة من الله وتبئها

من جهة ، كما تستهدف تقرير عبوديتهم له ومعرفتهم حدودهم إزائه من جهة أخرى؛

فما تستهدف في الآيات الأخرى على ما ذكرناه قبل قليل .

وما يحسن اضافته انه ليس في آيات البقرة والسور الاخرى ولا في أساليبها ما يفيد أن العرب يسمعون هذه القصة لأول مرة مما يمكن ان يلهم انها تقرر شيئاً معلوماً عندهم ، وانها إنما تورد وتتكرر للعبارة والموعظة وضرب المثل ؛ وهو مالا نرتاب فيه . فالقصة موجودة في التوراة ولو لم تكن متطابقة مع ما جاء في القرآن ، وأخبار التوراة وقصصها لم تكن بجوهلة في الأوساط العربية ، وخاصة في بيئة النبي (ص) على ما ذكرناه في اكثر من مناسبة .

- ١١ -

بقي علينا ان نستعرض الآيات المتعلقة بالموضوع الرابع . واليك هي :

١ - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ...

البقرة ١٧٧

٢ - آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته

البقرة ٢٨٥

وكتبه ورسوله ...

٣ - وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء

آل عمران ٤٢

العالمين ...

٤ - فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أت الله يبشرك بيحيى ...

آل عمران ٣٩

٥ - إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن

آل عمران ٤٥

مريم ...

٦ - ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً

النساء ١٣٦

بعيداً ...

٧ - ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ...

الرعد ١٣

٨ - ما ننزل الملائكة إلا بالحق ...

الحجر ٨

٩ - فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن

منك إن كنت تقيماً . قال إنما أنا رسول ربك لأهبك غلاماً زكياً ... مريم ١٧-١٩

١٠ - ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إننا مهلكوا أهل هذه القرية إن

أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سميء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون... العنكبوت ٣١-٣٤

١١ - وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها

وقال لهم خزنها ألم يأتيكم رسل منكم... الزمر ٧١

١٢ - وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت

أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين... الزمر ٧٣

١٣ - وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل

رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء... الشورى ٥١

١٤ - أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون...

الزخرف ٨٠

١٥ - ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد... قاف ١٨

١٦ - وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد... = ٢١

١٧ - عامه شديد القوى . ذو مرتة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا

فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد

ما رأى . أقمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى... النجم ٥-١٤

النجم ٥-١٤

١٨ - وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة... المدر ٣١

١٩ - كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين .

يعلمون ما يفعلون... الانفطار ٩-١٢

٢٠ - إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم

أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين... التكويد ١٩-٢٣

٢١ - تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر... القدر ٤

ويسلك في سلك آيات هذا الموضوع كثير من الآيات التي نقلناها لاشتراكها

معها فيه وخاصة آيات البقرة ٩٧-٩٨ وآل عمران ١٨ و١٢٤-١٢٥ والنساء ١٦٦
و١٧٢ والأَنْعَام ١٥٨ والأَنْفَال ١٢ و٥٠ والنحل ٢٨ و٣٢-٣٣ و٤٩-٥٠
ومريم ٦٤ والأْحْزَاب ٥٦ و٣٤ والزمر ٧٥ وغافر ٦ وفصلت ٣٠-٣١ والتحریم ٦
والْحَاقَّة ١٧ والأَنْبِيَاء ٢٦-٢٩

ومع ان آيات هذا الموضوع ومشاركتها مع آيات المواضيع السابقة هي بسبيل
تقرير عقيدة الايمان بالملائكة وتكفير منكرهم ؛ والاطار بما يقومون به من
خدمات لله سبحانه سواء في تبليغ الانبياء رسالات الله وبشارته او تنفيذ أوامره
في ملكوت السموات والأرض ، او في حراسة الجنة والنار ، وإنزال الناس منازلهم
فيها ، او في مراقبة أعمال الناس وتسجيلها الخ . فانها يمكن من جهة اخرى ان
تكون مثل آيات الموضوع السابق بسبيل تثبيت ما في أذهان العرب قبل البعثة عن
الملائكة من معلومات وصور مع تصحيح ما فيها من خطأ او وهم . فالعرب كانوا كما
أشرنا في الأبحاث السابقة يؤمنون بوجود الملائكة وصلاتهم بالله ومنزاتهم عنده
وقيامهم بتدبير أمر الكون بأمره ؛ مع الانحراف الى الاعتقاد بأنهم بنات الله
واشراكهم معه بالعبادة واعتقادهم بنفعهم وضرهم .

الفصل الرابع

في الجن وعقائد العرب فيهم

خطورة موضوع الجن — تصنيف أبحاث الفصل حسب الآيات — كلمة الجن ومداهها في اذهان العرب — ترادف كلمتي الجن والجنة ودلالته — الآيات المتعلقة بعقائد العرب في الجن — دلالتها وما تحتويه من صور — اشراك العرب الجن كان بدافع الخوف ونفادي الأذى — ظروف انبثاق فكرة العنصر الخفي الشرير في اذهان العرب — توهم العرب وجود جن في أجواف اصنامهم — الآيات التي يستأنس بها على ما عند العرب من افكار ومعازف عن الجن — مافي الآيات من دلالات وصور — ماهية الجن عند العرب — استدراك على نعت العرب النبي (ص) بالجنون. الآيات الايمانية في الجن — مافيها من دلالات وصور — إبليس والشيطان وحلتها بموضوع الفصل — اشتقاق كلمة إبليس ومعناها — ماهية إبليس — ذرية إبليس. إبليس وذريته فريق من الجن — مدى تسمية إبليس ومهمته — احتمال اقتباس العرب معرفتهم بابليس من الكتابيين — قصة آدم وإبليس في القرآن — دلالة القصة وحكمة تكرورها — كلمة الشيطان — دلالاتها من الآيات — مرادفتها لابليس على الغالب — الشيطان في اذهان العرب — هل كان العرب يعبدون إبليس والشيطان فعلاً .

— ١ —

وموضوع الجن هو الآخر له خطورته في عقائد العرب وافكارهم في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة . وقد ورد ذكرهم كثيراً في القرآن في مناسبات متنوعة . وتقيد مع ذلك ان الآيات الواردة عنهم أقل من الآيات الواردة عن الملائكة عدداً ، وايس فيها ذلك الوضوح الذي يمكن الاستناد اليه في شرح عقائد العرب وافكارهم فيهم بقوة وتوكيد كما استطعنا ذلك في موضوع الملائكة. ولكننا سنحاول رسم صورة قرآنية عنهم نرجو ان يكون فيها بعض الغناء والوضوح . وكما فعلنا

في آيات الملائكة منفعل في آيات الجن حيث نستعرضها مصنفة في مجموعات نتناول
المواضيع التالية :

الاولى : ما يتعلق بمقائد العرب وأديانهم .

الثاني : ما يمكن الاستئناس به على ما عند العرب من افكار ومعارف عن الجن .

الثالث : ما فيه تقريرات ايمانية عن الجن وماهيتهم .

والموضوع الثالث وان كان ايمانياً وغيباً فإنه غير منقطع بالموضوع الثاني فيما نعتقد .

— ٢ —

وقبل البدء باستعراض الآيات نرى ان نذكر شيئاً عن كلمة « الجن » وما يمكن

ان يكون في ذهن العرب عنها .

فالولا ان كلمة الجن وبعض تشابهاتها او تفرعاتها اللفظية مثل جن وجنة وجنين

تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول ان الشيء

الخفي او المستور بالنسبة الى الجن مما كان مستقراً ومفهوماً في اذهان العرب . ولعل

مما يصح قوله ان اطلاق التسمية انما هو مقتبس من المعنى ، وبعد ان وجد في ذهن

العرب معنى او عقيدة وجود هذا النوع الخفي من مخلوقات الله .

ولقد ذكر بعض المفسرين قولاً بشمول تسمية الجن للملائكة لا لتحادهم في معنى

الاختفاء في سياق تفسير آيات الانعام (١٠٠) والكهف (٥١) ؛ ولا نرى هذا

مستقيماً ؛ لا سيما وقد سمي القرآن كل نوع من النوعين بأسم خاص مما يسوغ القول

بان التسميتين كانتا قبل نزوله عامين عليهما في اللسان العربي . ولقد جاءت تسمية

الملائكة في التعبير عن نوع وتسمية الجن في التعبير عن النوع الآخر في مقطع قرآني

واحد مما يصح ان يعتبر دليلاً قاطعاً :

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا

سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون . . .

سبأ ٤٠ - ٤١

على ان هذا لا يفقد ذلك القول وجاهته بالارة وخاصة بالنسبة لمدة طويلة نوعاً

قبل البعثة ، ولتطور نشوء التسميتين ومدلولها . فمع قطعنا على التسميتين في

اذهان العرب عند نزول القرآن فلايس يبعد عن الاحتمال ان يكون العرب قد اطلقوا اسم الجن قبل ذلك بمدة طويلة ما على المنصرين الخفيين الرحيم والشرير والمأمول والخوف ، ثم اطلقوا على الاول اسم الملائكة وبقي الثاني علماً على النوع الثاني .

— ٢ —

وثانياً ان لفظ الجنة قد استعمل في القرآن مرادفاً لفظ الجن كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين هود ١١٩

٢ — الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس . الناس ٥ - ٦

وان لفظ الجنة استعمل في الدلالة على المعنى الذي يدل عليه لفظ الجنون كما

ترى في الأمثلة التالية :

١ — أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو الا نذير مبين . . .

الأعراف ٢٢ - ٢٣

٢ — أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق . . . المؤمنون ٧٠

٣ — وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . . . الانفطار ١٨٤

وان في هذا الاشتراك بين الجنة والجن وبين الجنة والجنون ما يمكن ان

يدل على ان العرب كانوا يعتقدون ان بين الجن والجنون صلة ، وان الجنون هو أثر

من آثار الجن في الانسان . وفي القرآن آية فيها صراحة ما في ذلك وهي :

«الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . . .»

البقرة ٢٧٥

ولفظ الشيطان استعمل في القرآن مرادفاً للجن واحياناً لوصف العتاة البغاة

منهم كما ترى في الامثلة التالية :

١ — ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك . . .

الانبياء ٨٢

٢ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه

من عذاب السعير . . . سبأ ١٢

٣ - وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون الى الملاء الاعلى ويقذفون
من كل جانب
الصافات ٧-٨
هذا مع القيد ان هذه العقيدة ليست عقيدة عربية خاصة ، بل اشترك فيها وما
زال جل الامم ان لم نقل كلها .

— ٤ —

واليك الآن آيات الموضوع الاول :

- ١ - وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه .
الانعام ١٠٠
- ٢ - ويوم يحشرهم جميعاً يومئذ الجن قد استكثرتم من الانس وقالوا لياؤهم
من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا اجلنا الذي اُجبت لنا . الانعام ١٢٨
- ٣ - آيات سبأ ٤١ - ٤٢ التي نقلناها قبل قليل .
- ٤ - وجعلوا بينه وبين الجنة سبأ ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون
- ٥ - وقال الذين كفروا ربنا اُرنا الذين اضلانا من الجن والانس نجلبها
تحت اقدامنا
فصلت ٤٩
- ٦ - وانه كان رجال من الانس يعوذون رجال من الجن فزادهم رهقاً . . .
الجن ٦

ومن الممكن ان يستدل من هذه الآيات على ما يلي

اولا ان العرب او فريقاً منهم اتخذوا من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم
وتأثيرهم وعبودهم (١) . وآيات الانعام وسبأ تساعد على الترجيح بان الفريق الذي
عنته قد اتخذ الجن شركاء اصليين كما فعل فريق آخر بالنسبة الى الملائكة كما سبق
القول . وآيات سبأ خاصة تلهم ان عقيدة الايمان بالجن كانت واسعة النطاق .
وثانياً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان بين الله سبحانه وبين الجن
نسباً . وقد أشرنا الى هذا في الفصل السابق فلا نرى ضرورة الالعادة .

(١) ذكر الكلبي في كتاب الاصنام ان بني ملح من خزاعة كانوا يعبدون

الجن (ص ٣٤)

وثالثاً ان العرب او فريقاً منهم كانوا يتوهمون التحالف مع الجن ويتولونهم ويستعينون بهم . وقد روى المفسرون (١) في صدر تفسير آيتي الأنعام والجن (١٢٨ و ٥) اللتين يستأنس بهما على هذا ان الرجل من العرب كان إذا سافر وخاف الجن في الطريق أو في أحد الوديان وخاصة في اسفار الليل التي هي جل اسفار العرب قال أعوذ بسيد هذا الوادي ، وكانوا يرون ذلك استجابة تقابل من الجن بالإستجابة . على ان آية الأنعام تحمل مفهوماً واسعاً في صدد ما كان يتوهم العرب من كثرة الصلات والمناسبات بين الجن والانس مما يمكن ان يلهم ان استجابة العرب بالجن وعبادتهم ليس محصوراً في الاسفار وحين عبور الوديان الموحشة ، بل كانوا يعمدون او بالاحرى يتعمدون منهم في كل مناسبة (٢) سواء كانوا مقيمين أو ظاعنين وخاصة في ظلمات الليل .

وفي سورة الفلق تلميح بالاستعاذة من ظلمة الليل كما ترى :

« قل اعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق اذا وقب (٣) . . . »

١ - ٣

مما يمكن ان يراه ان يسئل تلقين المسلمين - وكانوا عرباً حين نزولها - الاستعاذة بالله من شر ظلمة الليل بدلاً مما اعتادوه من الاستعاذة بالجن . فليس من التجوز ان يقال ان العرب كانوا يخشون ظلمات الليل ، وكان من بواعث خشيتهم هذه عقيدة الجن ووهم مسهم واذا هم .

- ٥ -

وعلى هذا فما يصح ان يقال ان اشراك العرب للجن في العبادة والادعاء واستجارتهم وعبادتهم انما كان لداعي الرهبة والفرع منهم اكثر منه لداعي الرغبة والرضاء وبغية الخيروالبر . ومن الجدير بالتنبيه عليه وفيه تأييد لهذا انه ليس

(١) الطبري مثلاً في صدر تفسير الآيتين .

(٢) في أسد الغابة ج ٤ ص ٣٣٤ قصة استجابة صاحب غنم بعامر الوادي

من الجن على ذئب خطف له حملاً .

(٣) غاسق : ظلمة الليل . وقب : خيم او انتشر .

في آيات الجن معنى الاستشفاع الذي كان يرجوه العرب من الملائكة ، والذي كان يبعثهم عليه الامل في خير الله وبره عن طريق الملائكة وحظوتهم ؛ وانما فيها الاستجارة والاستعاذة اللتين يبعث عليهما الخوف والغزغ ؛ وبعبارة اخرى ان العرب بينما كانوا يرون في الملائكة عناصر بر وخير ونفع وعون كانوا يرون في الجن عناصر شر واذى وضرر ؛ فكانوا يرجون من عبادة أوثانك والاستشفاع بهم البر والخير والنفع بينما كانوا يتقون بعبادة هؤلاء والاستعاذة بهم الشر والضرر والأذى . ومنها يمكن من امر فاننا نقول هنا كما قلنا في صدد الملائكة إن فكرة وجود عنصر شر خفي يجب تفادي أذاه بالعبادة والتزلف هي طور تفكير بشري مشترك يصح ان تكون انبثقت في نفس العرب كما انبثقت في غيرهم لان الباعث فيها عام مشترك ثم تطورت بعض التطور . ولعل من الجائز ان يزداد على هذا ان فكرة إصهار الله سبحانه للجن ونسل الملائكة من هذه المصاهرة قد تدل على ان فكرة العنصر الشرير الخفي والخوف منه والتزلف اليه بالعبادة والاستعاذة عند العرب كانت اسبق في الانبثاق من فكرة العنصر الرحيم الخفي . وقد يكون هذا هو المنسق مع الغريزة او الطبيعة البشرية .

هذا وليس في الآيات ما يمكن الاستدلال به على ان العرب قد اتخذوا من اصنامهم او معبوداتهم رموزاً ومسميات للجن كما يمكن الاستدلال على انهم فعلوا ذلك بالنسبة للملائكة . غير ان هناك بعض الروايات (١) ذكرت اخباراً تتصل بهذا المعنى بعض الشيء من سماع سدنة بعض المعبودات هتافات الجن من اجوافها ، ومن رؤية جنية تخرج من العزى نافثة شيرها مولولة نادبة
 واذا كنا نرى التوقف في مثل هذه الروايات هو الاولي فاننا لا نستبعد من حيث الفكرة ان يكون العرب اعتقدوا انه كان لمعبوداتهم قرناء من الجن ، وانهم

(١) في طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ وتفسير الخازن ج ٤ ص ١٩٥ واسد الغابة ج ٤ ص ١٥٣ وكتاب الاصنام للكلي ص ١٢ و ٢٥ روايات في هذا الصدد .

حينما كانوا يقومون بواجب العبادة لها كانوا يتصورون ان في اجوافها جنات ينظرون اليهم ويسمعون دعائهم .

— ٦ —

واليك آيات الموضوع الثاني :

- ١ — واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مملك سليمان وما كفر سليمان وانك الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر . . . البقرة ١٠٢
- ٢ — قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى أئتنا . . . الانعام ٧١
- ٣ — وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا باللائكة إن كنت من الصادقين . . . الحجر ٦-٧
- ٤ — قل لئن اجتمعت الأئس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . . . الأسماء ٨٨
- ٥ — وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمغزولون . . . الشعراء ٢١٠-٢١٢
- ٦ — هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . . . الشعراء ٢٢١-٢٢٦
- ٧ — وحشر لسليمان جنوده من الجن والأئس والطير فهم يوزعون . . . النمل ١٧
- ٨ — قال عفريت من الجن " أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين . . . النمل ٣٩
- ٩ — ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . . سبأ ١٢-١٣

١٠ — فلما قضينا عليه الموت ماددناهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته
فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين . . .
سبأ ١٤

١١ — فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً — بث أصاب . والشياطين كل
بإثاء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . . .
عاد ٣٦ — ٣٨
ويسلك في سلك هذه المجموعة آيات البقرة ٢٧٥ والأعراف ١٨٤ والمؤمنون
٧٠ والناس ٤ — ٧ التي نقلناها قبل قليل .

— ٧ —

وقد لا تكون هذه الآيات تحكي اقوالا ومعارف وافكاراً عربية صريحة
ومباشرة كما ان فيها مقاطع من قصص سليمان . غير ان القصص القرآنية كانت مما
يعرفه السامعون العرب او بعضهم اجمالاً او تفصيلاً كما دللنا على ذلك في فصل سابق .
وهذا ينسحب على المقاطع التي نقلناها كما هو المتبادر . وفي اسلوب ومضمون
وسياق الآيات الاخرى قرائن تدل على ان ما فيها في صدد الجن وشياطينهم ليس
غريباً عن افكار وتقاليد ومعارف العرب السامعين حينما يعن النظر فيها . لذلك
فلسنا متجوزين إذا ما استئنسا بها في الاستدلال على ما عندهم قبل البعثة عن الجن
من افكار ومعارف .

وهذا ما يمكن الاستدلال عليه .

١ — إن العرب كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن تتسمع إلى السماء ، وتلقن
القول او تنزل به على الشعراء والكهان فيصدر عنهم ما يصدرونه من بليغ الشعر وسجع الكلام
المورى ؛ وهذا مستلهم من آيات الشعراء (٢١٠ و ٢١٢ و ٢٢١ و ٢٢٧) وقد
احتوت آيات اخرى تقريرات ايمانية عن استراق الشياطين للسمع وعن رميهم بالشهب
سنوردها في عداد آيات الموضوع الثالث ؛ وبين هذه التقريرات وذهاب العرب من
الصلة ما هو واضح . ولقد كانوا يعتقدون على ما ذكرته الروايات ان لكل شاعر
شيطاناً من الجن ، يلقيه ما يقوله من الشعر ، وكانوا يسمونه رؤيماً ، بل وبعض

هذه الروايات سميت اسماء شياطين بعض فحول الشعراء ؛ وإذا كان من الاولى التوقف في امر الروايات من حيث التفصيل فان الفكرة فيها صحيحة ومتسقة مع ما تلهمه آيات سورة الشعراء المذكورة . كذلك فانهم كانوا يعتقدون ان بين الجن والكهان صلة وان الجن يسترقون السمع من السماء وينقلونه إلى الكهان فيضمنون سجعهم التوريات الغيبية التي ترد فيه ؛ والفكرة صحيحة ومتسقة مع ما تلهم الآيات المذكورة ايضاً .

٢ - انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر ويتصلون بالسحرة ويساعدونهم في أعمالهم . وهذا مستلهم من آية البقرة (١٠٢) ، وتفيد أن هذه الآية هي في صدد النفي على اليهود اتباعهم الشياطين الذين يعلمون الناس السحر . غير اننا نرجح أن هذا كان بالنسبة لليهود تقريراً لواقع أمرهم من جهة وأن فكرة صلة السحرة وأعمالهم بشياطين الجن مما لم يكن غريباً عن العرب المحتكين باليهود احتكاً وثيقاً من جهة اخرى .

٣ - انهم لم يسكنوا خالي الذهن من ما كان يروى عن تسخير الجن لسايان (ص) وما كانوا يقومون به من أعمال عظيمة ، وما كان لهم من قدرة خارقة . ومن المقبول أن يكون ذلك من جملة ما كانوا يتناقلونه اولاً ، وأن يكون قد استقر في اذهانهم على أنه حقيقة ثانياً . ولقد رويت أشعار جاهلية تضمنت أن جن سليمان (ص) هم الذين بنوا بنايات تدمر العظيمة ، وبقطع النظر عن صحة الشعر ونسبته فالرجح أنه ترديد لما كان في اذهان العرب عن هذه البنائيات وامثالها ، وعن قدرة الجن الخارقة .

٤ - انهم كانوا يذهبون إلى ان الجن هم الذين يوسوسون في صدور الناس ؛ وهذا مستلهم من تعاليم النبي (ص) والمساكين الاستعاذة بالله من هذه الوسوسة في سورة الناس .

٥ - انهم كانوا يذهبون إلى ان التخبط بالصرعة هو من مس الشياطين ؛ لآن التمثيل الوارد في آية البقرة لا بد من ان يكون ناشئاً عن مفهوم واقعي ؛ كما كانوا يذهبون إلى ان الجن يخاطبون الناس في عقولهم وان الجنون هو اثر من هذه

المخالطة (آيات البقرة ٢٧٥ والاعراف ١٨١ والحجر ٦-٧ والمؤمنون ٧٠).

٦ - انهم كانوا يذهبون إلى ان شياطين الجن قد يستهرون الانسان إداما خلوا به في ارض فيذهبون بلبه ، ويذهلون عنه نفسه، فيضرب في الأرض على غير هدى جائراً ذاهب اللب لا يسمع نداءً ولا يهتدي إلى طريق نجاة .

٧ - انه كان للجن في اذهان العرب حين كبير من حيث قوتهم في الظلم وقدرتهم على الخوارق ؛ وهذا مستلهم من الآيات جميعها ، وما ذكرناه في الفقرات السابقة ، ثم من آيات الاسراء ٨٨ والصفات ٦-١١ بنوع خاص ؛ فقد ذكر الجن في معرض التحدي وتقرير عجز الانس عن الاتيان بمثل القرآن ولو ظاهرهم الجن في آية الاسراء . وهذا إنما كان بسبب ذلك الحيز الكبير الذي اثرنا اليه كما هو المتبادر . وقد ذكر الكون في آيات الصفات ثم ذكر الشياطين وقوتهم وتمردهم واشير إلى انهم لم يفلتوا من قدرة الله عذابه ، ثم امر النبي باستفتاء العرب باسلوب تهكمي عما إذا كانوا يرون انفسهم اشد خلقاً حتى يظنوا انهم قادرون على التفلت من عذاب الله ، وهذا يعني ان للجن في اذهان العرب قوة وشدة وقدرة فاستحكمت الحججة القرآنية فيهم كما هو واضح ايضاً .

- ٨ -

وايس في القرآن ما يدل بصراحة على ان العرب كانوا يعرفون ماهية الجن ونشأتهم ؛ غير ان ما جاء في هذه الفقرات يمكن ان يدل على انهم كانوا يعتقدون انهم مخلوقات لطيفة او هوائية مع قدرة خارقة على الاعمال وقوة على التشكل ؛ وبهذا يفسر ذهابهم إلى قديرتهم على مخالطة الناس في عقولهم ورويتهم الناس دون ان يروهم ، ووسوستهم في صدر الناس وصعودهم الى السماوات ، وإتصالهم بالشعراء والكهان والسحرة اتصال تعليم وتلقين من حيث لا يرون ولا يشعرون بما دتتهم . على ان هناك آيات ستوردها في عداد آيات الموضوع الثالث تذكر ان الجن خلقوا من نار من نار اى من لهيب من نار ، وفي هذه النشأة اتساق ما مع تلك الحالات مما يجعلنا لا نستبعد ان يكون العرب كانوا يعتقدون بذلك قبل نزول القرآن ؛

ولعل عقيدتهم بأصهار الله سبحانه واليهم او جمعهم نسباً بينه سبحانه وبين الجن من
القرائن القرآنية التي تدعم هذا الاتساق .

— ٩ —

وزيد ان نبيه على امرهم بصدد الفقرة الخامسة ؛ فنحن إنما استدللنا بآيات
الاعراف والحجر والمؤمنون على ان العرب كانوا يذهبون الى ان الجنون اثر من
مخالطة الجن لعقول الناس من جهة اشتراك اللفظ بين الجن والجنة والجنون والجنة
فحسب ، اذ نحن نمتنع انهم لم يكونوا يقصدون نعت النبي (ص) بالجنون او بان
به جنة انه مريض فاقد الوعي مخبول العقل ؛ فانه لا يعقل ان يظنوا هذا فيه وهم
يسمعونه يتلو عليهم الروائع والحكم الباطنة التي كانت تذهلهم وتبهتهم ، ويتكلم عن
الله بذلك الاسلوب القوي الأخاذ ، والبرهان الناصع الدامغ ، وقد كان قبل نبوته
معروفاً عندهم بالعقل الراجح والحق الكريم وعدم الفضول كما تلهم هذه الآيات :
١ — قل لو شاء الله ما تلوته عايكم ولا ادراكم به فقد ابنت فيكم عمراً من قبله
أفلا تمقلون . . .

٢ — أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الا واهين . أم لم يعرفوا رسولهم
فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم لاحق كارهون . . .
٦٨ — ٧٠ المؤمنون

وانما كان هذا منهم من قبيل ما جرت به العادة في اطلاق كلمة الجنون على من
يقدم على دعوة حديثة ومثيرة او يبدي آراء غريبة او يقف موقفاً خطراً .
على ان من الممكن ان يكونوا قصدوا ايضاً ان يقولوا ان الجن هم المتصلون
بالنبي (ص) لا الملائكة ، وانهم هم الذين يلقنونه ما يقول ، وان ما يبدو منه هو اثر من
تخليط الجن او مخالطتهم له . وسياق آيات الشعراء يلهم شيئاً من هذا ويانهم ما استدللنا
عليه من عقيدة العرب باتصال شياطين الجن بالشعراء والكهان وتلقينهم لهم ايضاً ،
حيث يلهم انهم قالوا عن النبي (ص) ذلك فرد عليهم القرآن في تلك الآيات بثلاثة
ردود ؛ اكد في اولها ان القرآن انما نزل به الروح الامين على قلب النبي (ص) من
رب العالمين :

« وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الامين • على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين »
 ١٩٢ - ١٩٥ الشعراء
 ونفى في ثانياً تنزل الشياطين بالقرآن وتلقينهم آياه للنبي (ص) وذلك في الآيات ٢١٠-٢١٢ وقرر في ثالثها ان الشياطين الذين كان العرب يذهبون الى اتصالهم بالناس وتلقينهم لهم انما يتصلون ويتنزلون على الكاذبين المفتريين والشعراء الذين في كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون ويتبعهم الغاوون ، في حين ان النبي لم يكن كاذباً ولا مفترياً ، ولم يتبعه إلا المعتلاء الراشدون ، ولم تكن دعوته ضلالاً وإفكاً وإنما هي دعوة الى الله ومكارم الاخلاق . (آيات الشعراء ٢٢١ - ٢٢٧) .
 وفي آيات في سورة التكوير تو كيد لكون الذي اتصل بالنبي ملك و ايس شيطاناً كما ترى :

« والليل اذا عسعس • والصبح اذا تنفس • إنه لقول رسول كريم • ذي قوة عند ذي العرش مكين • مطاع ثم أمين • وما صاحبكم بمجنون • ولقد رآه بالأفق المبين • وما هو على الغيب بضنين • وما هو بقول شيطان رجيم • فأين تذهبون • إن هو الا ذكر للعالمين . . . »
 ١٧ - ٢٧

وفي هذا التوكيد تو كيد لما كان يذهب اليه العرب من اتصال الشياطين بالنابيين اتصال تعليم وتلقين ، ومن تفسير امر النبي (ص) حسب ذهابهم هذا كما هو المتبادر .

— ١٠ —

واليك الآن آيات الموضوع الثالث :

- ١ — « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً . . . »
 الانعام ١١٢
- ٢ — يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا . . . »
 الانعام ١٣٠
- ٣ — قال ادخلوا في اثم قد دخلت من قبلكم من الجن والانس في النار كل ما دخلت امة لعنت اختها . . . »
 الاعراف ٣٨
- ٤ — ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم

أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل ...
الأعراف ١٧٩

٥ - وتمت كلمة ربك لألاء الملائكة من الجنة والناس اجمعين ... هود ١١٩

٦ - ولقد جعلنا في السماء بروحاً وزيناها للمناظرين . وحفظناها من كل

شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦-١٨

٧ - ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من

قبل من نار السعوم ...
الحجر ٢٦-٢٧

٨ - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد .

لا يسمعون الى الملاء الاعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب .

إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب . فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا

خالقناهم من طين لازب ...
الصافات ٦-١١

٩ - وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم وحق عليهم القول

في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين ... فصلت ٢٥

١٠ - وإذ صرفنا اليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا

أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد

موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيبوا داعي

الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله

فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه اولىاء اوائك في ضلال مبين ...

الاحقاف ٢٩-٣٢

١١ - خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج

من نار ...
الرحمن ١٤-١٥

١٢ - يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والأرض

فانفذوا لاتنفذون إلا بسطان ...
الرحمن ٣٤

١٣ - فبين خيرات حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام

فبأي آلاء ربكما تكذبان . لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان ...
الرحمن ٧١-٧٤

١٤ - واقدرنا السماء الدنيا بمصاييح وجمانها رجوماً للشياطين وأعدنا لهم عذاب السعير . . .

١٥ - قل اوحى اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً . يهدي الى الرشداً آمنا به وان نؤمنك ربنا احداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً . وأنا ظننا ان لن تقول الاذن والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لاندرى أشرا يريد بمن في الارض أم اراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأوائك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . . .

الجن ١-١٥
ويسلك في سلك هذه المجموعة اكثر آيات الموضوع الثاني لانها آيات اخبارية عن الله في صدد الجن وشياطينهم مما يدخلها في عداد الآيات اليمانية كاهو المتبادر .

- ١١ -

فهذه المجموعة وما يسلك معها وان كانت في الحقيقة احتوت تقريرات يمانية وغيبية من الجن فلا تخلو هي الاخرى من قرائن تلهم ان مافيهما متسق مع مافي اذهان العرب وافسكارهم وعقائدهم عن الجن قبل البعثة؛ سواء في اسلوبها ومضمونها، وسواء في كونها انما تهدف للعظة والذكري وتدعيم الرسالة النبوية، وفي كون هذا الهدف يكون اكثر مكاناً وتحققاً اذا كان ما احتوته الآيات التي تهدف اليه غير غريب عن اذهان وافكار من تعظمهم وتذكرهم ، وأول هؤلاء المخاطبين مباثرة بالآيات هم العرب من اهل بيعة النبي (ص) . واليك بعض البيان :

١ - ان آيات الحجر ١٦-١٨ والصفات ٦-١١ والملك ٥ تحبر ان الشياطين الذين يحاولون استراق السمع يرمون بالرجوم والشهب ، وآيات سورة الجن تحكى

في ما تحكيه قول الجن انهم كانوا يقرعون مقاعد السمع في السماء ثم فوجئوا بوجود الحرس الشديد والشهب ، وآيات الشعراء ٢١٠ - ٢١٣ تذكر ان الشياطين معزولون عن السمع ، فاذا جئنا هذه الحقائق الى بعضها ، ولاحظنا ان ما حكى عن اسنان الجن من مفاجئة الحرس والشهب الشديدين هو حادث كوني وايس شيئاً مغيباً امكنتنا القول ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون ان شياطين الجن يصعدون الى السماء ويسترقون السمع ويلقونه الى بعض طبقات من الناس ، وانه حدث قبيل البعثة النبوية ان شاهدوا كثرة الرجوم السماوية ادهشتهم وجعلتهم يتوقعون حدثاً خطيراً ، ولعل هذا ادهش كهانهم في الدرجة الاولى واجرى على السنتهم تورات في توقع مثل ذلك الحادث الخطير .

وفي آيات الصافات قرينة قوية تؤيد ذلك ، حيث تأمر النبي (ص) بعد ذكر الشياطين ورجمهم بالشهب الثاقبة ان يسأل الكفار عما اذا كانوا هم أشد خلقاً من ما خلق الله من الخلق القوي العظيم الذي يحيط به عذاب الله ؛ وطبيعي أن لا يواجه هذا السؤال إلا لمن يعرف ذلك ، لأن بهذه المعرفة تستحكم الحججة ويقوم الأفعال كما هو المتبادر .

٢ - ان آيات الاعراف ١٢٩ و ١٧٩ و هود ٩١١ ونصت ٢٥ والجن ١ - ١٠ تقرر فيما تقرره ما يفيد ان الجن طوائف متنوعة ومتفاوتة كالأنس ؛ وايس فيما ما يفيد ان هذا التقرير تشريع اسلامي ، ولما كان العرب يعتقدون بوجود الجن فليس من التجوز ولا في الآيات ما يمنع ان يقال انهم كانوا كذلك يعتقدون بانهم طوائف متنوعة ومتفاوتة . واسلوب الآيات يلهم انها بسبيل ذكر شيء مقرر في اذهان السامعين إذا ما امعن فيها .

وهذا القول ينسحب بتمامه بالنسبة لما تقرره هذه الآيات من معنى كون الجن مخلوقات عاقلة ، واهل للتكليف والخطاب ، والثواب والعقاب كالأنس وان فيهم الصالح والطالح والمؤمن والكافر مثل الأنس بل وان منهم من كان يؤمن بالتوراة كما تلهم آيات الاحقاف ومنهم من كان نصرانياً كما تلهم آيات سورة الجن . وتلفت النظر إلى ان القرآن لا يسلك الملائكة في سلك الانس والجن من حيث

التنوع والتفاوت والصلاح والطلاح والايان والكفر، والتكليف والثواب والعقاب
وليس فيه ما يدل على أن شيئاً من هذا كان موجوداً في أذهان العرب .

٣ — ان آية الانعام (١١٢) تقرر وجود اتصال وحي وتلقين بين شياطين
الانس وشياطين الجن ، وتصف هذا الوحي بالزخرف والغرور ؛ وهذا متسق مع
ما استلهمناه سابقاً من آيات الشعراء وغيرها انه من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٤ — ان آيات الاحقاف ٢٩ — ٣٢ وآيات سورة الجن تحتوى قرينة قوية إن
لم نقل دليلاً حاسماً على أن النبي (ص) لم ير الجن الذين استمعوا القرآن في المرتين
لأنها تخبره بالامر إخباراً ، وآيات الجن اقربى دلالة حيث تأمره بان يقول انه أوحى
اليه أن نقرأ من الجن قد استمع القرآن وحيث يلهم هذا ان القرآن يقرر أن الجن
أجسام لطيفة يرون ولا يرون (١) . وهذا متسق مع ما استلهمناه سابقاً من أن
ذلك من جملة ما كان العرب يذهبون اليه .

٥ — ليس في الآيات التي تذكر خلق الجن من النار او لهيبها وخلقتهم قبيل
الانس ما يدل على أن هذه التقريرات جديدة على أسماء العرب ، وبكلمة اخرى ليس
فيها ما يمنع القول أنها مما كان مستقراً في أذهانهم ايضاً . ولقد رأينا في المجموعة
الاولى زعمهم أن بين الله سبحانه وبين الجن نسباً، وهذا الزعم يبعد أن يكون لو لم
يكن معه عقيدة بشيء من التناسب بشكل ما ؛ وخلق الجن من لهيب النار ،
وكونهم أجساماً لطيفة يصحان أن يكونا هذا التناسب في أذهان العرب الذي
كانوا يبررون به لانفسهم ذلك الزعم كما هو المتبادر .

- ١٢ -

وفي القرآن آيات عديدة ذكر فيها ابليس وجنوده وذريته والشياطين
والشرك بهم وتوليهم ووسوستهم بأساليب ومناسبات متنوعة . وقد قررت إحدى
الآيات بصراحة ان ابليس من الجن كما أن الشيطان جاء مرادفاً لابليس في آيات

(١) في سورة الاعراف آية بصدد ابليس وذريته تذكر بصراحة انه يرى
الناس هو وقبيله من حيث لا يرونهم . وابلليس هو من الجن كما يقرر ذلك القرآن
وسياتي بعد قليل بحث واف عنه .

وجاء ذكره على اعتبار انه من الجن في آيات اخرى . وهكذا اتصلت المناسبة بين هذين العاصين والجن وصار من المفيد الخاق بحث فيها بهذا الفصل .

- ١٣ -

ونقول في صدد ابليس :

اولاً ان المفسرين قرروا ان الكلمة مشتقة من ابلس بمعنى يأس من الرحمة ، وفي القرآن بضع آيات ورد فيها هذا الفعل بهذا المعنى كما ترى في الامثلة التالية :

١ - فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ... الانعام ٤٤

٢ - فاذا احاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوا من قبل

ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين ... الروم ٤٩

ونحن نأخذ بما قرره المفسرون لانه وجيه كل الوجاهة . ونقول زيادة على

هذا ان الكلمة علم ذم ، وانها كانت مفهومة بهذا المعنى قبل نزول القرآن ، استناداً إلى التقرير القرآني بان القرآن قد نزل بلسان العرب .

ولقد قال بعضهم بأحتمال كون الكلمة دخيلة . ولا نرى الاخذ بهذا القول ،

بعد ان احتوى القرآن فعل « ابلس » واشتقاقه في معنى اليأس من الرحمة . ولعل

فيما وصف القرآن به ابليس قرينة او دلالة اخرى حيث وصفه بأنه رجيم وان عاينه

اللجنة إلى يوم الدين وانه اخرج مذموماً مدحوراً الخ مما جاء في قصته القرآنية

على ما سوف نذكره قليل . على اننا لو سلمنا جدلاً ان جذر « ابلس » دخيل

فانه قد صار عربياً بالتعريب والاستعمال قبل البعثة ، ولا ينقض هذا حقيقة كون

العرب قد اشتقوا منه لفظ ابليس واستعملوه ، والصيغة صيغة عربية ، وايس من

الضروري فوق هذا كله ان يكون دخيلاً إذا كان الجذر سامياً لان العربية هي

الأخرى سامية .

- ١٤ -

ثانياً ان القرآن يذكر بصراحة أن ابليس من الجن كما ترى في الآية التالية :

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن

- ٣٨٧ -

أمر ربه أفتتخذونه وذريته أو آباء من دوني وهم لكم عدو بأئس للظالمين بدلاً . . .

الكهف . ٥٠

واقدم عزرا بعض المفسرين قولاً إلى ابن عباس (رض) بان الجن في هذه الآية قبيل من الملائكة لازالة ما يتوهم من التناقض بين اختصاص الله الملائكة بالخطاب واستثناء ابليس الذي لم يكن موضوع خطاب لو كان من الجن . كما جاء في الآية نفسها وفي آيات قصة آدم وابليس الاخرى . على ان بعض المفسرين لم يروا هذا مستقيماً وخرجوا عبارة الآيات تخريجاً سليماً ، وهو الاوجه ولا سيما أن تسمية القرآن « الجن » لنوع من الخلق وتسميته « الملائكة » لنوع آخر قطعية وقد جاءت التسميات في آية واحدة هي آية سبأ ٤٠ - ٤١ كما سبق ذكره في مناسبة سابقة ؛ ولقد ذكر القرآن أن الجن خلقوا من نار (آيات الحجر ٢٧ والرحمن ١٥) وذكر ان ابليس قد خلق من النار كما جاء في آيات قصته التي سنورد بعضها بعد (١) وفي هذا دلالة قطعية اخرى .

وهذا وذاك وان كانا تقريرين قرآنيين فان الاسلوب يلهم انها غير غريبين على اسماع السامعين الذين كانوا عرب بيثة النبي (ص) حين نزول القرآن . ولذلك يصح أن يقال انهم كانوا قبل الاسلام يقولون بأن ابليس من الجن وانه مخلوق من النار . ولعل تسمية الموسوسين في صدور الناس « جنّة » في سورة الناس وهذه هي مهمة ابليس وذريته قرينة حاسمة في هذا الصدر .

- ١٥ -

ثالثاً ان في آية الكهف (٥٠) اشارة إلى ذرية ابليس ، وفي آية من سورة الشعراء ذكر لجنود ابليس : « فككبوا فيهاهم والغاؤون . و جنود ابليس اجمعون . الشعراء ٩٤ - ٩٥ » وفي آية من سورة الاعراف ذكر لقبيل الشيطان ورد بعد قصة ابليس وادم مما فيه دلالة قطعية على ان ابليس هو المعنى :

« يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليريهما

(١) في آيات القصة الواردة في سورة الاعراف وصاد .

سوا أنها إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ...
الأعراف ٢٧

واسلوب الآية وسياقها هو الآخر اسلوب تقريرى يلهم ان مضمونها ايس غريباً على السماع السامعين ، ولذلك يضح أن يقال ان أهل بيثة النبي (ص) وعصره كانوا يقولون بان لابليس ذرية أو قبلاً أو جنوداً ، او هذا حيناً وهذا حيناً وهذا حيناً آخر .

- ١٦ -

رابعاً ان الآيات القرآنية صريحة بان الجن الذين يوسوسون في صدور الناس ايسواهم جميع الجن ، حيث يقرر بعضها ان من الجن من هو صالح مهتد كما ان كلمات قيل و جنود و ذرية هي معنائة إلى ابليس فحسب ؛ وما دمننا رجحننا ان التقريرات القرآنية ايست غريبة على السماع فنقول هنا ايضاً ان العرب كانوا يقولون ان ابليس و ذريته او قبيله او جنوده ايسوا كل الجن وانما هم فريق منهم .

خامساً ان تسمية ابليس تتضمن كما قلنا معنى الدم ، وتدل على ان هذا المعنى مما كان يعنيه العرب بالنسبة إلى ابليس ؛ والآيات التي اوردناها تتضمن صراحة كون ابليس عالماً على شخصية الوسوسة والأغراء . وهذا المعنى ورد في آية اخرى من سورة سبأ لم نقلها وهي : « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقاً من المؤمنين ... ٢٠ » واسلوب الآية هو الاخر تقريرى يلهم ان ما تضمنته ايس غريباً ، وهذا المعنى قد تكرر بصراحة في قصة ابليس وآدم المتكررة ايضاً . ولهذا فانه يصح ان يقرر ان كون ابليس وقبيله هم الذين يضطلعون باغراء الناس والوسوسة في صدورهم في صدد تزوين الآثام والشهوات مما كان يقول به العرب في بيثة النبي (ص) وعصره قبل البمثة ايضاً .

هذا ؛ ولما كانت شخصية ابليس او الشيطان وكونها عالماً على الأغراء والوسوسة مما ورد في الكتب السهوية السابقة للقرآن على اختلاف في التسمية والاسلوب ، وكان مما تداوله الكتابيون فليس من المستبعد ان يكون هذا مما اقتبسسه العرب من هؤلاء ، وان كنا نرجح انه تطور في اذهانهم فاختلف بعض

الاختلاف ؛ واذا صح هذا الاقتباس عن الكتائبين فانه انما كان للشخصية ومداهاء، فكان من العرب ان وضعوا لها التسمية (ابليس) علم ذم مستمداً من حادث طرده ورجحه الذي لا بد من انهم قد عرفوه كذلك من الكتائبين .

- ١٧ -

سادساً ان القرآن قد اورد قصة آدم وابليس سبع مرات ؛ ستاً منها في سور مكية وهي الأعراف والحجر والأسراء (٦١ - ٦٥) والكهف (٥٠) وظاهر (١١٦ - ١٢٣) وصاد (٧١ - ٨٥) وواحدة في سورة البقرة المدنية . والقصة كما يفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتثليل والتنبية كما انها تنوعت في اسلوبها ومحتوياتها بعض الشيء ، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى . وهذه ثلاثة أمثلة مما ورد في المرات السبع :

١ - - واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بمضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين ...

البقرة ٣٦

٢ - ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرجناك من الصاغرين . قال أنظرني الى يوم يبعثون . قل انك من المنظرين . قال فما اغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لها الشيطان ليبيدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكأمن الناحين

فدلاهما بفروور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربها ألم انهما عن تاكلما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان اكما عدو مبين . قال ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو وانكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بني ادم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليريها سواآتها إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . . .

الأعراف ١١ - ٢٧

٣ - ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجنان خاقنا من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك الملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون . فلما سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم اكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فإخرج منها فأنتك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فانظرني الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين . ألا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لم وعدهم اجمعين . . .

الحجر ٢٦ - ٢٣

- ١٨ -

وشخصية إبليس الاغوائية واضحة في هذه الآيات كما ان الأسلوب هو اسلوب تقريرى يلهم ان القصة ليست محاولة من السامعين شأن القصص القرآنية . لان ما اريد بها هو التذكير والتنبيه والموعظة ، ولعل هذا مما يساعد على فهم الحكمة التي استهدفت في تكرار القصة . فالعرب يعرفون أن الملائكة خلق الله الصالحون المتصلون به المرجون للخير ، وان إبليس وذريته هم شرار ضالون مضلون ، وان إبليس

قد تمرد على الله منذ الاصل ؛ وبعبارة اخرى ان هذه المداعي لم تكن غريبة عليهم
فاقتضت ايراد القصة مكررة للنفوذ الى قلوبهم ، فمن استجاب الى امر الله ودعوته
كان من اولياء الملائكة ، ومن تمرد وعصى كان من اولياء ابليس وذريته .

وكما ان شخصية ابليس الاغوائية مما كان متداولاً بين الكتابيين ووارد في
ما كان بين أيديهم من كتب فأن قصة خروج آدم بالاغواء مما ورد في التوراة
ايضاً وان ذكرت الحية مكان ابليس ؛ والمتداول بين الكتابيين ان الحية رمز
الشیطان او ابليس . ولعل هذا مما كان متداولاً عندهم قبل البعثة ، ولا نستبعد
والحالة هذه ان تكون القصة مما عرفه العرب عن طريقهم مثل ما عرفوا شخصية
ابليس الاغوائية ثم تطورت عندهم بعض الشيء .

- ١٩ -

ونقول في صدد الشيطان :

اولاً ان المفسرين قالوا ان الكلمة مشتقة اما من شطن بمعنى بعد واما من
شاط بمعنى بطل - من الباطل - ، وان معناها الموغل في الباطل او الموغل في
في البعد عن الحق ، وانها تطلق على العاتي الباغي والخبيث الداهية .

وكما قال بعض الباحثين ان كلمة ابليس دخيلة قالوا هذا عن كلمة الشيطان . ولم
يرد في القرآن جذراً شاط وشطن حتى نسوغ لآئفسنا الاصرار على أصلية
الاشتقاق العربي للكلمة كما فعلنا في كلمة ابليس . على أنه سواء أكانت أصلية ام
دخيلة فإن مما لا محل للريب فيه انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزول
القرآن ، وانها بذلك يجب ان تسلك في عداد مفردات اللغة العربية ؛ ومن جهة
أخرى فانها اذا كانت دخيلة من احدى اللغات السامية فليس من الضروري ان لا
يكون جذرها واحداً في هذه اللغة وفي اللغة العربية كما هو المتبادر .

وثانياً ان الكلمة قد وردت في القرآن في مناسبات ومعان متنوعة :

فقد اطلقت على اليهود او زعماء اليهود الذين كانوا يوسوسون للمنافقين كما جاء
في آية البقرة ١٤ التي نقلناها سابقاً . واطلقت على مناوئي الانبياء (ص) والدعوة
الآتية من الجن والانس كما جاء في آية الانعام ١١٢ التي نقلناها سابقاً كذلك .

وأطلقت على الذين يأنون بالمعظائم من الجن من غير طبقة ابليس كما يستلهم من آيات البقرة ١٠٢ وصاد ٣٥-٣٧ التي نقانها سابقاً أيضاً. وذكر تسخير الجن في خدمة سليمان (ص) في آيات اخرى والإشارة الى انهم كانوا يعملون ما ذكرته آيات صاد عن عمل الشياطين له دلائل حاسمان على ان المقصودين بالذكر هم من الجن من غير طبقة ابليس . واطلقت على الجن الذين يسترقون السمع من السماء ويتنزلون بالكلام على بعض البشر كما جاء في آيات الحجر ١٦-١٨ والصفات ٦-١١ والمات ٥ والشعراء ٢١٠-٢١٢ و ٢٢١-٢٢٧ والتكوير ١٧-٢٧ التي نقانها سابقاً كذلك . وآيات سورة الجن التي نقانها سابقاً أيضاً فرينة حاسمة على ان المقصود منهم هم جن من غير طبقة ابليس وذريته أيضاً . وقد اطلقت للدلالة على ابليس وجنوده وذريته او بكلمة اخرى مرادفة لهم حيث جاءت مفردة وجمعاً وحيث جاءت في جميع اشارات الوسوسة والاعغراء وتزيين الفواحش والمنكرات، واثارة العداوة والبغضاء ومناوأة النبي (ص)، وفي الجملة في كل ما يمثل مهمة ابليس الاغوائية، كما انها بودلت بأبليس في سياق واحد كما جاء في آيات الاعراف ١١ - ٢٧ التي حكى قصة آدم وابليس وكما ترى في الاءثلة الآتية ؛ مع التنبيه على ان ذكر الكلمة في هذه الدلالة هو الغالب في ماوردت فيه من آيات :

- ١ - ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون البقرة ١٦٨-١٦٩
- ٢ - الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء البقرة ٢٦٨
- ٣ - إنما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين آل عمران ١٧٥
- ٤ - إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون المائدة ٩١
- ٥ - وان الشياطين ليوحون الى اولياءهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون الانعام ١٢١
- ٦ - آيات الاعراف ١١ - ٢٧

- ٧- ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . الاسراء ٢٧
- ٨ - فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . النحل ٩٨-١٠٠
- ٩ - يَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ الرَّحْمَنَ عَصِيْبًا ... مريم ٤٤
- ١٠ - إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكْفُرُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١) ... فاطر ٦
- ١١ - اسْتَجِزْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَإِنِّي أَنبَأُهُمْ ذَكَرَ اللهُ أَوَّلًا أَنَّكَ حِزْبُ الشَّيْطَانَ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ... المجادلة ١٩

- ٢٠ -

واستلهاماً من كثرة ورود الكلمة واسلوب الآيات التقريري والتنديدي الذي يلهم ان السامعين لا يجهلون معناها ومداهها ، واستناداً الى الحقيقة في كون ما جاء في القرآن من كلمات هي مما كان العرب يفهمونه ويستعملونه تقول :

١ - ان العرب كانوا يعنون بالكلمة معنى ذم وهجاء ، ونويه بالقوى العتي الباغي .

٢ - انها كان لها عندهم مفهوم عامي على الوسوسة والاغراء كما كان لا بليس ، إلا انها استعملت في نطاق اوسع مما ظلت فيه كلمة ابليس ؛ حيث اطلقت على البغاة العتاة الاقوياء من الانس والجن وعلى القادرين على العظام من الجن من غير طبقة الموسوسين ؛ كما استعملت مرادفة لكلمة ابليس وشخصيته ايضاً . ولعل مما يصح ان يقال ان اطلاقها على ابليس او اقامتها مقامه هي بسبيل تشديد ذم ابليس وبيان شدة بغيه وعتوه ، وان الكلمة كانت تستعمل قبل نزول القرآن كصفة ذم لكل باغات متمرد وانها صارت مرادفة لا بليس او صفة له من هذه اللاحية .

- ٢١ -

بقيت نقطة جديدة بالبحث في صدد ابليس والشيطان ، بل هي رئيسية بالنسبة

(١) الشيطان في هذه الآيات موصوف بما حكي ابليس عن نفسه وبما قرره الله عنه في آيات قصته . اقرأ آيات الحجر ٣٩ - ٤٢ الاسرار ٦١ - ٦٥ مثلاً .

للعقائد والاديان قبل البعثة ، ونعني مدى ما جاء من تعابير الولاء والعبادة والدعاء
لأبليس والشيطان والاشراك بهما مما تكرر وروده في آيات كثيرة مما نقلناه وما لم
ننقله .

فهل كان العرب قبل البعثة يعتقدون فعلاً بصفة إلهية ما في ابليس والشيطان
او يخذونها معبودات واولياء على نمط ما فعلوا بالنسبة إلى الملائكة والجن الآخرين؟
إن ظاهر نصوص الآيات يسوغ الاجابة بالايجاب على السؤال من دون ريب .
غير أننا نلاحظ أن تعبيرى ابليس والشيطان يتضمنان معنى الهجاء والذم ، وأن هذا
المعنى كان مفهوماً عند العرب . وهذا يجعلنا نحار في التوفيق بين ظاهر النص وبين
هذا المفهوم الذي يسوغ استبعاد كون العرب قد عبدوها أو اشركوها مع الله
كمقيدة دينية . فإذا كان يجب اخذ الآيات على ظاهر نصوصها فلا سبيل الى التوفيق
إلا بالقول انهم عبدوها وتولوها - بلفظيهما - تزامناً اليها وتقادياً من اغوائها واطلالها ،
فالإنسان منها يسكن عليه من عقيدة فانه لا يعترف بانه على ضلال ولو كان الأمر
كذلك كما لا يخفى .

على أن مما يتبادر ايضاً ويستلهم من روح الآيات بل ونصوصها أن تعابير
العبادة والتولي قد جاءت مجازاً وفي معرض التنديد بالاشركين والكفار ، وتوبيخهم
من جهة ، وتصوير ما كان يقوم به ابليس والشيطان من أدوار الوسوسة والاغراء
لهم ، وما كان هذا الدور يلقاه من نجاح فيهم واستجابة منهم من جهة أخرى .



الفصل الخامس

في عقيدة العرب بالله وتبليغهم به من نبي فيهم

خطورة هذه العقيدة - جملة من الآيات التي تحكي اعترافهم بالله - ما في الآيات من دلالات وصور - الخطوة التطورية في هذه العقيدة - قدم وضوح فكرة « الله » نوعاً ما عن البعثة في اذهان العرب - قدم لفظ الجلالة واشتقاقه - أثر الكتابيين في هذه الخطوة - سعة نطاق انتشار العقيدة بالله - تمني العرب بعثة نبي فيهم وما فيه من حركة ذهنية جديدة - خطورة الحركة وبواعثها - تناقض موقف العرب من الدعوة النبوية مع هذه الحركة وعوامله: الحسد والاستكبار - الخوف على المركز والمنافع - عصبية التقاليد - صورة النبي في أذهانهم واصطدامها مع حقيقة السيد الرسول (ص) - أثر عقيدة البعث في الموقف - هدف تدبير العرب قبل البعثة - استدراك .

- ١ -

من الواضح أن مدى عقيدة الشرك هو اشراك غير الله مع الله في العبادة والاتجاه والرجاء والخوف ، وهذا كان شأن عقيدة الشرك العربية قبل الاسلام التي كانت العقيدة العامة كما اشرنا الى ذلك من قبل ؛ حيث كان مشركوا العرب يعترفون بوجود الله ، ويمتقدون بألوهيته العليا وقدرته العظيمي ، سواء في اشراكهم شركاء رئيسيين واعتبارهم إياهم أنداداً له ، او شركاء وسطاء وشفعاء واعتبارهم وسائل قربي اليه .

ولاعتراف العرب بالله الى جانب شركائهم ماديين وغير ماديين ، ورئيسيين وشفعاء خطورة لا تخفى في تصوير تطور الفكرة الدينية عندهم . وهذه الخطورة تزداد وضوحاً انا لو حظ ان في القرآن آيات كثيرة جداً في صدد ملاحظة العرب لله واعترافهم بوجوده وألوهيته العليا وقدرته العظيمي في صور ومناسبات عديدة ومتنوعة ،

نورد فيما يلي جملة من هذه الآيات :

- ١ — وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ...
الأنعام ٣٧
- ٢ — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ...
الأنعام ٨
- ٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ...
الأنعام ١٠٩
- ٤ — وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ...
الأنعام ١٢٤
- ٥ — وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشر كائنا فما كان لشر كائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شر كائهم ساء ما يحكمون ...
الأنعام ١٣٦
- ٦ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ...
الأنعام ١٤٨
- ٧ — وإذا فعلوا فاحشاً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ...
الاعراف ٢٨
- ٨ — ويمبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ...
يونس ١٨
- ٩ — هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرّين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين (١) إن أنجيقتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ...
يونس ٢٤
- ١٠ — قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فيقولون الله فقل أفلا تتقون ...
يونس ٣١
- ١١ — وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فآليه تجأرون . ثم إذا

(١) أي لم يذكرها معهم شركاءهم

كشفت الضر عنكم إذا فريق منكم برهمم يشر كون . . . النحل ٥٣-٥٤

١٢ - ويجملون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . . . النحل ٥٧

١٣ - وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه (١) ولما نجاكم إلى

البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . . . الاسراء ٦٧

١٤ - قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا

تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا

تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون .

سيقولون لله قل فأتني تسجرون . بل أتيناكم بالحق وإنهم لكانيون . ما اتخذ الله من

ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خالق ولعلا بعضهم على بعض

سبحان الله عما يصفون . . . المؤمنون ٨٤-٩١

١٥ - وأئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر

ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله

بكل شيء عليم . وأئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها

ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون . . . العنكبوت ٦١-٦٣

١٦ - فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا

هم يشركون . . . العنكبوت ٦٥

١٧ - وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة

إذا فريق منهم برهمم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم

أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . . . الروم ٣٣-٣٥

١٨ - وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى

الأنعام . . . فاطر ٤٢

٢٠ - وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد

الله المخلصين . . . الصافات ١٦٧-١٦٩

٢١ - ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا

(٢) أي نسوا ما كانوا يدعون معه من شركاء .

ليقربونا إلى الله زانقاً إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي القوم الظالمين
هو كاذب كفار . . .
الزمر ٣

٢٢ - وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل له أنداداً ليضل عن سبيله . . .
الزمر ٨

٢٣ - وائمن سألتهم من خلق السماوات والأرض أيقون الله قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادني بضر هل هن كاشفات ضرره أو أرادني الله برحمة هل هن ممسكات رحمته . . .
الزمر ٣٨

٢٤ - وائمن سألتهم من خلق السماوات والأرض أيقون خلقهن العزيز العليم . . .
الزخرف ٩

٢٦ - وائمن سألتهم من خلقهم ليقون الله فأنى يؤفكون . . .
الزخرف ٨٧

٢٥ - وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتهم شهادةتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . . .
الزخرف ١٩ - ٢٠

وهذه الآيات على ما يبدو من كثرتها التي تعمدناها لتجاية الموضوع في الذهن ليست كل الآيات التي تحكي اعتراف العرب بالله . ففي الآيات التي استعرضناها في فصل المشاقة من الباب الثالث جملة أخرى تحكي اعترافهم بالله وكون مشاققتهم للنبي (ص) إنما كانت من قبيل انكار نبوته ورسالاته واتصالها بالله؛ كذلك في الآيات التي استعرضناها في فصل الملائكة صراحة باعترافهم بالله وألوهيته العظمى وكون الملائكة بناته سبحانه والمختصين بخدمته وتنفيذ أوامره في كونه ؛ هذا عدا ما في القرآن من آيات تمت إلى هذا لم نناقها اكتفاء بما أوردناه هنا وفي الفصول السابقة .

— ٣ —

والذي يمكن الاستدلال عليه من هذه الآيات وما في بابها هو :

أولاً إن أهل بيعة النبي (ص) أو فريقاً منهم كانوا يترفون بوجود الله كآله أعظم ، خالق السماوات والأرض وما فيها ، وأنه مدبر الكون وربّه ، بما في ذلك الملائكة والجان ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وأنه هو الذي يسيطر على قوى

الطبيعية ويصرفها من شمس و قمر و كواكب و بحار و رياح و يسخرها لصالح الخلق ،
وانه هو الذي يحيي ويميت ويمنع ويرزق الناس .

ثانياً انهم او ان فريقاً منهم كانوا يعتبرون الله الملجأ الاعلى في عظام الاءور
وجسيم الاءخطار والاءهوال ، وانه لا يكشف الضر ولا يدفع الشر ولا يعطي الخير
غيره . وكانوا حينما يواجهون الاءخطار والاءهوال ، ويصابون بالبلاء والكوارث
يجأرون اليه ، ويدعون له وحده . على اعتبار انه هو القادر على انقاذهم ، ودفع الشر
والكوارث والاءخطار عنهم لاشركاؤهم ولا آلهتهم ولا شفعاؤهم .

ثالثاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان الله هو الذي يرسل الانبياء
والنذر ويؤيدهم بآياته وينزل عليهم ملائكته ، ويوحى اليهم بكتبه التي تحتوي تعاليمه
وأوامره وحلاله وحرامه .

رابعاً انهم او إن فريقاً منهم كانوا يعتقدون ان ما هم عليه من عقائد وتقاليد
وطقوس وتحليل وتحریم إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه ، وانه
راض عنهم فيها وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء ويقولون انه لو لم يكن راضياً
عن ذلك لما كانوا فعلوه .

ويتبادر لنا ان ماجاء في الفقرة الرابعة كان كالحلقة المتوسطة بين تفكير ديني
قديم وتفكير ديني جديد ، وانه يمكن أن يكون المفسر لاعترافيهم بالله مع اتخاذهم
شركاء وشفعاء واشراكهم معه بالعبادة والدعاء والاتجاه . فالمفروض أن العرب في
اطوارهم الاولى كانوا وثنيين يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، وما انبثق في اذهانهم
من عقيدة وجود الاءرواح الخفية الخيرة والشريرة ، وانهم لم يكونوا قد تصوروا
وجود الاءعظم بالصفات الواجبة له او ما يقرب منها ؛ ثم اخذوا يسمعون
ذكره وصفاته ، واخذت معانيه تدخل في اذهانهم شيئاً فشيئاً حتى دخلوا في طورهم
الاءخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن ، وهو التسليم بوجود الاءعظم له
ملك السموات والارض ، ويده تدبير الاءكوان ، وتسخير القوى الطبيعية ، وهو
الملجأ الاعلى للناس في كل ما يمكن أن يصيبهم من بلاء والقادر وحده على دفعه عنهم ،
والمصدر الاءكبر لكل ما يرجونه من خير ؛ غير انهم لم يكونوا بعد قد وصلوا الي

اساغة فهم إله واحد غير مادي وغير مرئي فهجأ تصويرياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء اساغة تامة ، فكانوا مع اعترافهم بالله على النحو الذي جاء في الفقرات الثلاث الأولى لم يروا لهم غنى عن معبوداتهم الأولى التي كانوا بها وبرموزها أكثر اتصالاً ومشاهدة في العبادة والاتجاه وطلب العون، والاستشفاع والاستعداد على قوى الشر والأذى والمصائب والأخطار ؛ وكانوا يعتقدون أنهم على حق في ذلك لأنهم كانوا يذهبون الى ان الله المتصف بصفات القدرة والعظمة والجبروت والخلق والبسط والقبض والأعطاء والمنع وتصريف مخلوقاته فيما يشاء وكيفما يشاء ما كان يقيهم في الاستمرار في العبادة والاتجاه وطلب العون والاستشفاع بمعبوداتهم المادية والروحية او الطبيعية لو لم يكن راضياً عن ذلك مرددين في هذا الذهاب في الحقيقة ونفس الأمر صدى ما كان راسخاً في نفوسهم من عتائد موروثه ، وعدم استساغة استغنائهم عن معبودات او رموز مادية مشاهدة . على ان مما يحسن التنبه اليه أن العرب في هذا لم يكونوا بدعاً ولم تكن الصورة خاصة بهم بل لم تكن خاصة ببيئتهم وعصرهم ؛ فأصل الصورة ومداها غير منتظمي المتول للعين في مختلف الأدوار التي جاءت بعد ذلك وفي مختلف البيئات والأديان ايضاً .

— ٤ —

وهكذا نرى من خلال هذه الصورة خطوة تطورية تدل على أنهم قد ارتقوا في تفكيرهم الديني من عبادة المعبودات المادية والروحية والطبيعية وحدها الى فهم معنى الله وتصوره والاعتراف به ؛ غير ان هذه الخطوة لم تكن تامة لانهم لم يكونوا قد وصلوا بعد الى اساغة الاكتفاء بالله وحده ايماناً تصويرياً وغيبياً وتجريدياً كما اشرنا انفاً وكانوا كما عبرت عنهم آية يوسف : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ... »

وفي هذا التقرير المستلهم من نصوص الآيات نقض آخر لقول من قال ان العرب ظلوا في تفكيرهم الديني في نطاق المادية والحجرية النايظة الجافية كما هو واضح .

أما الزمن الذي وضحت فيه فكرة الله في أذهانهم فليس من سبيل إلى تحديد مبدأه بالاستناد إلى القرآن . ولكننا نرجح أنه قبل البعثة بأمد غير قصير حيث أخذت اتصالهم بالعالم ورسلاتهم إليه تكثرت ، وحيث أخذت معارفهم ومقتبساتهم تنمو وتتسع . وفي بعض الآيات دلالات على بعد عهد ذلك نوعاً ما عن حقبة البعثة ؛ حيث تحكى قولهم أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون ، وتواصيتهم بعدم اتباع النبي (ص) الذي يحاول أن يصدحهم عما كان عليه آباؤهم كما ترى في هذه الأمثلة :

١ — سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ...

الأنعام ١٤٨

٢ — وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا

النحل ٣٥

آباؤنا ...

٣ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما

سبأ ٤٣

كان يعبد آباؤكم ...

٤ — وانطلق الملائمة منهم أن امشوا وادبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد .

ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا إختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا ...

سأد ٦ - ٨

٥ — بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ...

الزخرف ٢٢

— ٦ —

ويتبع عدم حداثة وضوح فكرة الله في أذهان العرب ، ورجوع ذلك إلى مدة

غير قصيرة من قبل البعثة عدم حداثة لفظ الجلالة في اللسان العربي بطبيعة الحال .

ولقد قال المفسرون أن اللفظ مضعف أو معدل من الآلة ، وأن هذه الكلمة

مشتقة من آله بمعنى عبد أو وله بمعنى حار أو لاه بمعنى سكن إلى الشيء كما قالوا

إن الآلة مؤنثه . ومع أن الاشتقاقات الأولى لا تخلو من وجهة فإن القول الثاني أكثر

وجامعة في ما هو المتبادر ؛ حيث نرى من الصائغ كثيراً ان يكون العرب قد عدلوا من « الالة » لفظ الجلالة وجملوه مذكراً لها حينما انبثق في اذهانهم معنى وجود الله كآله أعظم . وهذا بقطع النظر عن احتمال صلة تسمية الالة بالمعبود البابلي القديم « الاتو » على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، وما يمكن ان تدل عليه هذه التسمية او الصلة من كون الالة هي لفظ عربي قديم الدلالة على المعبود. ولقد قدم ذكر الالة في القرآن على العزى ومناة كما ان الروايات تقدمها في الذكر وخاصة في الحلف ؛ واعلم في هذا ما يمكن ان يلهم ان الالة كانت صاحبة الاعتبار الاول او المعبودة الكبرى عند العرب ان لم يكن في عهد النبي (ص) ففي قبله بمدة ما . واذا صح هذا ففيه توجيه لرجحان الصلة الاشتقاقية او التعديلية بين « الالة » ولفظ الجلالة .

على أننا نريد أن نستدرك شيئاً في صدد وضوح فكرة الله في أذهان العرب الذين كانوا يعترفون به . ففي سورة الاسراء وردت هذه الآية :

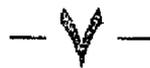
« او تأتي بالله والملائكة قبيلاً ... »

٤٢

وفي سورة الفرقان وردت هذه الآية :

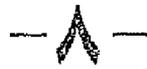
« وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ٢١ »

فهذه الآيات وإن كانت تحكى عنهم تعجيزاً وتحدياً فانها لتلهم أنهم كانوا يتخيلون الله شيئاً يمكن ان يروه ماثلاً أمامهم . ومع ذلك فاننا ننبه على ان العرب لم يكونوا في هذا بدعاً ، ولم تكن الفكرة خاصة بهم فقد كانت شاملة غيرهم ايضاً ؛ وفي علم الكلام الاسلامي بحوث متصلة بإمكانية رؤية الله ماثلاً للعيان الانساني في الدنيا او الآخرة كما لا يخفى ، وهذا مما يوجد عند أهل الأديان السماوية ايضاً .



والذي يتبادر لنا ان للكتابين اثرأ كبيراً او الاثر الاكبر في تلك الخطوة التطورية التي نبهنا عليها في انبثاق فكرة الله في اذهان العرب بوضوح ما ، فقد كانت النصرانية سائدة في اكثر الاقطار التي كانت العرب يصلون اليها في اسفارهم ورحلاتهم ، وكان يدين بها كثير من العرب في اطراف الجزيرة كما كان يدين بها

عرب في قلب الجزيرة ، وقد كانت الجوالي اليهودية في الحجاز قوية بارزة لها اتصالات بالعرب ؛ وطبيعي جداً ان يكون بين اهل الكتاب والعرب تفاعل أدى بالعرب الى هذا الطور الجديد في التفكير الديني ، فاخذوا عنهم فكرة الآلهة الاعظم او وضعت هذه الفكرة التي قد تكون طبيعية الانبثاق في الذهن البشري مع شيء من الغموض ، واكتنبا لم تستطع ان تتغلب على ما كان راسخاً فيهم من عقائد موروثه فساموا من جهة بالله واعترفوا به ، وامتفظوا من جهة بعبوداتهم وعقائدهم وتقاليدهم ثم استمر التطور حسب تفاوت المدارك والبيئات الى ان اخذ يظهر فيهم من يسبح فهم الله والتوجه اليه وعبادته وحده فيها غيبياً مجرداً ، ويرى ماني عبادة المعبودات المادية والروحية ورموزها مع الله من سخف فيأنف من الاستمرار عليهما، وينبذها وهم طبقة الخنفاء والصائبون والباحثون عن ملة ابراهيم الحنيفية الذي سيأتي الكلام عنهم بعد . وفي الآيات القرآنية الكثيرة التي وردت عن اهل الكتاب او في صدد محاجة العرب فيهم شواهد على ما نقوله . وقد نقلنا اكثرها في فصول الباب الاول ومنها ما سوف نورده بعد ؛ كما اننا سنعود الى هذا الموضوع في فصل اليهودية والنصرانية واثرها في العقائد العربية ايضاً .



هذا ونحن ان نلفت النظر الى كثرة الآيات التي تقرر او تدل او تلهم اعتراف العرب بالله كآله اعظم واسلوبها ومضمونها لنقول ان فكرة وجود الله والاعتقاد به على هذا الوجه كانت واسعة النطاق في عهد النبي (ص) بحيث يسوغ ان يقال انها كانت تشتمل اهل المدن وسكان البادية بوجه الأجمال ، وعقيدة الشرك التي هي عقيدة العرب عامة دليل على ذلك . فالشرك غير الله مع الله سواء كان اشراكاً رئيسياً او ثانوياً ، يطوي فيه ذلك الاعتراف كما هو المتبادر . وهذا كان ينتظم اهل عصر النبي (ص) من العرب عامة باستثناء الاقليات الكتابية منهم ، سواء منهم الحضر والبدو . والآيات القرآنية في الأعم الأغلب حتى التي فيها حملات على المعبودات المادية والطبيعية والروحية انما كانت في صدد إشراك العرب اياها مع الله في العبادة والاتجاه والتنديد بسخف ذلك وتناقضه مع فكرة الاعتقاد بالله على ما يتضح عندما مان النظر فيهما .

ومن الممكن ان يشار كظهور من مظاهر الاتجاه العربي العام في هذا الى اشتراك العرب حضرمهم وبدرهم على اختلاف منازلهم في الجزيرة واطرافها في مناسك الحج وشهود موسمه بقطع النظر عن اختلاف الافكار والطبقات والاصنام والآلهة على ما ذكرناه في فصل الحج ، وقدومهم في موسم معين لاعداء هذه المناسك والطواف حول بيت الله العتيق في ظل هدنة مقدسة عامة .

ومن المفيد ان نشير الى ان العرب قد اعتادوا فيما اعتادوه من مظاهر اعترافهم بالله استعمال كلمة « الله » في أيمانهم ، وقد مر في الآيات التي نقلناها شيء من ذلك كما انهم اعتادوا ان يستعملوا كلمة « اللهم » في دعائهم كما جاء في آية سورة الأنفال ٣٢: « واذقوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء... » وقد ذكرت الروايات انهم كانوا يستعملونها في عقودهم وكتاباتهم ، وان تسمية عبد الله كانت كثيرة الشيوخ ؛ ففي كل هـ — ذاً قرآن مؤيدة لاسمة شمول الفكرة كما هو واضح .

— ٩ —

وفي بعض الآيات التي استعرضناها قبل قليل ما يمكن ان يرى فيه حركة ذهنية جديدة في الطور الديني الجديد الذي دخل فيه العرب ؛ حيث حكمت آية سورة فاطر (٤٢) ما كان يصدر من العرب قبل البعثة من أيمان مغلظة على انهم إذا جاءهم نذير من قبل الله ليهكونن اهدى من احدى الائم ؛ وحيث حكمت آيات سورة الصافات (١٦٥ - ١٦٩) قولهم قبل البعثة ايضاً انهم لو اتاهم كتاب كما جاء غيرهم من الائم السابقة لاتبعوه وكانوا عباداً مخلصين لله .

وليس من محل للشك في ان القائلين من العرب قد قصدوا باحدى الائم اليهود والنصارى لانهم هم الذين كان عندهم كتب من الله ، وهم الذين كانوا يعتبرون انفسهم ويعتبرهم غيرهم انهم مؤمنون بما جاء به رسل الله وانذروه عن الله . وقد اشير إلى هذا المعنى بشيء من الصراحة في آيات من سورة الأنعام :

« وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . ان تقولوا إنما انزل

الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١) . أو تقولوا لو أننا
انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن
اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب
بما كانوا يصدفون ...

ولهذه الحركة الجديدة دلالة خطيرة ولا ريب على استمرار التطور في تفكير العرب
الديني واتجاههم نحو الله ، وعلى ما كان عندهم من معلومات والمأم بأحوال النصارى
واليهود واثر النصرانية واليهودية في هذا التطور .

— ١٠ —

ويمكن تفسيرها أولاً بأن فريقاً من الذين كانوا يعترفون بوجود الله ، ويعتقدون
انه الملجأ الاعلى والآله الاعظم ، اخذوا يرون انفسهم في عمالية عن الطريق المستقيم البين
من الوجهة الدينية ، وانهم يخطون خبط عشواء في اتخاذ الشركاء والاولياء والشفعاء
وعبادتهم واثرا كهم مع الله في الدعاء والخضوع والاتجاه ، فصاروا يتمنون ان
يبعث فيهم نبي بالبيان الواضح والصراط القويم حتى يتبعوه ويهتدوا به . وثانياً بأن
العرب كانوا يسمعون اخبار الكتب السماوية التي بين يدي اليهود والنصارى وأخبار
الانبياء الذين أنزل الله كتبه عليهم وما في هذه الكتب من شرائع وبينات جعلت
اتباعها يرون انفسهم أنهم على هدى من الله وعلم بصفاته وواجباتهم نحوه وبما أحله
وبما حرمه . الخ الخ ، وكانوا يسمعون من اليهود من الزهو والتبجح والاستعلاء
بسبب كون الانبياء والرسل منهم ، وكونهم الشعب الذي اختاره الله لرسالاته
وكتبه ، فانار هذا غير ذلك الفريق العربي وانانيته ، وجعله وقد آمن بوجود الله
الذي يؤمن به اليهود صراحة والنصارى مؤولاً والذي هو الذي يرسل الانبياء إلى
الاهم بالكتب والبينات ، يتعني ويتطلع إلى نبي يبعثه الله في العرب ليهديهم في أمور
دينهم ودنياهم ، ويكون لهم من الاعتزاز والفخر في نوه عربية ، وكتاب سماوي
(١) أي انزلنا هذا الكتاب المبارك لتتبعوه واثلاً تقولوا أن كتب الله إنما جاءت
لطايفتين من قبلنا وبلسانهما ولم نطلع عليهما وانه لو أنزل علينا كتاب مثلهم باساننا
لكنا اهدى منهم .

عربي ما كان لليهود والنصارى الذين يزعمون عليهم فلا يغالون دونهم مقاماً ونظراً
وهداية . وقد احتوت آيات كثيرة حكاية ما كان يبدو من اليهود والنصارى وخاصة
اليهود من زهو واستعلاء وتبجح ودعوى عريضة، نقلنا أكثرها في فصول سابقة (١).
ونرجح أن مثل ذلك بل وأكثر منه كان يصدر عنهم قبل البعثة وخاصة بسبيل
تقرير ميزتهم على الناس ، ومركزهم المسمى والادبي في الحجاز ، فيشير في نفوس
العرب ما يثير من غضاظة وغيرة ورغبة . وثالثاً بأن هذا الفريق العربي الذي كان
يتمنى بعثة نبي وينذر باتباعه والاهتداء بهديه كان يرى خلافاً ونزاعاً وتنافراً أو تناظراً
بل وقتالاً وكيداً بسبب الامور الدينية بين اليهود والنصارى ؛ كل ملة في داخلها
اولاً ، والمثلتان كل منهما ازاء الاخرى ثانياً، وأن هذا كان موضوع احاديثه واستغرابه
وهدف انتقاده وسخريته ، فكان يقول ما حكته آية فاطر . ولعل منهم من كان
يريد أن يقتصر أو يتهود رغبة في أن يكون صاحب كتاب ورسول كما فعل بعض
العرب ثم يتوقف ويتردد بسبب ما يسمعه أو يراه من ذلك الخلاف والنزاع .
ولقد أشار القرآن إلى هذه الاختلافات الدينية ، في آيات كثيرة مكية ومدنية
منها ما نقلناه في فصول سابقة (٢) ، ومنها ما ننقل بعضه في ما يلي :

- ١ — وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على
شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قرلهم فالتة يحكم بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ... البقرة ١١٣
- ٢ — وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم ...
البقرة ٢١٣
- ٣ — إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد
ما جاءهم العلم بغياً بينهم ... آل عمران ١٩

(١) اقرأ بحث اليهود في الفصل الثالث من الباب الاول وقرأ آيات البقره
٧٦ و ٧٩ و ٨٠ و ١١١ و ١٣٥ و النساء ٤٦ - ٥٠ والمائدة ١٩ مثلاً .
(٢) اقرأ فصل الجاليات الاجنبية في الباب الاول وقرأ آيات البقرة ٢٥٣
ومريم ٣٥ - ٣٧ والنحل ٧٦ - ٧٨ وفصلت ٤٥ والجاثية ١٦ - ١٧ مثلاً .

٤ — ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به .

فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ... المائدة ١٤.

واسلوب الآيات ماقلناه هنا ونقلناه سابقاً فحواها وما فيها من دفاع عن اصل الدين وصحة الكتب السماوية وقدسيتها وصفائها ، ومن عزو الاختلافات والعداوة والبغضاء الى الانحراف والبغى والاهواء يحمل على الترجيح بل على اليقين بان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة وخاصة في مكة ويثرب كانوا على اطلاع غير قليل على احوال اليهود والنصارى وخلافاتهم ومذاهبهم ومشاققتهم ومجادلاتهم ومقاتلاتهم بسبب الامور الدينية والخلافات المذهبية ، وان هذا كما كان يثير في العرب الحيرة والسخرية ويجعل لهم مجالاً للاحتجاج والانتقاد ، ويحملهم على تمني ما تمنوه والقول بأنهم سيكونون اهدى منهم إذا جاءهم نذير وأنزل عليهم كتاب .

- ١١ -

ورابعاً بان يكون فريق من العرب سمع من بعض الاعراب والرهبان بشرى اقتراب بعثة نبي عربي وبصفات هذا النبي ، فكان مرتقباً مؤكداً انه اذا جاءه ايكون العرب به اهدى من الاعم الاخرى ولا ينتسمون كما انقسمت احزاباً وشيعاً متنازعة متباغضة متشادة .

وفي القرآن بعض الملهيات المؤيدة لذلك . ففي سورة الاعراف وردت هذه الفقرة :

« الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

والانجيل ... ١٥٧

ولا يمكن ان يكون محل الريب ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهره

يسمعا اليهود والنصارى بل وتوجه اليهم بنوع خاص ما لم يكن هؤلاء يجدون في

كتبهم الدينية صفات هذا النبي الاعمي باسلوب ما ويشرون بقرب ظهوره . ومن

المحتمل جداً ان لم نقل من المحقق ان علم هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئة

النبي (ص) . وفي سورة الصف هذه الآية :

« واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين

يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ... ٦
 والآية مدنية ، وبالإضافة الى انها احتوت تقريراً ايمانياً عن حادث هو عند
 المسلم صادق كل الصدق في حكايتها خطاب عيسى (ص) ابني اسرائيل ، فانه ليس من
 محل الريب ايضاً ان تحتوي آية قرآنية هذا وهي تتلى جهرتاً ويسمونها اليهود والنصارى
 ما لم تكن بشارة عيسى (ص) هذه مما يؤيدها النصارى على الاقل ويذكرونها ، ومن
 المحتمل جداً ان لم نقل عن المحقق ان هذا لم يفت العرب او فريقاً منهم في بيئته
 النبي (ص) .

وفي سورة البقرة هذه الآية :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على
 الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ... ٨٩
 وقد قال المفسرون في سياق تفسيرها استناداً الى الروايات ان اليهود كانوا
 يخبرون العرب بقرب بعثة نبي منهم ، ويقولون لهم انه سيكون من حزبهم وانهم
 يتضامون معه ضدكم زهواً وتبجحاً . وروح الآية ومضمونها وخاصة جملة « فلما
 جاءهم ما عرفوا » تجعل هذا التفسير وجيهاً كل الوجاهة .

وفي سورة البقرة ايضاً هذه الآية في سياق سلسلة آيات عن ابراهيم واسماعيل
 (ص) ورفعها قواعد البيت المحرم وتهيئته للعاكفين والطارئين ولاربع السجود :
 « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويبصرون الكتاب والحكمة
 ويزكيهم لانك انت العزيز الحكيم ... ١٢٩

وروح آيات السلسلة ومضمونها يدلان على ان ضمير الغائب في الآية هو عائد
 للعرب ذرية ابراهيم واسماعيل (ص) . ومع ان الآية تحتوي تقريراً ايمانياً هو عند
 المسلم صادق كل الصدق في حكايتها دعاء ابراهيم واسماعيل (ص) فاننا لانستبعد ان
 لم نقل اننا نرجح استناداً الى ما قررناه في مناسبة سابقة من قوة احتمال تداول قصص
 ابراهيم (ص) التي لم تذكر في التوراة بين العرب قبل البعثة واعتقادهم بصلتهم الابوية
 والدينية به ان تكون دعوة ابراهيم واسماعيل (ص) مما كان يتناقله العرب قبل البعثة
 ويستندون اليه في ارتقابهم بعثة نبي منهم فيهم وتمنيهم قرب هذه البعثة .

وقد يكون من الطبيعي بعد هذا ان يرد سؤال عن العوامل التي دفعت العرب الذين كانت هذه افكارهم وامتيتهم ، وهذا مبلغ تداركهم الديني الجديد الى ذلك الموقف العجيب الذي وقفوه من النبي (ص) في المرحلة الأولى من تاريخ دعوته ، وخاصة في عهد مكة ، والمتناقض كل المتناقض مع تلك الأفكار والأمنية والتطور. ونسبه اولاً على أمر مهم وهو ان موقف جمهرة العرب من الدعوة النبوية وخاصة في العهد المكي وفي مكة قد كان يتأثير زعماء مكة وكبرائها ونهائها وسادتها واغنيائها كما تقرره الآيات القرآنية العديدة التي نقانا بعضها في فصل نظام الحكم والطبقات من الباب الثاني (١) من جهة وأن أولئك الزعماء والكبراء والسادة الذين حملوا لواء الجدل والحجاج والمعارضة والصد عن الدعوة النبوية هم في الأغلب الذين حكمت آيات القرآن اقوالهم التي كانت تبدر منهم قبل البعثة مثل آيات فاطر ٤٢ والصفات ١٦٥ - ١٦٩ .

وبعد هذا التنبية نقول جواباً على السؤال ان في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستدلال بها على انه كان هناك عوامل عديدة هي التي غلبت زعماء مكة وكبرائها على امرهم وواقعهم في هذا التناقض العجيب .

منها الحسد والاستكبار والترفع عن اتباع النبي (ص) بالذات، واستخفافهم لشأنه ، وغيتهم من اختصاصه بالرسالة الانبئية من دونهم وهم يرون انفسهم اعظم مركزاً وأضخم ثروة واعرض جاهلاً وابعدهم نفوداً واسمع كلمة منه كما جاء في آيات عديدة ننقل منها ما يلي :

١ - واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ... فاطر ٤٢ - ٤٣

٢ - ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا

(١) آيات سبأ ٣١ - ٣٣ والبقرة ١٦٦ . إبراهيم ٢١ والاحزاب ٦٧ مثلاً

القرآن على رجل من القرينين عظيم . أم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ...
الترخرف ٣٠ - ٣٢

٣ - أُنزل عليه الذكر من بيننا ...
صاد ٨
ومنها الخشية من فقد ما كان لهم ولمسكة من امتيازات على العرب ، وما كان يعود عليهم من منافع عظيمة من هذه الامتيازات التي كانت لهم بسبب وجود الكعبة ومناسك الحج في مكة ، وبسبب أمن منطقة البيت المحرم كما جاء ذلك حكاية صريحة عنهم في إحدى آيات سورة القصص :

«وقلوا إن تتبع الهوى تخطئ من أرضنا ...» القصص ٥٧
حيث تفيد ان زعماء مكة تصوروا ان متابعة النبي (ص) ستؤدي الى الغناء كل ما كان لهم والدم من الامتيازات ، وكل ما كانوا عليه من تقاليد ، ورأوا في ذلك فقد اسباب معاشهم ومظاهر عزتهم وحرمتهم ، وتعريضهم للخطر وجماعهم مأكلة سائئة للأكلين ، ونهياً سهلاً للناهيين . ولعل هذا من اهم ما استغلوه في تخويف سواد مكة من متابعة النبي (ص) لانه يمت الى وسائل حياتهم مادية كانت او أدبية .

ومنها عصبية التقاليد التي كانت شديدة الرسوخ فيهم ولم يكن من السهل التغلب عليها ، والتي تتضاءل معها النظريات وقوة المنطق ، وتعمى فيها البصائر . وقد شرحنا هذه العصبية وآثارها استلهاماً من آيات أوردناها في الفصل الثاني فلا نرى ضرورة للأعادة هنا .

- ١٤ -

ومنها الصورة التي تصوروها « للنبي » ومظهر « النبوة » والتي تصورنا حجة من تفكير العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ؛ ثم مارأوه من تناقض لها في شخص النبي (ص) ومظهره وقدرته . فقد تصوروا أن النبوة تخرج « النبي » من الطبيعة البشرية إلى ما فوقها ، ويصبح قادراً على خرق نوااميس الكون والسنن الاعتيادية . وقد كان لما عرفوه من قصص الامم والانبياء (ص) اثر ما في هذه الصورة ولاريب ،

حيث لا بد من أنهم قد عرفوا من هذه القصص التي لم تكن مجهولة في الاوساط العربية قبل البعثة على ما قررناه ودلنا عليه في مناسبة سابقة أن الله قد كلم موسى (ص) تكليماً ، وأنه تراءى له في شجرة الطور ، وأنه تولى على الجبل وأنزل عليه الألواح مكتوبة من السماء وقد شاهدتها بنو اسرائيل ولمسوها ، وأن عصاه كانت تحول إلى ثعبان هائل يلقف كل شيء ، وأنه جلب على مصر من آيات البلاء ما فيه الفزع الأكبر من الطوفان إلى الجراد إلى القمل إلى الضفادع إلى الدم ، وأنه ضرب بعصاه البحر فانفلق عن طريق يابسة مشى فيها بنو اسرائيل ونجوا من فرعون وجنوده ، وأنه ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً على عدد اسباط بني اسرائيل وأن الله ظلهم بالغيام ، وأنزل عليهم المن والساوى ، وأنه أمات فريقاً منهم بالصعقة تأديماً ثم احياهم ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا من هذه القصص أن يحيى (ص) ومن قبله اسحق (ص) قد ولدا من اب طاعن وام عاقر بمعجزة ربانية ، وأن عيسى (ص) قد ولد بدون اب وبمعجزة خارقة جعلت المسيحيين يعتقدون بينوته لله ، وأنه تكلم في المهدي بكلام الانبياء ، وأنه ابرأ الاكمة والابرص واحيا الموتي ، ونفخ في الطين فصار طيراً ، وأن الله قد أنزل عليه مائدة من السماء شاهدتها الحواريون واكلوا منها ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا أن الله قد سخر الجبال والطيور لداود (ص) والريح والجبان لسليمان (ص) ؛ ولا بد من أنهم قد عرفوا بمعجزة طوفان نوح (ص) وفلكه ، وبقصص الملائكة الذين نزلوا على ابراهيم (ص) ثم على لوط (ص) وكلموهم ، وخسفوا بلاد قوم لوط بسبب ما ارتكبوه من الآثام ؛ ولا بد من أنهم كانوا يعرفون من القصص العربية المتداولة بينهم عن غير طريق اهل الكتاب ما كان امر رسالة هود وصالح وشعيب (ص) وما كان من معجزة خروج ناقة صالح (ص) من الصخرة وتدمير قومه ، وما كان من الريح الصرصر الذي هلكت به عاد ويوم الظلّة الذي هلك به قوم شعيب إلى آخر هذه القصص النبوية الخارقة ، فتمسوروا «التي» تلك الصورة التي ساعد على قيامها في أذهانهم ما سمعوه وعرفوه عن الانبياء السابقين (ص) ، ثم رأوا سيدنا محمداً (ص) يخبر أن الله قد اوحى اليه بالنبوة وارسله لهداية الناس إلى الهدى ودين الحق ، ويتلو عليهم آيات الكتاب التي يخبر أن الله ينزلها عليه

بواسطة ملائكته، بينما هو منهم وبشر مثلهم، يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون، ويمشي في الأسواق كما يمشون ، ويعتريه ما يعتريهم من أعراض ، ويحتاج إلى ما يحتاجون اليه من شؤون ، ويتمتع بما يتمتعون به من متع ؛ ولم يروا فيه صفة خاصة ولا علامة بينة ولا قوة خارقة ، ولم يروا الملائكة التي تنزل عليه ، فاند هشوا من هذا وطالبوه بالآيات والمعجزات كما كان الانبياء الاولون يأتون بها ، واقترحوا عليه إنزال الملائكة من السماء لتأييده ، وتنزيل كتاب مكتوب من السماء يلمسونه ويقرأونه ، وتفجير الأنهار واطهار كنوز الأرض وإحياء آبائهم الاولين الى اخر تلك المقترحات التي حكمتها الآيات القرآنية والتي اوردنا كثيراً منها في فصول المشاققة والبحاث السحر والسحرة والكهانة والكهان والشعر والشعراء والملائكة والجن ؛ فكان جوابه بلسان القرآن سلبياً مكثفياً بالاشارة الى القرآن الذي يوحى اليه به كما ترى في الآيات التالية :

١ — قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون ...
الانعام ٥٠

٢ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية أيؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله ...
الانعام ١٠٩

٣ — قل لأملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ...
الاعراف ١٨٨

٤ — وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أتت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن ابده من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى الي إني اخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ...
يونس ١٥

٥ — ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد ...
الرعد ٧

٦ — وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . او تكون لك

جنة من تحيل وعنكب ثم فجر الأضهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت
علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في
السماء وإن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا
بشراً رسولاً ... الإسراء : ٩٠ - ٩٣

٧ - وقاؤا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما
أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة
وذكرى لقوم يؤمنون ... العنكبوت ٥٠ - ٥١

غير ان هذه الاجوبة والردود القرآنية التي تجلى فيها الصميمية والصدق لم
تكن لتقنعهم وتعرضهم عن المرددة التي تصوروها « للنبي » وتغنيهم
عن المطالبة بالآيات والحوارق ؛ ثم اشتدت المشاقة واختلطت فيها عواطف الحقد
والحسد والغيظ فاعتمتهم عن رؤية الحق الواضح ، والسناء الالامع ، والعقل الراجح
والصدق والصميمية والاخلاص في القول والعمل والدعوة الى الله ومكارم الاخلاق ،
وجعلتهم يعالون دعوى النبي (ص) بما كان قائماً في اذهانهم من معارف وعقائد ،
ويقولون انه شاعر حيناً وكاهن حيناً وساحر حيناً ومسحور حيناً ومجنون حيناً ،
وان الشيطان هو الذي يلقنه ما يقوله حيناً ، وان بعض الناس يعاونونه حيناً ، وان
ما يقوله هو اساطير الأواين حيناً على ما ذكرته الآيات التي اوردنا شيئاً كثيراً منها ،
ولم يتبدل موقفهم الا بعد ان اشتد امره سياسياً وحرانياً ، وهلك اكثر الزعماء
والمؤننين والمجادلين اللجوجين والخصوم العنيدين المستكبرين والمغيظين .

- ١٥ -

ومنها عقيدة البعث بعد الموت التي كانت ركناً من اركان الدعوة النبوية ؛
ولعلها كانت من اشد العقبات في سبيل هذه الدعوة في العهد المكي ، كما كانت
اكثر مواضع القرآن المكي تكراراً وحفاوة ؛ وقد حكى الآيات الانكار
والتحدي والأعراض والسخرية التي كان العرب يقابلون بها قرارات القرآن وانذاره
وتبشيريه عن اليوم الآخر وبعث الناس بعد موتهم لحسابتهم عما فعلوه في حياتهم
الدنيا وتوفية كل نفس ما عملت من خير وشر ، ومجازاة المحسنين المؤمنين بالجنة

والمغفرة والرضوان ، والمسيئين الكافرين بالنار والحزبي والخسران كما ترى في
الأمثلة التالية :

١ — وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ... الانعام ٢٩

٢ — وأئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت أيقولان الذين كفروا إن هذا

إلا سحر مبين ... هود ٧

٣ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... النحل ٣٨

٤ — وقالوا أئذا كنا عظاماً ورثاً فأتانا أبنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا

حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يبعثنا قل الذي

فطركم أول مرة فسيفتنون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون

قريباً ... الإسراء ٤٩-٥١

٥ — قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآبائنا

هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ... المؤمنون ٨٢-٨٣

٦ — وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبئكم إذا ميزتم كل ممزق

أنكم أنفي خلق جديد . أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون

بالآخرة في المذاب والضلال البعيد ... سبأ ٧-٨

٧ — وقال الذين كفروا لئن أتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب

لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر

إلا في كتاب مبين . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أوائك لهم مغفرة ورزق

كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين أوائك لهم عذاب من رجز اليم ...

سبأ ٣-٥

٨ — وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم

بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن

قالوا ائنا بآبائنا إن كنتم صادقين ... الجاثية ٢٤-٢٥

وكثر الآيات المنذرة المبشرة باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه قد تدل

بالإضافة الى ما ينطوي فيها من حكمة ربانية وحقيقة إيمانية على أن المشكلة لم تكن

قائمة في أذهان بعض الطبقات دون بعض ، وإنما كانت مشكلة الجميع ؛ الوثنيون والمشركون مع الله والمتقربون إليه بالشفعاء والوسطاء ، حيث يصح أن يقرر انهم لم يهضموا أن الناس بعد ان يصبحوا تراباً ويمزقوا كل ممزق ان يعيشوا ثانية ايحاسبوا على ما كان منهم في الحياة الدنيا من خير وشر وصلاح وآثام ونفع وضرر وإيمان وكفر. والذي نرجحه ان عدم وجود بيان صريح ووصف واضح في الديانتين اليهودية والنصرانية عن البعث واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب كان من اسباب تعمق المشكلة في أذهان العرب ، ومقابلة الوعد والوعيد بالاعراض والاستخفاف ؛ من حيث كونهم لم يسبق لهم إعداد لاساعة هذه الحقيقة الايمانية الغيبية ؛ كما كان امرهم في إساعة فكرة الله المجردة ، وفكرة الملائكة وبعثة الأنبياء ووحى الله اليهم بالآيات والكتب وتأيدهم بالمعجزات .

- ١٦ -

واسائل يسأل عن الهدف الذي كان العرب يستهدفونه والحالة هذه في الدين بدين ما ، والاعتراف بالله والقيام بواجبات العبادة له او لشركائهم وشفعائهم وتمنيهم بعثة نبي فيهم ونزول كتاب رباني اليهم يتبعونه ويهتدون بهديه .
وجواباً على هذا نقول ان المتبادر - بقطع النظر عن كون الدين يكاد يكون غريزة في البشر ، وعن كون العقائد حينما تتأصل ويتقدم عليها العهد تصبح لاشعورية ولا تتوقف على تفكير وتصويب - انهم كانوا يستهدفون ما يستهدفه الناس الآخرون الذين يتدينون بدين ما ولا يقوم في أذهانهم معنى للحياة الأخرى وخاصة على الصورة التي جاءت مفصلة في القرآن ، وهو الحصول على رضا الله وعطفه وبره وممونه وحمايته ، ومعرفة ما يرضيه ويسخطه ، وضمانه نيل الخير ودفع الضرر ؛ فلهم مطالب وآمال ، ومخاوف وهو اجس في حياتهم الدنيا : يجلس عنهم المطر ويصيدهم القحط ويتعرضون للمصائب والأمراض ، ويركبون البحر ويواجهون الأخطار ، ويقومون بالأسفار ، وتنشب بينهم الحروب ، ويعوزهم الرزق والذرية ، وتخيفهم اشباح الظلام والأحلام والأرواح الخفية المؤذية ، وتفزعهم مظاهر الطبيعة من عواصف وزلازل وكسوف وخسوف وبروق وصواعق ورعود ، وكل ذلك من شأنه ان يحملهم

- ٤١٦ -

على التدين والدعاء لله او الالهة والشفعاء معه وعبادتها والترف اليها والرغبة في معرفة ما يرضيها ويستخطها ؛ أي أن تدينهم إنما كان الدنيا وأحداثها ؛ اما خوفاً من بلاء حاق او قد يحيق بهم ، ودفعاً لشر وقع او قد يقع عليهم ، واما جلباً للنعمة او رزق او خير او ربح او نصر يرجون ان يصيروه .

وفي القرآن آيات عديدة تمثل هذا التفكير الديني البحت ، وفيه كذلك مساجلة للعرب في تفكيرهم هذا وهو يرد عليهم بان شركاءهم الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون لهم نفعاً ولا ضرراً ، ولا عوناً ولا نصراً ، كما ان ما فيه من ضروب الامثال على ما في الدنيا من متاع زائل ، وعلى ما في التمسك او الاء كتفاء بها من خطأ وباطل انما هو بسبيل الرد على هذا التفكير الديني الذي كان كل همهم وهدفهم في التدين والعبادة .

ولقد اوردنا في فصل الشرك آيات عديدة من هذا الباب ، وفي ما يلي امثلة اخرى منه ايضاً :

- ١ - فاذا قضيتم مناسككم فادكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو اشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ... البقرة ٢٠٠
- ٢ - وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ... الأنعام ٣٣
- ٣ - إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ... يونس ٧ - ٨
- ٤ - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ... هود ١٥ - ١٦
- ٥ - من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ... الإسراء ١٨
- ٦ - كلا بل يحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ... القيامة ٢٠ - ٢١
- ٧ - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... الانسان ٢٧

ولقد كانوا كل ما توعدهم الله بالآيات القرآنية بالعذاب تبادر الى اذهانهم انما يتوعدهم بعذاب قريب في الدنيا يمشك ان يأخذهم قياساً على ما سمعوا من التدبير العاجل الذي حل بعاد وعود وقوم لوط وأصحاب مدين فينتظرون وينظرون ، ولما لم يقع تساءلوا تساءل المستغرب المنكر عن مواعده ، واخذوا يستجلبونه تمديداً واستهتاراً من جهة ، ولأنهم لم يكونوا ايمصدقوا بالعذاب الاخروي ويسيفوا احتمال بعثهم بعد الموت ايدوقود من جهة اخرى كما ترى في الآيات التالية :

- ٣ — واثن آخرنا عنهم العذاب الى أمة ممدودة ايقوان ما يحبسها ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن ... هود ٨
- ٤ — ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ... يونس ١١
- ٥ — خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون. ويقولون هتي هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ... الا انبياء ٣٧ - ٤٠
- ٦ — وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد ان يجدوا من دونه موعداً ... الكهف ٥٨
- ٧ — ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ... المنكبات ٥٣ - ٥٤
- ٨ — أفعيدينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد ... قاف ١٥
- ونحب ان نستارك أمراً ؛ فمع ما قررناه عن عدم اساعة الرب امر البعث والحساب والثواب والعقاب على النحو الذي انذر وبشر به القرآن ، وكون هذه العقيدة من اكبر المشاكل التي عرضت لهم في الدعوة النبوية وانكروها فأنهم كانوا يمتقدون بخلود الروح بشكل ما بعد الموت على ما سوف نذكره في فصل آخر.

الفصل السادس

في الخنفاء او الصابئين واتباع ملة ابراهيم (ص)

خطورة الموضوع في التطور الديني قبل البعثة - الصابئون في القرآن وحقبة امرهم - ترجيح كون التسمية لموحدي العرب قبل البعثة - تنفيذ صلة ملة ابراهيم - الخنفاء - احاديث وروايات عن اسماء موحدي العرب واتباع ملة ابراهيم - الخنفاء والحنيف في الآيات القرآنية - اشتقاق الكاسية ومفهومها - الخنفاء والصابئون شيء واحد - استدلالات قرآنية بشأن النبي (ص) قبل بعثته - حفاوة القرآن بذكر ملة ابراهيم ودلالاتها - الحجاج مع اليهود ودلالاته - تكرار حكاية مواقف ابراهيم مع قومه في القرآن ودلالاته - ترجيح كثرة عدد الصابئين والخنفاء - دورة شاملة لتطور الحركة الدينية عند العرب قبل البعثة - تحمل بيئة النبي (ص) التفاوت الذي احتوته الصور - وحدة الانبجاء بين اجزاء الصورة .

- ١ -

اشرنا في الفصل السابق اشارة مقتضبة الى طبقة الخنفاء او الصابئين او اتباع ملة ابراهيم (ص) ومركزها من الحركة التطورية الدينية الجديدة التي ظهرت في بيئة النبي (ص) قبيل البعثة .

وهذا الموضوع ذو خطورة خاصة في صدد تصوير هذه الحركة ونضوجها او بالأحرى قربها من النضوج ، وذلك ما جعلنا نرد فصلاً خاصاً به نتعرف فيه الى هذه الطبقة وظروف ظهورها ودلالاته .

- ٢ -

في القرآن ثلاث آيات ذكر فيها الصابئون في اثنتين منها هم والمؤمنون واليهود والنصارى فقط ، وفي الثالثة ذكروا مع هؤلاء مضافاً اليهم المشركون والمجوس . وهذه هي الآيات :

١ - إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم
الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...
البقرة ٦٢

٢ - إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم
الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... المائدة ٦٩

٣ - إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين
اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ... الحج ١٧
واقدم قال المفسرون (١) عن هؤلاء الصابئين (١) انهم طائفة من المجوس (٢)
عبدة الملائكة (٣) عبدة الكواكب (٤) يعبدون الشمس ويصلون اليها خمس مرات
في اليوم (٥) بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرأون الزبور ويعبدون الملائكة
ويصلون الى الكعبة قد اخذوا من كل دين شيئاً (٦) ان اصل دينهم هو دين نوح
(٧) انهم الذين لا دين لهم !

وقد غاب عن المفسرين ان ذكر المجوس والمشركين في آية الحج مع الصابئين ينبغي
ان يبعدهم من الجوسية والشرك الذي منه عبادة الكواكب والملائكة مع الله ، وإن
ذكرهم في آية البقرة والمائدة مع المؤمنين واليهود والنصارى اي مع الموحدين
توحيداً صريحاً او مؤولاً يسوغ القول انهم هم الآخرون ، وحدثت بشكل
من الاشكال .

ولقد استقر في الاذهان ان هذه التسمية هي لانتحلة الموجودة الآن في العراق
والتي يطلق عليها اسم « الصُّبَّة » الذي يظن انه تحريف « الصُّبَّاء او الصُّبَّة » بل
ان بعض المفسرين قالوا هذا في مآلوه . ومعروف ان بين رجالات الادب العربي
القديم افراد مشهورون من هذه النحلة احتفظوا بنسبتهم اليها منهم « ابو اسحاق
الصابي » . ولقد اورد بعض المفسرين قصة حول هذه النحلة وهي ان المأمون
سقرية فيها طائفة تعبد الكواكب ، فراد ان يعتبرهم من المشركين وان لا يقبل
(١) اقرأ تفسير آية البقرة ٦٢ في الطبري والنسفي والرازي وابي السعود

والخازن والبيضاوي والطبرسي .

منهم الجزية ، فقبل لهم انهم « الصابئون » الذين ورد ذكرهم في القرآن مع اليهود والنصارى وينسحب عليهم ما ينسحب على هؤلاء فأبقاهم على الذمة واخذ منهم الجزية . الى جانب هذا نذكر ان الكلمة اشتقاقية عربي أصيل من صبا أو صبا بمعنى مال وانحرف (١) ، وقد وردت صيغة من هذا الاصل بهذا المعنى في سورة يوسف :

« إلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . . . » ٣٣

ونذكر ان العرب في عهد النبي (ص) كانوا يقولون الذي يفارق دين آبائه ويدخل في دين جديد « صابئ » وانهم سمووا النبي (ص) بهذا الاسم وسموا به المسلمون الاوائلين لاول عهد الاسلام ، وكانوا يقولون عنهم « الصباة والصابئين » ؛ ففي قصة اسلام عمر (رضي) التي رواها ابن هشام (٢) ان عمر (رضي) كان يقول عن النبي (ص) انه صابئ ، وأنه لما أسلم وجاء لاول مرة بعد اسلامه الى فناء الكعبة شامخ الأنف قال المجتمعون ان ابن الخطاب قد أقبل عليكم بوجه صابئ . وفي صحيح البخاري (٣) ان امرأة بدوية عبرت عن النبي (ص) بقولها « ذلك الذي يقولون عنه الصابئ » . وفي أسد الغابة حديث عن الحارث الغامدي أنه رأى جماعة من قريش قد تجمعوا على رجل من مكة فقال لأبيه ما هذه الجماعة فقال هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم فأشرفنا فاذا رسول الله (ص) يدعوا الناس الى عبادة الله وحده .

فاطلاق التسمية على النبي (ص) والذين آمنوا به في اول عهد الاسلام قد يزيد في قوة استدلال كون الكلمة الفرآنية عن الموحدين بشكل ما لأن القرآن سلك أصحابها في سلكهم في آيتي البقرة والمائدة ، او على الأقل عن الذين انحرفوا عن دين الرب ونقاليدهم الشركية . وورودها في القرآن دليل على انها من تعابير قبل البعثة ؛ ومنتقد بناء على ذلك انها لم تطاق على النبي (ص) وأصحابه لاول مرة ؛ لانها لو كانت كذلك لما كان من حكمة لذكر « الصابئين » للتعبير عن المسلمين في الآيات اولاً وقد عبر فيها عنهم تعبير « الذين آمنوا » ثانياً : اي انهم غير النبي (ص)

(١) لسان العرب مادة صبا .

(٢) ج ١ ص ٣١١ .

(٣) التجريد ج ١ ص ٤٧ .

والمسلمين في التسمية القرآنية ولو كان العرب قد سموهم بها ، ولأن مما يكاد يكون
يقيناً انه وجد من ترك عتائد وتقاليد العرب الشركية قبل البعثة ثالثاً .

— ٢ —

لهذا كله نرى من المعقول ان يكون الاسم قد استعمل في الآيات القرآنية
للتعبير او الإشارة الى جماعة ما في بيئة النبي (ص) كانوا قبل البعثة يدينون بالتوحيد
بشكل ما ، ويطلق عليهم هذا الاسم من حيث معناه اللغوي على اعتبار انهم صيأرا
عن دين آباؤهم واعتنقوا او اتبعوا ديناً أو عقيدة جديدة توحيدية ، ليست هي
اليهودية ولا النصرانية ، وانه اطلق على النبي (ص) والمؤمنين به لاول عهدهم لأنه
استعمل مألوف . وذكرهم في آيات مدنية في عداد اصحاب الأديان الاخرى يحمل
على القول انه ظل منهم افراد على ما كانوا عليه ، ولم يتبعوا النبي (ص) . وقد ابدت
الروايات ذلك بذكرها امية بن الصلت وكونه آنفس على النبي (ص) لنبوة وكان
يرشح نفسه لها .

اما اقوال المفسرين عنهم فاننا لانراها تخرج عن حد التخمينات ، وتعددها
وتموجها مؤيدان لذلك ؛ كذلك فاننا نرى ان الربط بين الصبة العراقيين اليوم
والصائبين من عهد المأمون وبمعه ، وبين التسمية القرآنية وهم وتجاوزوا بالأحرى
تلفيق مرتجل ومنأخر عن الاسلام بقرنين أو أكثر ؛ لأن هذه الكلمة عربية
الأصل والاشتقاق اولاً ، وكانت تستعمل في بيئة النبي (ص) وتطلق على الذين
كانوا ينحرفون عن دين آباؤهم من العرب ثانياً ، وانها اطلقت على النبي (ص) والمسلمين
الأولين استمراراً لذلك ثالثاً ، وانه ليس في الكتب القديمة العربية ذكر طائفة
معينة كان يطلق عليها هذا الاسم في عهد النبي (ص) لا في الجزيرة ولا في اطرافها
رابعاً ، ولأن عبدة الكواكب في العراق لم يعرفوا في لغتهم بهذا الاسم او بما
يقرب منه اشتقاقاً حتى يقال ان الكلمة محرفة او معربة كما هو شأن اليهودية
والنصرانية خامساً ، ولأن جواز اخذ الجزيرة من المجوس وعبدة الكواكب كان
سنة نبوية وراشدية وكانت معروفة مألوفة ما ونة في الكتب (١) قبل عهد المأمون

(١) اقرأ كتاب الاموال لابن سلام وكتاب الخراج لابي يوسف .

وذلك مما يضعف الرواية المسبوكة حول اسم الصابئين وتجويز اخذ الجزية منهم في زمن المأمون سادساً .

٤ -

فمن هم هؤلاء وما هي العقيدة الجديدة التي اعتنقوها بدلاً من العقائد والتقاليد التي كان عليها آباؤهم؟

لقد ورد في كتب السيرة والتفسير^(١) ذكر أفراد من عرب الحجاز كانوا أموا بالكتب السماوية واستنارت عقولهم فأنفوا ان يظالوا يعبدون ما يعبد آباؤهم، ويشركون مع الله آلهة اخرى او يتخذون معبوداتهم شفعاء وأولياء ، ففارقوا ذلك كله، ومنهم من اعتزم التطويق في الأرض للبحث عن الحنيفية ملة ابراهيم (ص) ومنهم من تنصرو ومنهم من أخذ يتعبد على ملة ابراهيم (ص) او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان في مكة ومنهم من كان في يثرب ؛ وقد سميت هذه الكتب أسماء عدد غير قليل من هؤلاء مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وأميمة بن الصلت ، وأبي قيس النجاري اليثربي ، وأبي الهيثم ابن التيهان اليثربي ، وأبي عامر الأوسي ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري .

وفي صحيح البخاري^(٢) حديث مفاده أن السيدة خديجة (رض) جمعت بين النبي (ص) وبين ورقة ابن عمها وكان شيخاً طاعناً قد قرأ الكتب السماوية وتضاع باللغة العبرانية ، وطلبت منه ان يخبره بأمره، وانه لما استوعبه بشره بأن هذا الذي أتاه هو الناموس الذي كان ينزل على النبي موسى (ص) وشجعه وثبته ووعدته بالتأييد إن هو ظهر بدينه ونادى بدعوته .

وفي ابن هشام^(٣) حديث طويل عن الأربعة الاءواين ولاسيما عن زيد وكيف كان يعيب قومه ويفخر بأنه على دين ابراهيم (ص) ، وكيف انه أزمع الخروج في

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢١٥-٢٢٣ وج ٢ ص ١٠٣ وص ١٧٧ - ١٧٨ وابن

سعد ج ١ ص ٢٠٢ والرازي ج ١ ص ٣٦٩-٣٧٠ مثلاً .

(٢) التجريد ج ١ ص ٧

(٣) ج ١ ص ٢١٥-٢٢٣ .

طلب الخنيفية ملة ابراهيم وكيف كان عمه يؤذيه ويحاول أن يفتنه .

وفي أسد الغابة (١) صيغة دعاء وتوسل معزوة الى زيد هذا كان يناجي ربه بها فيقول : « لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، عدت بما عاذ به ابراهيم ، أنفي لك عات راغيم ، مهيا تجشمني فاني جائم ؛ وانه كان يسجد على راحته ، وأن النبي (ص) اجتمع اليه قبل البعثة وقال عنه انه يبعث أمة واحدة ، وهو والد سعيد بن زيد (رض) أحد العشرة المبشرين والسابقين الاوائلين وزوج فاطمة بنت الخطاب (رض) التي أسلمت مع زوجها قبل اخيها .

وكذلك ذكر ابن هشام (٢) في سياق ذكر أبي عامر الاوسي أنه كان يدعي انه على الخنيفية دين ابراهيم في مقابلة بينه وبين النبي (ص) في المدينة بعد الهجرة .

— ٥ —

وفي القرآن آيات عديدة وردت فيها كلمتا حنيف وحنفاء ؛ ومن هذه الآيات ما هو مكي ومنها ما هو مدني ، ومنها ما جاء مع ذكر ابراهيم (ص) وملائته ، ومنها ما جاء في وصف الدين الذي يدعو إليه النبي (ص) ، ومنها ما جاء مطلقاً ، وجميعها تحمل معنى التوحيد والموحدين كما ترى في الامثلة الآتية :

١ — وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان

من المشركين . . . البقرة ١٣٥

٢ — ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان

من المشركين . إن أدلى الناس بابراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله

ولي المؤمنين . . . آل عمران ٦٧-٦٨

٣ — قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم . ديناً قديماً ملة ابراهيم حنيفاً

وما كان من المشركين . . . الانعام ١٦١

٤ — قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من

دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن اكون من المؤمنين . وأن أقم

(١) ج ٢ ص ٢٢٧-٢٣٩ .

(٢) ج ٢ ص ١٧٨ .

وجهك الدين حنيفاً ولا تكونين من المشركين يونس ١٠٤-١٠٥

٥ - ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين

النحل ١٢٣

٦ - فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير

مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه العير أو تهوي به الريح

في مكان سحيق الحج ٣٠-٣١

٧ - فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق

الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا

الصلاة ولا تكونوا من المشركين الروم ٣٠-٣١

واقدم قال المفسرون ان كلمة « حنيف » مشتقة من حنّف وانها في معنى المستقيم

كما قالوا وهو الأرجح انها مشتقة من حنّف بمعنى مال وانحرف بدليل تسمية

الاء حنّف لمن في رجله ميل ، وقالوا انها وجمعها حنفاء كانتا تطلقان على الذين كانوا

يميلون عن دين الشرك ويوحّدون الله قبل البعثة من العرب . وواضح أن هذا المعنى

يتحد مع معنى صبا والصابئين ؛ وكل ما في الامر ان كلتي حنيف وحنفاء وردتا في

القرآن أكثر وفي جمل أشد ابرازاً للمعنى التوحيد وصفة الموحدين ، وإن لم تردا في

معرض التعبير عن أصحاب نحلة دينية كما وردت كلمة الصابئين .

ونحن نعرف ان لبعض الباحثين أقوالاً حول كلتي حنيف وحنفاء ؛ منها ما يرمي

الى التديل على وجود طائفة او نحلة كانت تسمى بهذا الاسم قبل البعثة ، ومنها

ما يشكك في عروبة الكلمة بسبب تقرير كون هذه النحلة ليست عربية وإنما هي

دخيلة ايضاً ؛ وبعضهم حاول ان يجد بينها وبين بني حنيفة ومسيلتهم الكذاب صلة ،

وبعضهم تجاوز الحد فزعم ان معناها كان غامضاً في ذهن النبي (ص) . والوجه الذي

نعتقد صوابه هو ما قررناه آنفاً ، وان الكلمة عربية الاشتقاق ، وانها كانت مفهومة

قبل البعثة على الوجه الذي ذكرناه ؛ وعلى كل حال فانها بورودها في القرآن اصبحت

لا محل للمهارة في انها كانت مستعملة في اللسان العربي قبل نزوله الدلالة على ما جاءت

تدل عليه في القرآن أي التوحيد وعدم الشرك مع الله . أما الأقوال الأخرى فهي أهون من أن تحمل التفنيدي فيما نرى .

ومهما يكن من أمر فاننا نميل الى الظن بل الى التبريح أن الصابئين والحنفاء شيء واحد از طبقة واحدة ، وانهم اولئك الذين تخلوا عن دين الآباء الشركي او الوثني من مستنيري عرب الحجاز ، ووجدوا الله ولم يستريحوا الى اليهودية والنصرانية أو لم يسترح بعضهم اليها لما رأوه فيها من مشاكل وانقسامات ، وفي اهلها من انحراف ومتناقضات ؛ ومنهم من عبد الله على ملة ابراهيم او ماظنه كذلك ، ومنهم من كان يبحث عنها ليتعبد عليها .

- ٦ -

هذا ونلفت النظر الى آية الانعام (١٦٢) لنقول ان الآية توحى بأنه كان في نفس النبي (ص) قبل البعثة شيء من الحيرة في الملة او في ملة ابراهيم فهده الله اليها . ولعل هذا ما أريد الاشارة اليه في آية سورة الضحى (٨) التي هي من أقدم السور نزولاً :

«لم يجدك يتيماً فأوى . ووجدك ضالاً فهدى . . .»

٨-٧

وتوحى ايضاً هي وآية الضحى ان النبي (ص) كان أنف كذلك من السير على ما عليه الآباء من شرك ووثنية ولو انها تطورا بعض التطور ؛ ولذلك لا يكون من التجوز ان يقال ان النبي (ص) قبل بعثته كان من اولئك الافراد الذين تخلوا عن عقائد آبائهم ولم تسترح نفوسهم الى النصرانية واليهودية ، ورأوا ان الحق التوحيدي في توحيد الله توحيداً لا مشابهة فيه ولا تأويل وفي عبادته على ملة ابراهيم الحنيفية ، ولم يخلصوا مع ذلك من حيرة ما في أمر هذه الملة ، والذين كانت يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء ؛ إلى أن اختاره الله من بينهم لما تحلى به من الميزات التي أهلتهم للاصطفاء والله اعلم حيث يجعل رسالته ؛ وأمره ان يهتف : قل إني هادي ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . الانعام ١٦١

- ٧ -

كذلك نلفت النظر الى ورود ذكر ابراهيم (ص) ومولته والاشادة بها بهذه

الحفاوة في القرآن ، وكونها ضد الشرك ، والاعمال الذي يرجع اليه ويسار عليه ، وإن ماجاء بعدها من يهودية ونصرانية قد انحرف عن الطريق الحق يوحى اولاً بأن ذكر ابراهيم (ص) وملته الحنيفية كان مما يتردد في أوساط العرب الحجازيين وبنوع خاص المستنيرين منهم قبل البعثة ، ويؤيد روايات السيرة التي أنشأنا اليها عن الأفراد الذين كانوا يحثون عن ملة ابراهيم (ص) وحادروا في امرها بعد ان نبدوا دين الآباء؛ ويستأنس به ثانياً على ما كان في أذهان العرب الحجازيين او المستنيرين منهم من صورة مشرقة عن ملة ابراهيم (ص) واعتبارهم إياها الملة النقية التي لم تشبها ماشاب اليهودية والنصرانية من شوائب وانحرافات وخلاف ونزاع .



ولقد كان هذا المعنى موضوع حجاج وجدال بين النبي (ص) وبين اليهود والنصارى (١) حيث احتوى القرآن ردوداً عليهم مسفة مخطئة ، ومقررة تناقضهم وانحرافهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قل له ربه أسلم قل أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنبيه ويعقوب يا بني " إن الله اصطفى لكم الدين فلا تتوتن إلا وانتم مسلمون . أم كنتم شهاداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قلوا نعبد آلآهك وإلآه آباءك ابراهيم واسماعيل وإسحاق إلهآ أو احداً ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له

(١) جمنا اليهود والنصارى لآعن الآيات تذكرها معاً مع ان سياقها يدل على ان الحجاج والجدل كان بين النبي (ص) واليهود فقط مما يسوغ القول ان ذكر النصارى جاء على سبيل الاستطراد والتعميم وانهم لم يكونوا طرفاً في المناظرة والجدل وإن كان من المحتمل أن يكون مما قالوه أو مما هو منطبق على واقع حالهم .

مسلحون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ولم يتولوا فانما هم في شقاق
فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له
عابدون . قل أنحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا وأعمالكم ونحن له
مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إيمقوب والاسباط كانوا هوداً
أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل
عما تعملون

٣ - «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا
من بعده أفلا تعقلون . هأنتم هؤلاء حاججتم في مالكم به علم فلم تحاجون في ماليس
لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان
حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا
النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين

آل عمران ٦٥-٦٨
وايس من المستبعد ان يكون مثل هذا الحجاج والبال قد دار بين اليهود
وبين مستنيري العرب الذين كانوا على ملة إبراهيم او كانوا ينشأونها ممن ذكرتهم
الروايات ومن لم يذكرهم قبل البعثة ايضاً ؛ حيث كان اليهود يزهرن ويفخرون على
العرب ، ويدعون انهم أولى بإبراهيم (ص) وانهم على ملته ، وحيث كان يرى اوائك
المستنيريون في اليهود والنصاري شقاقاً وخلافاً وانحراداً الا يأخذون بأقوالهم ولا
يتابعونهم في عقائدهم ، ويظنون ينشدون ملة إبراهيم (ص) في غير الديانتين اليهودية
والنصرانية ؛ بل نحن نربح ذلك لأن اليهود كانوا من مراجع العرب الدينية
كما أشرنا الى ذلك غير مرة ؛ ولا بد من ان يكون اوائك المستنيريون الذين استسحفوا
ما كان عايمه قومهم قد اتصلوا ببعض علماء اليهود وأخبارهم الاستطلاع والاقتباس
وتبين حقيقة ملة إبراهيم (ص) وناقشوا في دعوى انهم عايمها وأوردوا عليهم ما هم
فيه من انحراف وضلال ؛ ومن المحتمل ان لا يكون هذا الاتصال والنقاش والحجاج
قد اقتصر على اليهود ؛ وان يكون قد شمل النصارى وقد كان بينهم من هو مظنة
علم وتعليم بحيث نسب الكفار للنبي (ص) التعلم منهم والاستعانة بهم على ما تدل على
آيتنا النحل والفرقان (١٠٣ و ٤) مما أشرنا اليه في مناسبة سابقة . ولقد قلنا

سابقاً انه كان من عرب الحجاز من اعتنق اليهودية والنصرانية فمن المحتمل جداً ان يكون ذلك نتيجة من نتائج الاتصال والنقاش والحجاج ، بل وفيه دليل على وقوع هذا الاتصال والنقاش والحجاج في صدد ملة ابراهيم (ص) ونشدها بعد الأنفة من من العقائد والتقاليد التي كان عاينها الآباء .

ونود ان ننبه الى آية آل عمران (٦٨) انقول ان هذه الآية قد أشارت الى ثلاث طبقات وهم « الذين اتبعوا ابراهيم » و « هذا النبي » و « الذين آمنوا » ؛ ونرجح ان المقصود بالذين اتبعوه هم اولئك الذين نبذوا تقاليد الجاهلية وعقائدها ووجدوا الله على ملة ابراهيم (ص) الحنيفية قبل البشعة ، وأن الاشارة اليهم قبل ذكر النبي (ص) هي للترتيب الزمني ، أو على الأقل انهم من المقصودين بالتعبير ؛ بل نكاد نرى هذا يقيناً من مضمون الآية ؛ وايس من حكمة لقصد النبي (ص) و الذين آمنوا به في تعبير « الذين اتبعوه » لانهم خصوا بالذكر في الآية .

- ٩ -

واعلم مما يتأنس به على ما كان من حفاوة العرب بملة ابراهيم (ص) وتداولهم اخبار الصلة بينها وبين تقاليدهم ، مما حدا بأولئك المستنيرين الى الاهتمام للبحث عن ملة ابراهيم والتمرد على فهمها على الوجه الذي عاينه قومهم شركاً ووثنية وسخفاً، وان يتبينوها توحيداً حنيفاً لاشرک فيه تكرر حكاية القرآن لمواقف ابراهيم (ص) مع ابيه وقومه وحجاجه لهم ، ودعائه بتجنيبه وبنية الأصنام ، وحملته على الاوثان وتنديده بها ، واعلانه اسلامه وجهه الله - وكل هذا مما له صلة نذ كير ووعظ بالعرب وحالتهم الدينية ؛ حيث وردت في سور عديدة منها ما نقلناه في مناسبة سابقة وهي آيات سورة ابراهيم (٣٥ - ٤١) وفي مايلي بعضها ، (١) .

١ - وإذ قال ابراهيم لايه آزر اتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك يرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين .

(١) اكتفينا بما وردنا ، ونحيل الذارىء الى آيات سور مريم ٤١-٤٨ والشعراء ٦٩-٨٩ والعنكبوت ١٦-٣٧ والصفات ٧٣-٩٩ والزخرف ٣٦-٣٨ والمتحفة ٤-٦ والتوبة ١١٤ ايضاً .

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال أين لم يهديني ربي لا كوني من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجته قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجبتنا آياتنا إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاهما هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإيسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين . ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتمعتهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفروا بها هؤلاء (١) فقد وكلناهم قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم

عاهه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ٧٤-٩٠ الانعام

٢- ولقد آتينا إبراهيم رشدهم من قبل وكناهه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه

التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قل لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين . قالوا أجمعتنا بالحق أم أنت من اللاحقين . قل بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد إن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه من الظالمين . قالوا سمعنا فقل يدكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم .

(١) هؤلاء هنا إشارة إلى العرب الذين كفروا بالرسالة الحممدية .

قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لئلا يعلموا أنهم انطقون . قال أف تعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم وما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخشسرين ، ونجيناها ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين

الانبياء ٥١-٧١

فهذه المواقف التي ذكرتها المجموعات القرآنية التي نقلنا بعضها وأشرنا الى بعضها ليس مما ورد في التوراة في سياق حياة ابراهيم (ص) كما ان جليها وارد في سور مكية ، وفي سياق يتضمن التنديد بالعرب على شركهم وعدم ارعواهم ، وما ورد منها في السور المدنية ورد كذلك في حدود التنديد بالعرب ومعطوف على ما جاء في السور المكية وليس في حدود التنديد باليهود ؛ لان ما ورد في هذا الصدد غير هذه المجموعات ، وجميعه مدني وقد نقلناه في مناسبات سابقة ؛ والتنديد مع التمثيل بمواقف سابقة إنما يكون مستحكماً اذا كانت هذه المواقف مما يعرفه السامعون ؛ ولهذا فنحن نمتقد ان العرب السامعين المقصودين بالتنديد والتذكير كانوا يتناقلون اخبار ابراهيم (ص) ومواقفه سواء ما ورد منها في التوراة وما لم يرد جيلاً بعد جيل مع تناقلهم صاتمهم بالابوة ، وصلة تقاليدهم الدينية به كذلك ، مما تلهم الآيات الكثيرة صحة استنتاجه بسبب اسلوبها المأنوس والحنفي اذ ما أنعم النظر فيها .

ومع أن من المحتمل أن يكون أصل هذه الفكرة قد تسرب اليهم من اليهود الموحدين المنتسبين بالابوة الى ابراهيم (ص) لا سيما والتوراة هي اول وأقدم من ذكر ابراهيم (ص) فأنهم رأوا في اليهود والنصارى انحرافاً عنها كما رأوه في بني قومهم ؛ وهكذا كان العرب الحجازيون عامة على فكرة خالصة من تقاليد ابراهيم وملته ، ثم تميزت منهم طبقة رجعت أو حاولت أن ترجع الى ملة ابراهيم الحنيفية الصحيحة الخالصة من الشوائب التي ايست هي اليهودية ولا النصرانية ، وانما هي الاسلام لله وعبادته وحده خنفاء غير مشركين به ، فكانت هذه هي الصائبات او الخنفاء .

ونميل الى الترجيح بان هؤلاء الصائبين او الحنفاء او المتعبدين على ملة ابراهيم (ص) لم يكونوا عدداً قليلاً ؛ فلو لم يكونوا كثيرة محسوسة لما عدتهم القرآن فئة خاصة ، وأشار اليهم بهذه الحفاوة ، وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الاديان المنقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل ؛ ووصول اسماء نحو عشرة أشخاص الينا في كتب كتبت بمد قرن ونصف او قرنين او اكثر عن روايات ظلت تناقلها الافواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التي نرجحها . هذا اولاً ، وثانياً ان ظهور هؤلاء في غير مكان واحد وربما في غير وقت واحد يحمل معنى ظهور فكرة جديدة أخذت تقوى في ادمغة المستنيرين من العرب في عصر النبي (ص) وبيئته ، وهي فكرة الانجاء إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد في أمر العقيدة والتقاليد الدينية ؛ وبكلمة أخرى إن هذا يمكن أن يعد خطوة أخرى عظيمة القيمة من خطوات التطور الديني والفكري التي أدت اليها الحركة العقلية والدينية التي ظهرت قبل البعثة النبوية ثم نمت وقويت قبيلها .

وهكذا تكون الحركة الدينية قد تدرجت عند العرب وفي بيئة النبي (ص) من وثنية مادية وطبيعية وقوى طبيعية ، الى وثنية غير مادية روحية وخفية ، إلى فكرة الله والاعتراف به اليها اعظم خالق الاكوان ومدبرها مع أشراك الآلهة الأخرى معه ماديين وغير ماديين ، إلى انقلاب هؤلاء الشركاء إلى شفعاء لدى الله ووسطاء ، واعتبار الاوثان المادية رموزاً ، ثم إلى الاتجاه إلى الله وحده في شيء من الحيرة وارتقاب نذير او نبي ينقذ من هذه الحيرة ، ويهدى الى الطريق القويم ، ويكون به العرب أهدي من الأمم الأخرى التي كانت في خلاف ونزاع ، وشقاق وجدال ، قد أنقسموا فيما بينهم ، واخذوا يسفنون بعضهم بعضاً ويقاثلون بعضهم بعضاً . حتى اذا جاء الوقت المناسب في علم الله اختص الله سبحانه رسالته من بين تلك الطبقة التي اتجهت الى الله وحده وارادت الرجوع إلى ملة ابراهيم (ص) الحنيفية النقية ، واستسخرت ما كان عليه قومها من ضلال محمد بن عبد الله العربي الحجازي المكي

القرشي عليه الصلاة والسلام ، فقام بالدعوة إلى دين قويم بين الحدود ، واضح
 الاعلام سواء من حيث العقيدة الأصلية وهي التوحيد والايان بالله العظيم المتصف
 بجميع صفات الكمال المنزه عن كل الشوائب رب العالمين ، دون اختصاص كما زعم
 اليهود ودون تأويل كما زعم النصارى ، او من حيث الواجبات التعبدية والايمانية ،
 أو من حيث الاسس الاجتماعية والاخلاقية التي من شأنها ان تسمو بالانسان والانسانية
 إلى الكمال القائم على الحق والعدل والبر والاحسان والكرامة والعزة مؤتمراً بقول الله .
 « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله
 ذلك الدين القيم ...
 الروم ٣٠

معلناً باسان القرآن أن الله قد هداه إلى ملة ابراهيم الحقيقية :
 « قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قديماً لملة ابراهيم حنيفاً وما كان
 من المشركين ...
 الانعام ١٦١

موجهاً الخطاب إلى المسلمين العرب باسان القرآن :
 « يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون .
 وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة
 ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم
 وتكونوا شهداء على الناس ...
 الحج ٧٧-٧٨

- ١٢ -

وايس من مانع من أن تكون هذه المظاهر قد اجتمعت في عهد واحد حيث
 كان التفاوت قائماً لاشك فيه في العقول والذكاء والمعارف والتجارب والافق
 والنشاط والاتصال ؛ فكما انه يوجد في كل بيئة العاقل والاحمق والذكي والغبي ،
 والعالم والجاهل والنشيط والبليد ؛ والجوال والمنزل ، والعميق والساذج والطيب
 والخبيث ، وكل يسبح في الفلك الذي تهيئه له وسائله ومدى عقله ونشاطه وقابليته
 في أمور الدين والدنيا ؛ فكذلك من الطبيعي أن يكون قد وجد في عصر النبي
 (ص) وبيئته الوثني الغبي الذي لا يصل إدراكه إلى أبعد من عبادة الحجر والشجر ،
 والوثني الذكي الذي يرتفع من السفليات إلى العاويات فيعبد قوى الطبيعة ؛ ثم يعبد

الملائكة والجان ، والمشرک الغي الذي يتخذ اسكل مطلب من مطالبه صنماً باور ،
 والمشرک الذكي الذي يدرك عظمة الكون ويتوصل إلى وجوب وجود خالق له ،
 ويتخذ إلى جانب الاعتراف به شرکاء يحسبهم ، ويتجه اليهم مشاهدة ، والمشرک الاذكي
 الذي يرتفع عن الشرک الالهي إلى الشرک التوسلي فيجعل الشرکاء شفعاء ، ويعبدهم
 ليتربوه الى الله زانق ؛ والعامل المکابر الذي يدور مع مصالحته الدنيوية ، ويسير
 وراء أنانيته وكبريائه وتقاليدته ، والعامل الخالص الذي يرى كل ذلك سخفاً فينفض
 يده من الشرکاء والشفعاء ، ويتغلب على الانانية والكبرياء وعصبية التقاليد ، ويتجه
 إلى الله وحده يعبده على غير حدود معينة لانه ليس لديه من يهديه إلى هذه الحدود ،
 وليس له أن يخترع لنفسه من نفسه مثل هذا الحدود ؛ لاسيما وقد كان في تلك
 البيئة والمصر البدوي الموعغل في البادية الذي يعيش في عزلة شديدة ، والبدوي
 المستأنس المتصل قايلاً او كثيراً بالمدن ، والحضري الذي يعيش في شيء من العزلة
 والحضري الذي كانت عزلته أخف وأقل ؛ ثم وقد كان فيها الذي قرأ وكتب
 واطلع على ما وصلت اليه يده من كتب ، واحتك بمن كان اشد اتصالاً منه
 بالاديان والكتب السماوية ، والرحالة الذي جاب الآفاق ورأى العالم واحتك بمن
 كان اكثر منه تقدماً في الحضارة المادية والعقلية ، وتيسرت له فرص الاقتباس
 والتقاليد ، ثم هضم ما اقتبسه وقلده وتبناه وميز بين غثه وسمينه . وخبيثه وطيبه ،
 وفاسده وصحيحه .

وإذا كان من شيء زيده على هذا الاطوار التي احتوى هذه الصور العديدة
 التي نرجو أن تكون عبرت تعبيراً صادقاً أو مقارباً لما كانت عليه الحالة في عصر النبي
 (ص) وبيئته قبل البعثة فهو أنه كان مع ذلك هناك فكرتان في أفق هذه الصور
 تربطانها ببعضها بعض الربط ، وتجملان فيها شيئاً من وحدة الاتجاه ، وهما فكرة
 « الله » وفكرة الحج والاشهر الحرام وتقاليدهما اللتان كان ينتظم فيهما أكثر العرب
 حضراً وبدواً كما بيناه سابقاً ، واللتان كانتا مظهرين بارزين لتطور عربي خطير في
 الحياة الدينية والاجتماعية .

الفصل السابع

في اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما
وأثرهما في عصر النبي (ص) وبيئته

متناول الفصل - مدى انتشار اليهودية في عرب الحجاز - اليهودية في اليمن
أثر اليهود واليهودية في العرب - حجاج اليهود في إبراهيم (ص) وولده والكعبة
والقابلة ومداه - حجاجهم في المحرمات الطمائية ومداه - مدى ما جاء في القرآن في
صدد القضاء والشريعة اليهودية - عقيدة بنوة العزيز - عقيدة اليهود في مريم
والمسيح - صفات النبي (ص) عند اليهود - مخالقات اليهود للشريعة وتقصير علماءهم
واحبارهم - اقتباسات ومعارف العرب من اليهود - انتشار النصرانية في عرب
الحجاز - في عرب الشام والعراق واليمن - أثر النصرانية في الحجاز - عقيدة
الوهية المسيح وامه - عقيدة التثليث - معجزة ولادة عيسى - حكمة حكاية معجزة
ولادة يحيى - عقيدة الصلب - تعدد فرق النصارى وتطابق بعض الفرق مع التقريبات
القرآنية - استغلال الرهبان لطوائفهم - عدم رعاية الرهبنة - بحث في تعبير الروح
القدس - اقتباسات العرب ومعارفهم من النصارى - مفهوم التوراة والانجيل قبل
البعثة - ترجمة اسفار التوراة والانجيل للعربية .

- ١ -

في الفصل الثالث من الباب الاول بحثنا عن اليهود والنصارى الذين كانوا في
الحجاز ، واستعرضنا كثيراً من الآيات الواردة في صددهم . ودرسنا ما كان لهم من
مركز وما كانت عليه اخلاقهم ، وما كان لهم من تأثير في أهل بيئته النبي (ص)
وعصره . وكذلك أشرنا في فصول أخرى الى ما كان من تأثيرهم في معارف العرب
وافكارهم الدينية وغير الدينية ، وما يمكن ان يكون قد تسرب الى العرب منهم من
عادات وتقاليد ومقننات وافكار دينية وغير دينية أيضاً .

ونريد في هذا الفصل ان نكمل اقتباس الصورة القرآنية عن اليهودية والنصرانية، ونشير الى مدى انتشارها في عصر النبي (ص) وبيئته اولا، والى ما كان يدور من حجاج وتقاش حول الأفكار والعقائد اليهودية والنصرانية، وما يمكن ان يعرف من ذلك من مدى ما كان لها من اثر في اذهان العرب وافكارهم ومعارفهم ثانياً، ونستعرض الآيات التي لم نستعرضها والتي تساعد على اكمال الاقتباس وندرس دلالاتها ثالثاً.

- ٢ -

ولقد قررنا في الباب الاول ان وجود اليهود بكثرة في الحجاز وتعبير ادق في يثرب ومنطقتها يرجع الى مدة غير قصيرة قبل البعثة استدلالاً بما كان لهم من تمكن اجتماعي واقتصادي وزراعي وقرى وحصون وقوة، ومن اندماج وثيق بالحياة العربية نوهت به الآيات القرآنية تنويرها غير يسير، كما قررنا ان خطاب القرآن عنهم ببني اسرائيل يدل على انهم كانوا جوالي اجنبية نازحة.

ونقول الآن انه ليس في القرآن شيء صريح عن وجود عرب يهود، أو بكلمة أخرى عن انتشار اليهودية بين عرب الحجاز. وكل ما هناك آية تذكر ان من اليهود اميين :

«ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم ألا يظنون البقرة ٧٨
وقد كان تعبير الأميين يطلق على غير الاسرائيليين الذين يعدون أنفسهم
شعب الله المختار كما كان يطلق على العرب تبعاً لذلك كما تلهم الآيات التالية :

١ - ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم
قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ... آل عمران ٧٥

٢ - هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ... الجمعة ٣

فهل يمكن ان يقال إن الأميين في آية البقرة قد عني بها فريق متهود من
العرب، او عني بها الفريق الجاهل من يهود بني اسرائيل حيث تحتل الكلمة
هذا المعنى؟ ان سياق الآية اكثر الهاماً لهذا المعنى من ذاك كما يخلص منه لا سيما

والسياق في صدد اليهود الاسرائيليين ، ومع هذا ليس بعيداً جداً أن يكون قد عني به فريق متهود من العرب الذين لم يكونوا يعرفون لغة الكتب اللدنية العبرانية ، او لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة ، او الذين يغلب عليهم الجهل .

واذا تجاوزنا نطاق القرآن فان هناك روايات تذكر ان بعض عرب الحجاز وخاصة في يثرب قد تمهودوا ، وان صلات النسب قد توطدت بين الاسرائيليين والعرب فكان من العرب من له خوؤلة فيهم ؛ ومعلوم ان النبي (ص) قد تزوج يهودية من خيبر ؛ وان القرآن قد احل للمسلمين النزوج بالكتابيات اطلاقاً ؛ وقد يكون هذا عودة الى ما كان او امضاء لما كان ؛ كما ان من المحتمل أن تكون صلات النسب قد قامت بين اناس جمعت بينهم وحدة الدين اليهودي .

وعلى كل حال فمن السائغ أن يقال ان اليهودية قد انتشرت بعض الشيء في عرب الحجاز ؛ غير ان من الراجح جداً ان يكون هذا افرادياً وضيق النطاق ، ونكاد على مثل اليقين استلهاماً من خطاب الآيات القرآنية بأنه لم يكن في الحجاز قبائل عربية متهودة ، ونرى فيما ذكره بعض المؤلفين القديمين والحديثين بسبيل تقرير ذلك تجوزاً ومجازفة لا تستند الى راهن صحيح ؛ فالقرآن خاطب اليهود المعاصرين في الآيات المدنية بني اسرائيل وربط بين اخلاقهم واطرارهم وبين اخلاق واطوار بني اسرائيل القدماء من لدن موسى (ص) وما بعد ؛ والذين نكل بهم النبي (ص) واجلام كانوا من الجوالي الاسرائيلية حسب ما تلهم نصوص القرآن ، وكانوا يديشون في قرى ومحلات خاصة بهم ؛ ولم تذكر اية رواية معها كانت حسب اطلاعنا انه كان يهود متكثرون غير يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع في يثرب ويهود خيبر ووادي القرى والقرى القليلة الصغيرة الاخرى على طريق الشام ، والاحتكاك قد كان بين النبي (ص) وبين الاولين وهم الذين كان يوجه اليهم التنديد والخطاب القرآني بني اسرائيل ، وكانت صلات الدم والعادات واللغة والعصبية وثيقة بينهم وبين الآخرين .

هذا في الحجاز ، ولقد ذكر المفسرون ورواة السيرة في صدد تفسير آيات

سورة البروج :

«قتل أصحاب الأعداء . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون
بالأؤمنين شهود . وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . ٤-٨
ان احباراً من اليهود ذهبوا من يثرب الى اليمن ، وتمكنوا من تهويد ملكها
ذي نواس ، وحمله أهله مملكته على اعتناق اليهودية ، وانه كان في المملكة نصارى
وقفوا موقفاً عتيداً من هذه الحركة فأغرى اليهود بهم الملك ، فخذ أخذوداً طويلاً
او قد فيه النار وأمر باحراق كل نصراني لا يعتقد اليهودية ، وأن غزوة الاحباش
ليمن واستيلائهم عايبها انما كان باعثها المباشر اضطهاد نصارى اليمن .

فاذا صح هذا - لان الرواية في مداها تحتمل الكلام في مضامينها كما ان تفسير
الآيات بها تحتمل الكلام ايضاً (١) - فيكون اليهود قد نجحوا في نشر دينهم بمقياس
واسع في اليمن ، مع القيد ثانية انه ليس في القرآن ما يدل على هذا صراحة أو ضمناً .
وتنبه على ان كتب السيرة ، التاريخ القديمة لم تذكر انه أجلى يهود عن اليمن في
زمن عمر بن الخطاب (رض) حينما أجلى النصارى عنها تنفيذاً لوصية النبي (ص)
بأن لا يبق في جزيرة العرب دينان ؛ (٢) بل ان ابا عبيدة (رض) روى ان آخر
كلام قاله رسول الله (ص) (٣) هو وصيته أن أخرجوا اليهود من الحجاز واخرجوا
نصارى نجران اليمن من جزيرة العرب .

وهذا يدل على انه لم يكن في اليمن في اواخر عهد النبي (ص) يهود وانما كان
منهم بقية في الحجاز .

والظاهر ان الاحباش بعد ان غزوا اليمن وانتصروا عايبها وحكوها مدة غير
قصيرة وكانوا نصارى ، وكان العدا مستحكما بين اليهودية والنصرانية ، قد شردوا

(١) اقرأ تفسيرنا للآيات في التفسير القويم

(٢) الخازن . ح ٢ ص ٢١٢ وكتاب الأموال (ص) ٩٨

(٣) كتاب الأموال ص ٩٩

اليهود عن اليمن - اذا كانت رواية وجود يهود او اعتناق العرب اليهودية صحيحة ، او حملوهم على الارتداد عن اليهودية بالترغيب والترهيب ، وانه لم تمتد لليهود قائمة فيها ، او على الاقل لم يسبق لهم كيان محسوس فيها كالذي يمكن فرض وجوده قبل غزوتهم ، ثم ما لبثت هذه البقية غير المحسوسة أن انعمرت هي الأخرى في الإسلام وانقضى امرها .

ونحن نعرف انه يوجد اليوم في اليمن طائفة من اليهود ، وانهم يزعمون انهم احفاد اليهود من قبل البعثة . ولكن الذي نرجحه بل نعتقد ان الزعم غير صحيح وانما هو من الجهل والتبجح ، وانهم طرأوا على اليمن كما طرأوا على غيرها من بلاد الشرق من الأندلس بعد انهيار الدولة العربية فيها .

واذا كان الأمر كذلك بالنسبة لليهودية في اليمن فمن باب اولى ان يكون كذلك في أنحاء الجزيرة العربية الأخرى ، او بالأحرى ان لا يكون جوال يهودية وان لا يكون يهودية عربية فيها .

— ٤ —

وعدم انتشار الديانة اليهودية في بيئة النبي (ص) قبل البعثة بنطاق واسع لا يعني أن العرب كانوا في عزلة عن تأثيرها ، فنحن نعتقد انهم تأثروا بها الى حد كبير ، سواء في تطور الفكرة الدينية وخاصة في فكرة « الله » ، سواء في تقاليد اتساب العرب بالابوة الى اسماعيل و ابراهيم (ص) وما تبعها من تقاليد متنوعة أخرى ، سواء في ما كان عندهم من معارف ومعلومات وأفكار لها صبغة دينية مثل انباء الانبياء والرسول (ص) وقصصهم مع اجمعهم ، واخبار الملائكة واصلتهم بالله وقصة آدم و ابايس ومثل الوقوف على ما كان لهم من آراء ومذاهب ، وما كان عندهم من كتب ومناصب دينية ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وما كان في كتبهم من صفات وتقاليدهم من بشارات ببعثة نبي من العرب ، سواء في الطقوس والعادات المتنوعة (١)

(١) في تفسير الخازن . ح ١ ص ١٠٣ رواية عن ابن عباس ان اهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ويرون لهم فضلا عابهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم .

كالختان والتطهر من الجنابة واعتزال النساء في الحيض وفكرة اجتماعات يوم العروبة - وهو يوم الجمعة - وغير ذلك مما اشرنا الى بعضه في الفصول السابقة في مناسبات متعددة ؛ هذا بالإضافة الى ما كان لهم من المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي وما كان لهم بسبب ذلك من أثر في حياة العرب مما اشرنا اليه في ما سبق ايضاً .

- ٥ -

وفي القرآن آيات متصلة باليهود جاءت في صدد ما كان يقع بين النبي (ص) وبينهم من حجاج وجدل ، ويمكن ان تلهم اموراً عديدة عما كان عليه الامر قبل البعثة .

منها ما جاء في صدد الحجاج في ابراهيم (ص) وملته ، ودعوى اليهود بأولويتهم به وبكون ملتهم هي ماته ، وكذلك ما جاء في صدد الكعبة وقدمها ونضائها وعلاقتها ابراهيم واسماعيل بها تنديداً بمواقف بسهم وانسكارهم ؛ وهي آيات البقرة ١٢٥ - ١٤٠ التي نقلنا بعضها في الآيات ١٣٠ - ١٤٠ في الفصل السابق وببعضها في الآيات ١٢٠ - ١٣١ في فصل الحج ، وآيات آل عمران ٦٥ - ٦٨ التي نقلناها كذلك في الفصل السابق ؛ ومنها آيات آل عمران ٩٦ - ٩٧ وآيات سورة الحج ٢٦ - ٢٧ التي نقلناها في فصل الحج وآية سورة الحج التي نقلناها في الفصل السابق .
فهذه الآيات تقرر وتذكر :

١ - صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة وبنائها وبالبلد الحرام ودعوتها لله بان يجعله آمناً ميسر الرزق .

٢ - أوامير الكعبة كبيت الله وفرض حجه من استطاع اليه سبيلاً من الناس وصلة ابراهيم (ص) بأوامير الحج ومناسكها .

٣ - صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالعرب وابوتهم لهم ، ودعوتها لله بان يجعل ذريتهما - والقرينة في آيات البقرة ١٢٨ - ١٢٩ تصرف المعنى الى العرب - مسلمين وان يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

٤ - وصية ابراهيم ويعقوب (ص) لبنيتهم بإقامة الدين لله وحده والاعتماد له ،

وان هذا هو ما كان عليه ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وموسى وعيسى النبيون الآخرون (ص).

هـ — بطلان دعوى اليهود بأن ابراهيم (ص) كان على ملتهم ، وتقرير انه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وانما كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وان أولى الناس به ايسوا من يتسبون اليه بالبنوة اطلاقاً وانما الذين اتبعوه ، وان عهد الله لابراهيم (ص) لا يناله الظالمون المنحرفون من ذريته وبالتالي ان بنوة اليهود لابراهيم (ص) لا تبرر لهم دعوى الاءلوية به لانهم المنحرفوا عن ملته .
ومن سياق آيات البقرة وآل عمران يستدل على ان هذه التقريرات فيها انما كانت بسبيل الرد على دعاوي اليهود وحجاجهم وجدلهم ومكابرتهم .

والذي نرجحه أن دعاوي اليهود هذه كانت تصدر منهم قبل البعثة ايضاً على سبيل الزهو والافتخار على العرب من جهة وتوطيد المر كزهم الممتاز بينهم من جهة ثانية ، وانهم حينما رأوا النبي (ص) قد أخذ يشتم امره بعد الهجرة شعروا بالخطر يحدق بهذا المر كز فعمدوا إلى الحجاج واللجاج والنقاش ، وتقتض دعواهم التي كانوا يستفتحون بها على العرب مما نددت بهم آيات البقرة ٨٧-٨٩ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وبما يؤيد ما ذكرناه من صدور هذه الدناري منهم قبل البعثة ؛ فكانت هذه الردود والتقريرات القرآنية حاسمة في وضع الأمر في نصابه وسد الباب أمامهم . وفي هذا كله صور تمت إلى اليهود واليهودية بسبب كما هو ظاهر .

كذلك نرجح أنه كان يقع بين العرب واليهود نقاش حول ابوة ابراهيم (ص) للعرب واليهود ، وحول صلة ابراهيم واسماعيل (ص) بالكعبة والحج وتقاليده ، وأن اليهود كانوا يزعمون على العرب بأن الانبياء جميعهم إنما كانوا من نسل ابيهم اسحاق (ص) ، وانهم استمروا بعد الهجرة في زهوهم وجدلهم هذا فكانت هذه التقريرات القرآنية ايضاً في تثبيت ابوة ابراهيم واسماعيل (ص) للعرب ، وفي تثبيت صلتها بالكعبة وبنائها ووقدها وفضائها ، وفي تثبيت صلة ابراهيم (ص) بالحج ومناسكه مما كان يقول به العرب ، ويتناقلونه جيلاً بعد جيل ، ثم في تثبيت دعوة ابراهيم واسماعيل (ص)

بان يبعث الله من العرب نبياً يعلمهم الكتاب والحكمة، واستجابة الله لدعوتها وارسله
محمد - آ (ص) . ولقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو
العزیز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . مثل الذين
حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا
بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ... »

وفيها تثبتت بأسلوب آخر لبعثة الرسول الامي العربي ، وتقرير بعدم الحرج على
الله في إيتائه فضله إن يشاء ، وتشديد باليهود لأنهم يتجاهلون ما في التوراة من
بشارات ومبديء . مما يدل على ان اليهود استمروا في دعواهم بأن النبوات محصورة
فيهم ، وانكروا نبوة النبي الامي العربي (ص) مع ما في هذا من مكابرة ونقض لما
كانوا يقولون ويستفتحون به على العرب وتجاهل لما عرفوه . وكل هذا متصل بما
نحن بسبيل تقريره كما هو ظاهر .

ونحب ان نلفت النظر الى أن آيات آل عمران ٩٦-٩٧ لنقول اننا نرجح
استلهاها من سياقها ومضمونها انها نزلت في صدد حجج اليهود حول القبلة ،
واتجاه النبي (ص) الى الكعبة بعد اتجاهه الى المسجد الاقصى . فلقد أمم بتدليل
القبلة اليهود كثيراً ، ورأوا فيه خطراً آخر على مركزهم ، وتقويضاً لزهوهم
ودعوايهم ، فجادلوا به وشككوا ودسوا وساءوا كما جاء أشارات الى ذلك في سلسلة
من الآيات في سورة البقرة ، واخذوا يفاضلون بين الكعبة والمسجد الاقصى
فنزات آيات آل عمران هذه لتقرر افضلية الكعبة واوليتها واولويتها .

اما السلسلة المذكورة فهذا ماله صلة بحجاج اليهود منها :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق
والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها
الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله

وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤف رحيم ، قد نرى نقاب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . وإن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض وإن اتبعتم أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تسكونن من الممتريين . البقرة ١٤٣-١٤٧ ولقد سبقت هذه السلسلة بالآيات ١٣٥-١٤٠ التي نعتقد انها متصلة بها ، وانها نزلت كقائمة تشبئية لفضل الكعبة وصلاتها بإبراهيم واسماعيل (ص) .

وإذا كانت هذه الآيات جميعها تشير إلى ما كان من اليهود من موقف اللبس والاعتراض والتشكيك في صدد تحويل القبلة فاننا نرجح ان يكون قد وقع بينهم وبين العرب قبل البعثة جدل وحجاج ومفاضلة بين الكعبة والمسجد الاقصى ، لأن العرب كانوا يعتبرون الكعبة بيت الله العتيق ، وكانت مكاتها عندهم عظيمة ؛ ومن تمام زهو اليهود أن يفخروا بان مسجدهم في بيت المقدس أفضل من كعبة العرب . ومما هو جدير بلفت النظر في صدد البحث الذي نحن فيه فقرتان في سلسلة الآيات ١٤٢-١٤٧ وهما :

١ — وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ...

٣ — والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم

ليكتمون الحق وهم يعلمون .

فهاتان الفقرتان تلهمان بقوة أن اليهود لم يكونوا في غفلة عن شأن الكعبة وفضائها ، وانهم كانوا يعرفون ويعترفون بذلك فاستحقوا التنديد القرآني الشديد حينما ناقضوا أنفسهم ، وانكروا ما عرفوا في ظرف تبديل سمت القبلة . والراجح ان هذه المعرفة والاعتراف قد كان منهم قبل الهجرة بل وقبل البعثة ، لان هذا التبديل قد وقع في اوائل الهجرة ، وان العرب المسلمين والمحتكين باليهود منهم قد عرفوا هذا وسمعوه منهم . وواضح ان هذا ينطوي على ما كان لليهودية من اثر في

تقاليد العرب الدينية او تدعيمها وتثبيتهم فيها . وائس من تناقض بين اعترافهم بشأن الكعبة وفضلها مع تفضيلهم المسجد الاقصى على سبيل الزهو كما هو واضح .

- ٦ -

ومنها ما جاء في صدد ما وقع بين النبي (ص) وبين اليهود من جدل في المحرمات الطعامية، فقد ورد في سورة آل عمران الآيات التالية :

«كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل إلا حرم ما اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاوائك هم الظالمون ... آل عمران ٩٣ - ٩٤

والذي يستلهم من هذه الآيات ان اليهود كانوا يدعون ان ما حرم عليهم قد حرم من قبله على اسرائيل - وهذا الاسم كان يطلق على يعقوب (ص) - وان هذا التحريم يرجع الى ملة ابراهيم (ص) ، وانه وقع بين النبي (ص) وبينهم مناظرة في هذه الامر فنزلت الآيات لبيان الحقيقة، وقد تحدثهم بالآيات بالتوراة وتلاوتها في مجلس المناظرة إذا كانوا صادقين في دعواهم ؛ مما يدل على انهم كانوا في موقفهم مكابرين ومغالطين .

ولقد احتوت سورتنا الانعام والنحل المكيان آيات في صدد المحرمات الطعامية، وجاءت آيات الانعام عقب سلسلة التنديد بمشركي العرب وتفاشهم بسبب تحريمهم وتحاييلهم الكيفي ، وجاءت آيات النحل في سياق أمر المسلمين بعدم التحريم والتحايل الكيفي واتباع ما حرم الله والاكل مما رزقهم حلالاً طيباً كما ترى :

١ - قل لا اجد في ما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة او دماً مسفوحاً او لحم خنزير فإنه رجس او فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها او الخوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون (١) ... الانعام ١٤٥ - ١٤٦

(١) السلسلة التي تقدمت هذه الآيات هي الآيات ١٣٥ - ١٤٤ وقد نقلناها

في الباب الاول .

٣ - فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون .
انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم . ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ... النحل ١١٤-١٤٨

ومعلوم ان التوراة قد حرمت اكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وذوات الانظار وغير ذلك ، فلما نددت آيات الانعام ١٣٥ - ١٤٤ بمشركي العرب على تحريمهم وتحليلهم الكيفيين وصبغها بصبغة دينية احتجوا على ما تليهم آيات الانعام بما كان عند اليهود من تحليل وتحريم فردت عليهم الآيات ١٤٥ - ١٤٦ ان المحرم العام هو الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به ، وان ما حرم على اليهود دون ذلك انما حرم عقاباً على بغيهم وليس لكونه رجساً او فسقاً . ويظهر ان هذا الموضوع ثار ثانية بين المساميين في العهد المكي نتيجة لاعتراض المشتركين او بسائق ما كان مستقراً في العرب من تقاليد قديمة فاقتضت الحكمة نزول آيات النحل تؤكد انه ليس من محرم الا المحرمات الاربعة التي هي رجس وفسق ، وان ما عداها مما حرم على اليهود انما كان بسبب ظلمهم وليس هو من هذا الباب . وواضح من هذا ان العرب قبل البعثة كانوا على علم بالمحرمات اليهودية ، ويبدو انهم برروا بذلك لانفسهم ما كانوا يحرمون ويحلمون ؛ وفي ذلك من اثر اليهود واليهودية في تقاليد العرب الدينية ما هو ظاهر .



ومنها ما جاء في صدد القضاء والشرائع اليهودية كما ترى في الآيات التالية :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمناً فواهمهم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً اولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم

لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم . سماعون للكذب أكلون للدمية
فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت
فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكونك وعندهم التوراة فيها
حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى
ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا
من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً
قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح
قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ...
المائدة ٤١-٤٥

ونفى الآيات بدل على ان اليهود كانوا أشموا بعض أحكام شريعتهم، وارسلوا
بعضهم الى النبي (ص) ليتحاكموا عنده في قضية من القضايا آمين ان يحكم بما يوافق
هو اعم . لذلك حملت عليهم الآيات مستغربة كيف يحكونه ولا يحكون التوراة التي
عندهم والتي أنزلها الله فيها نور وهدى وكان يحكم بها النبيون ؛ ثم ذكرت أحكام
التوراة في الدماء والجروح وانها هي التي يجب ان يقضى فيهم وفقاً لها .

وقد روى ابن هشام والمفسرون (١) ان الآيات نزلت في صدد قضية زان
وزانية يهوديين وأن النبي (ص) أراد ان يحكم فيها بالرجم طبقاً لحكم التوراة فانكر
اليهود ذلك فأمرهم باحضار التوراة واستعان بحبر يهودي أسلم على اثبات صحة الحكم،
وورد أحكام القصاص فقط في سياق الآيات لايساعد على التسليم بهذه الرواية
كسبب للنزول . وعلى كل حال فان الآيات تلهم أن اليهود كانوا مرجعاً من مراجع
العرب قبل الاسلام في قضاياهم ومشاكلهم ، وانه كان لهم تأثير فيهم سلباً وإيجاباً
بسبب ما كان عندهم من علم وشرائع سماوية وعلماء واحبار . وهذا متصل بالبحث
الذي نحن فيه . كذلك فان فيها (١) إلهاماً بأن الاحبار والربانيين هم الذين كانوا
يتولون القضاء في اليهود على اعتبار أنهم حفظة الشريعة التوراتية ، وعلى كون
(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٥٧-١٥٨ وجل المفسرين في تفسير الآيات السابقة.

أساس القضاء هو هذه الشريعة (٢) صورة من الصور اليهودية في صدد الشريعة، وما كان من اهل بعض أحكامها والتحايل عليها من قبل علماء اليهود واحبارهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

وهذه الصورة الأخيرة واضحة عنهم في آيات أخرى حيث يشمل مداها لنصوص التوراة عامة، وحيث تلهم أن هذا كان امرهم قبل البعثة ايضاً :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون . . . البقرة ٧٩
٢ — وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . . . آل عمران ٧٨

٣ — واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتموه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم . . . آل عمران ١٨٧—١٨٨

والآيات تعالج هذا منهم بالرغبة في المنافع الدنيوية والزهو والفخر على غيرهم، وبالتالي بقصد استغلالهم الدين .



ومنها ماجاء في صدد عقيدة اليهود ببنة العزيز لله كما ترى في هذه الآية :
«وقالت اليهود عزيز ابن الله . . . التوبة ٣٠»

والآية تدل على ان هذه العقيدة كانت مما يقول بها اليهود أو بعض فرقهم في عصر النبي (ص) وبيئته .

ومنها ماجاء في صدد قذفهم السيدة مريم ودعواهم قتل المسيح (ص) كما ترى في هذه الآيات :

«فما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عاينها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وكفروهم وقولهم على مريم

بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما
صابوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع
الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه
النساء ١٥٥-١٥٨

والآيات تدل على ان اليهود في عصر النبي (ص) وبيئته كانوا يجبرون بقذف
السيدة مريم بالبهتان ، ويتبجحون بقتلهم المسيح (ص) ؛ وهذا متصل بعقائدهم التي
سبقت البعثة كما هو واضح .

— ٩ —

ومنها ما جاء في صدد صفات النبي (ص) في التوراة والانجيل كما ترى في الآية
المكية التالية .

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة
والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم
الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم الاعراف ١٥٧
ولقد جاء في آيات عديدة اشارة الى ان من اليهود من آمن بالله والنبي (ص)
والقرآن كما ترى في مايلي :

١ — وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم
خاشعين لله آل عمران ١٩٩

٢ — لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل
من قبلك النساء ١٦٢

٣ — اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل الشعراء ١٩٧

٤ — قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني
اسرائيل على مثله الاحقاف ١٠

وآية الاعراف كانت تتلى على مسمع اليهود والنصارى كسائر آيات القرآن طبعاً .
فيصح أن يقال بجزم ان في التوراة التي كانت في ايدي اليهود في عصر النبي (ص)
وبيئته صفات لني يبعث لأصلاح ما يكونون عليه من الحراف ، وتخفيف ما عليهم
من تكاليف منطبقة على النبي (ص) صراحة أو تلميحاً ، وان الذين آمنوا بالنبي

(ص) قد رأوا في الرسالة المحمدية صدقاً وتصديقاً للكتب السابقة وأهدافاً لإصلاحية سامية وأنهم عرفوا أن صفاته منطبقة على ما في أسفارهم من صفات النبي المبشر به أيضاً .
 أما عدم إيمان الذين كفروا منهم فقد كان كما تدل عليه نصوص القرآن الكثيرة التي نقلناها في هذا الفصل وغيره وخاصة في الفصل الثالث من الباب الأول لأسباب كثيرة أخرى مثل الحسد والحقد والاستكبار والاستمساك بالمركز المهدود والمصالح الخاصة ، والجبلية المتمسكة والأنايية العنصرية الخ الخ مما المعنا إليه في المناسبات السابقة .

ولعل فقرة « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » التي وردت في آية البقرة ٨٩ التي نقلناها في الفصل المذكور وفي مناسبات أخرى دليل حاسم على أن اليهود كانوا يتربون بمثله نبي عربي ويذكرون صفاته التي يجدونها مكتوبة عندهم ويستفتحون على العرب بأنه سيكون من حزبهم ...

— ١ —

ومنها ما جاء في صدد مخالفاتهم للشريعة التوراتية وتقصير احبارهم وعلمائهم في واجباتهم الدينية وسوء استعماطهم واستغلالهم لمناصبهم وخلافاتهم :
 فالولاء انهم قد حرم عليهم الربا فاكلوه كما جاء في الآية التالية :

« واخذهم الربا وقد نهوا عنه ... النساء ١٦١

وثانياً — انهم قد حرم عليهم قتال بعضهم فخالفوا ذلك كما جاء في الآية التالية :
 « واذا اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون . ثم اتم هؤلاء نقولون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ... البقرة ٨٥

وثالثاً ان علمائهم كانوا ينسبون الى الله ما ليست نسبته صادقة بقصد التدياس والاستغلال كما جاء في الآيات التالية :

١ — فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ايشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ... البقرة ٧٩

٢ — وإن منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ...

آل عمران ٧٨

ورابعاً انهم كانوا يكتُمون الحق الذي يعرفونه لنفس القصد ايضاً كما ترى في الآيات التالية :

١ — الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ...

البقرة ١٤٦

٢ — واذا اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه فنبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبأس ما يشترون ...

آل عمران ١٨٧

وخامساً ان احبارهم وربانيهم كانوا يرون ارتكاس ابناء طائفتهم في الآثام فيتفاوضون عن وعظمتهم ونهيهم كما ترى في الآيات التالية :

« وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان واكلمهم السحت لبأس ما كانوا يعملون . لولا (١) ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الأثم وأكلمهم السحت لبأس ما كانوا يصنعون .

المائدة ٦٢ — ٦٣

وسادساً ان كثيراً من احبارهم كانوا يستغلون طاعة عامتهم لهم طاعة عمياء فيجتنون من وراء ذلك الاموال الطائلة . حتى انهم استغلوا نفوذهم في صد الناس عن الدعوة النبوية كما ترى في الآيات التالية :

١ — اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله ...

التوبة ٣١

٢ — يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان لياً كلون اموال

الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ...

التوبة ٣٤

وسابعاً انه كان بينهم اختلافات في فهم نصوص التوراة جعلتهم فرقاً واحزاباً

وكان لاهوى اثر في هذه الظاهرة كما ترى في الآيات التالية :

(١) لولا : هنا وفي كثير من الآيات بمعنى هلا

١ — وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم
آل عمران ١٩

٢ — إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.
النمل ٧٦

٣ — ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . . . فصات ٤٥

٤ — وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من
ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم افي شك
منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله
من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة
بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير . . . الشورى ١٤ - ١٥

٥ — ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من العاليات
وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم
العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . . .
الجماعية ١٦ - ١٧

والآيات التي اوردناها آنفاً وان كانت قد نزلت بعد البعثة وفي صدد وظروف
الدعوة فانها كما تلهم روحها ومضامينها تصور في الحقيقة ما كان عليه اليهود من أمر
قبل البعثة ، وان مابدا منهم في صدد وظروف الدعوة مما كان سبباً لنزول الآيات
انما كان استمراراً لما سبق .

— ١١ —

هذا ، وبالإضافة الى ما تقدم نقول : انه لا شك في ان العرب كانوا قد عرفوا
عن طريق اليهود كثيراً من القصص التوراتية واخبار انبياء أسفار التوراة وأعمهم
ومعجزاتهم ، وان هذا كان ذا أثر كبير في زيادة معارفهم وثقافتهم الفكرية
والدينية والديوية بصورة عامة . فكثير من القصص التوراتية قد أشير اليها في القرآن
مكرراً في معرض التنديد بالعرب وتذكيرهم ومخاطبتهم وهذا يلهم ما قلناه لأن
الحجة تستحکم في من يعرف هذه القصص ويعترف بها ، هذا عدا ان أسلوبها

يلهم انها تتلى على اناس غير غافلين عنها ؛ ولقد كان من اثر ذلك ان كانت هذه المعارف وسيلة من وسائل جدلهم وحيجاجهم مع النبي (ص) وطلبهم منه الاثبات بالمعجزات كما آتى الرسل السابقون كما حكته آية القصص :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا آوتى مثل ما آوتى موسى ٠٠٠ ٤٨

وآية الانبياء : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ٠٠٠ ٥

كما كانت باعثة لتمنيهم بعثة نذير فيهم ليكونوا الهدى من الامم التي سبقتهم مما حكته آية فاطر (٤٣) ، وكل هذا لا يتأتى الا عن معرفة باخبار الاولين واحوال الحاضرين بطبيعة الحال .

كذلك فان القرآن قد استشهد اكثر من مرة في معرض الحجاج مع العرب ودعوتهم والتنديد بهم بأهل الذكر والكتاب الذين يدخل اليهود فيهم وبالكتب السماوية وبصحف موسى وبالاسرائيليين وعلمائهم نصاً مما نقلنا كثيراً من آياته في الفصل الثالث من الباب الاول وفي هذا الفصل مثل آيات الانعام ١١٤ ويونس ٩٤ والنحل ٤٣ والشعراء ١٩٧ والمنكوت ٤٧ وسبأ ٦ والاحقاف ١٠ والقصص ٥٢ - ٥٥ والرعد ٣٦ ومثل الآيات التالية :

١ - وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى .
طاها ١٣٣

٢ - أم لم ينبا بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وافي ٠٠٠ .
النجم ٣٦ - ٣٧

٣ - إن هذا لفي الصحف الاولى . صحف ابراهيم وموسى ٠٠٠ .
الاعلى ١٨ - ١٩

والحجة في كل هذا لا تستحكم إلا اذا كان العرب والناهبون ممن يسمعون القرآن ملهمين بما عند اليهود من كتب واخبار ومعارف ، وواثقين فيهم ومتأثرين بهم قليلا او كثيراً كما هو المتبادر .

- ١٢ -

أما النصرانية فقد وصلنا في الاستللال في الفصل الثالث من الباب الاول

الى القول بوجود جالية اعجمية نصرانية في مكة ، وباحتمال وجود جالية اعجمية نصرانية في يثرب ايضاً وبترجيح وجود عرب متنصرين مستقرين في بيثة النبي (ص) وعصره ايضاً .

ونقول هنا ان الذي نرجحه ان مدى انتشار النصرانية في عرب الحجاز كان ضيقاً وانه لم يكن ليتجاوز الحوادث الفردية ؛ وذلك استلهاماً من عدم وجود صدى قوى لاحتكاك النبي (ص) بالنصارى في القرآن الكريم ، لا في الآيات المكية ولا في الآيات المدنية كما هو الامر بالنسبة إلى اليهود في يثرب ؛ فلو كان للنصرانية بوجه عام وللنصرانية العربية بوجه خاص كيان قوى ونطاق واسع في بيثة النبي (ص) لكان القرآن قد ردد صدى ذلك ، ولكانت حدثت حوادث كثيرة متنوعة تتناقضها الروايات ويصل اليها منها ما يمكن ان يدل عليها .

- ١٣ -

اما في غير الحجاز فانه وان لم يكن في القرآن شيء صريح ايضاً عن مدى انتشارها بين العرب فان فيه اشارات عديدة تكاد تجمع الروايات على انها في صدد اجتماعات وقعت بين النبي (ص) ووفود نصرانية عربية يمانية وشامية ؛ وفي هذه الاشارات ما يلهم صحة ذلك ؛ لانه منها ما حكي من تأثير السامعين بالقرآن إلى حد فيضان عيونهم بالدموع مما يحمل على القول أنهم كانوا يفهمون العبارة القرآنية فهماً وافياً ، وهذا لا يحتمل إلا من العرب على ما هو المتبادر . وطبيعي ان وفادة وفود للاتصال والاستطلاع والمناظرة لا بد من ان يكون وراءها كتل اضطرت فيها الافكار والاخبار . وفيه كذلك أمر بقتال الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من أهل الكتاب اعقبه بعد آيات استطرادية قليلة استنفار لغزوة بعيدة الشقة أجمعت الروايات على انها غزوة تبوك ، وانها كانت ضد القبائل العربية التي يدين كثير منها بالنصرانية في مشارف الشام والتي كانت تعتدى على القوافل والسابلة آنأ بعد آن . فهذه الاشارات القرآنية المفسرة بالروايات غير المتناقضة مع مضمونها توسع القول بان النصرانية كانت منتشرة بنطاق واسع بين عرب مشارف الشام ، وانها كانت

منتشرة في كتلة غير ضئيلة من عرب اليمن ايضاً (١) . والروايات المعتبرة المتصلة بالمشاهدات التي هي درجة اليقين تؤيد ذلك من جهة وتؤيد انتشارها كذلك في مدن وقرى وبادي الشام والعراق وبين النهرين من جهة اخرى . اما الاشارات القرآنية التي نوهنا بها فهي :

آيات الاسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٥ والاعراف ١٥٧ ومريم ١٦-٣٧ والتوبة ٣٥ والنساء ١٧١-١٧٢ والمائدة ٧٢-٧٩ و ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وفي سلسلة طويلة من سورة آل عمران التي اجمع الرواة على انها في حدد المناظرة التي وقعت بين وفد نجران ، وفي آيات من سورة التوبة . واليك سلسلة آل عمران :

« إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كل ما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنئي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين . قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً وأدكرك بكثيراً وسبح بالعشي والإبكار . وإذا قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على

(١) ذكر القاسم بن سلام في سلام الاموال ان نصارى نجران اليمن هم عرب من بني الحرث بن كعب . وذكر ابن هشام أنه كان من رؤساء وفد نجران ابو حارثة بن عاتمة احد بني بكر وائل وكان اسقفهم وحبهم وامامهم ، وكانوا ستين شخصاً ومن اسمائهم التي اوردها والمتبادر انهم من البارزين أوس والحرث وزيد وقيس وزيد ونبيه وخويله وعمرو وخالد وعبد الله وعبد المسيح ج ٢ ص ١٦٥-١٧٦ وهي اسماء عربية خالصة .

نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من انباء
 الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم اُيهمم يكفل مريم وما كنت
 لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح
 عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد
 وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك
 الله يخلق ما يشاء إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعامه الكتاب والحكمة
 والتوراة والانجيل . ورسولا الى بني اسرائيل اُني قد جئتكم بأية من ربكم انى
 أخاق لكم من الطين كهنية الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرى الاءكهم
 والابرس وأحبي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في
 ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة والانجيل . لكم بعض
 الذى حرم عليكم وجئتكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم
 فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله
 قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت
 واتبنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .
 إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل
 الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم بما
 كنتم فيه تختلفون . فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة
 وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم والله
 لا يحب الظالمين . ذلك نتاوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى
 عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن
 من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم
 ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا هو
 القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله هو العزيز الحكيم . فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين .
 قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا نتخذ
 بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . ٣٥ - ٦٤

واليك آيات سورة التوبة .

١ — قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يملأوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . .

٢ — يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأخبار والرهبان لياً كلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . .

٣ — يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم اتفروا في سبيل الله إناقاتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . . .

٤ — اتفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عرضاً قريباً وسفراً قادماً^(١) لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة . . .

٥ — لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساسة العسرة^(٢) من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم . . .

— ١٤ —

وإذا كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي (ص) الخاصة ضيقاً فإن هذا لا يعني ان تأثيرها كان ضعيفاً فيها . فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدراً من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز والتي استدلنا عليها من آيات عديدة اوردناها في الفصول السابقة لاسيما فكرة الله وفكرة اتحاد الله بنين وبنات والملائكة واعتبار كونهم بنات الله ، ولعل فكرة الشفاعة والشفعاء واتخاذ

(١) فيها إشارة الى أن الاستنفار لغزوة بعيدة شاقة وهي غزوة تبوك بأجماع المفسرين والتي كانت أشد واعظم الغزوات النبوية جهداً وعدد محاربين ومدة غياب .
(٢) سمي جيش تبوك بجيش العسرة اقتباساً من هذا التعبير القرآني لشدة الظرف .

الملائكة شفعاء هي في أصلها مما اقتبسها العرب من النصرانية وشفاعة قديسيها .
وفي آيات سورة الزخرف ٥٧-٦٥ التي أوردناها في فصل الملائكة وشرحنا
جدل العرب الطريف عن اتخاذهم الملائكة آلهة واعتبار أنفسهم في هذا الهدى سبيلا
من النصراني باتخاذهم عيسى (ص) آلهاً ، وفي آيات الأنعام (١٥-١٥٧) التي
تقلناها في فصل إعراف العرب بالله وفي آية فاطر (٤٣) التي حكمت نذر العرب
باتباع النذير الذي يحييهم وقولهم إنهم سيكونون به اهدى من احدى الأمم ، وفي الآيات
العديدة المكية التي تذكر ما كان من خلاف ونزاع وانقسام بين الأحزاب والفرق
النصرانية مما أوردناه في هذا الفصل والفصول السابقة دلائل على ما كان عند عرب
الحجاز وعرب مكة خاصة من المام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وأشكالها
ولادة المسيح (ص) ونبوته وصلبه ، وما كان فيها من مذاهب وآراء . وطبيعي أن
يكون لهذا كله رد فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقائدهم . هذا بالإضافة
الى ما ذكرناه قبل قليل في بحث اليهود في صدد استشهاد اهل الكتاب وما أوردناه
من آيات في ذلك ، حيث يشمل هذا النصراني والنصرانية كما يشمل اليهود واليهودية ،
وحيث يدل على ما كان من ثقة العرب السامعين بالنصراني ومعارفهم كما هو الامر
بالنسبة لليهود مما يستتبع التأثير بهم بطبيعة الحال .

وإذا أريد أن يقال انه لم يكن في بيثة النبي (ص) الخاصة من النصراني ما يمكن
أن يكون لهم تأثير بالغ في العرب كالذي يمكن ان يكون لليهود بسبب كثرتهم
فينبغي ان لا ننسى أنه كان في مكة من النصراني الذين هم مظنة علم وتعميم على ما
اشرنا اليه في مناسبات سابقة ما يكفي لتأثير ناهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي
(ص) والذين حكى القرآن على الاغلب موافقهم واقوالهم ، والذين كانوا على الارجح
مصدر الافكار وبثها في الطبقات الاخرى من العرب ، وأن مشركي مكة ذهبوا فيما
ذهبوا اليه إلى أن النبي (ص) نفسه قد تعلم وتأثر بهم على ما حكته عنهم آيات النحل
والفرقان (١٠٣ و١٠٤) ؛ وأن لا ننسى كذلك تلك الالوف المؤلفة من متنصرة العرب الذين
كان الحجازيون خاصة يمدون ويروحون اليهم في اسفارهم ورحلاتهم ، ويخالطونهم
مخالطة الشقيق ، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك ، وان لا ننسى ايضاً ان

كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج وابواقه ، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة ؛ وان الصلات والتقاليد القبيلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء واجداد جمعاً وثيقاً تتصل اواصره وتستمر مظاهره ، وانه كان كثير من العرب غير النصراري وخاصة الحجازيين يصهرون الى العرب النصراري وبالعكس فتزداد هذه الاواصر والمظاهر قوة ولحمة ، وان كل هذا من شأنه ان يهيء العرب الحجاز الفرض الكثيرة الوافية للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر .

- ١٤ -

هذا ؛ وفي القرآن آيات كثيرة حول النصراري والعقائد النصرانية يمكن ان يستدل بها على أمور عديدة مما كان عليه النصراري من عقائد وعادات وافكار في عصر النبي (ص) وبيئته وفي غير بيئته ممن كان يتصل بهم أهل بيئته ويحتمل ان يكونوا قد عرفوه عنهم .

فالآن النصراري او بعض فرقيهم كانوا يؤلهون مريم كما يستلهم من الآيات التالية .

١ - ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه حديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر اني يؤفكون ... المائدة ٧٥

٢ - وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من

دون الله ... المائدة ١١٦

وثانياً ان النصراري كانوا يقولون إن المسيح هو الله وإن آلهة ثلاثة وإن الله ثالث

ثلاثة كما يستلهم من الآيات التالية :

١ - يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح

عيسى بن مريم رسول الله وكتبه ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة إنتموا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ...

النساء ١٧١

٢ - لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ... المائدة ١٧

٣ - لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ...

المائدة ٧٣

وثالثاً أن أهم ما كانوا يستندون إليه في تقرير الوهية عيسى (ص) أو صفته اللاهوتية هو معجزة ولادته بدون أب . وهذا مستلهم من اهتمام القرآن أوبالاحرى حتمس اهتمامه لتفنيد استنتاج تلك النتيجة من هذه المعجزة ؛ ويتجلى هذا في الاسباب الوارد حول هذا الامر في سورة مريم المكية وسورة آل عمران المدنية في صدد مناظرتهم ووضع الامر في نصابه . وقد أوردنا في الفصل الثالث من الباب الاول آيات سورة مريم .

ورابعاً إن معجزة ولادة يحيى (ص) بعد شيخوخة ابيه (ص) وعقم امه كان مما يعترف به النصارى حيث جاء ذكرها في القرآن مكرورة وبمثابة حجة وتدعيم لا يمكن معجزة ولادة المسيح (ص) دون ان يترتب على ذلك دفة الوهية له كما هو شأن يحيى (ص) . وهذا يستلهم من سلسلة آل عمران التي جاءت فيها قصه ولادة يحيى بمثابة مقدمة وتمهيد لقصة ولادة عيسى (ص) ، وجاءت كذلك في سورة مريم كما ترى في ما يلي .

« كهيمص (١) ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال ربا أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم نك شيئاً . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . نخرج على قومك من المجراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً . وادكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فأنجيات من دونهم حجاباً فأرسلنا اليا ررسنا نتمثلنا بآخرها

(١) تقرأ هكذا : كاف ها يا عين صاد اي بأسماء الاء حرف .

سويا . قالت إني اعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إيماننا رسول ربك لا هب لك غلاماً زكياً ...

سورة مريم ١ - ١٩
ومما يجدر التنبيه عليه ان في كلتا السلسلتين ذكر عيسى (ص) فقط في اواخر الآيات كتعقيب على الكلام وكنتيجه له ؛ كما جاء في الآيات ٩ - ٦١ من سلسله آل عمران وكما جاء في اخر سلسله سورة مريم :

«ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فأما يقول له كن فيكون ...»

٣٥ - ٣٤
وقد استحكمت الحججة القرآنية حيث اوردت قصة ولادة يحيى التي يعترف النصارى بمجزئتها مقدمة لقصة ولادة عيسى (ص) .

وخامساً ان أمر صلب عيسى (ص) كان من الامور المختلف عليها في الاوساط المسيحية كما تلهم الآية التالية :

«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما له به من علم الا اتباع الظن ...»

النساء ١٥٧

وسادساً ان النصارى كانوا فرقة وأحزاباً من حيث العتائد والمذاهب والدينية ومن حيث أمر المسيح (ص) نفسه ايضاً . وهذا مستلهم أولاً من آية النساء ١٥٧ التي نقلناها قبل قليل ومن آيات البقرة ٢٥٣ وآيات الزخرف ٦٣ - ٦٥ وآية مريم ٣٧ التي نقلناها في فصول سابقة وثانياً من روح آية فاطر ٤٢ التي تحكى نذر العرب بأن يكونوا أهدي من النصارى واليهود اذا جاءهم نذير؛ حيث يدل هذا على ان العرب كانوا يرون الانحراف والمغالطة والاختلاف فتشور دهشتهم ويقولون ما يقولون .

- ١٥ -

وسابعاً انه كان في عصر النبي (ص) فرق نصرانية متطابقة في العقائد مع التقارير القرآنية ؛ وهذا مستلهم من آيات المائدة ٨٢ - ٨٤ التي نقلناها في مناسبة سابقة حيث تذكر صراحة ان دموع النصارى وفيهم القسيسون والرهبان فاضت بما

سموه من القرآن ورأو فيه الحق الذي عرفوه واعلنوا ايمانهم به (١). وفي السور
المكية آيات اخري رجحنا في الفصل الثالث من الباب الاول انها تعني النصراري
وفيه قرآن ودلائل على ما نقول ؛ وهي آيات الرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧ - ١٠٩
والقصص ٥٢ - ٥٣ التي نقلناها في ذاك الفصل .

ومعلوم ان من جملة التقريرات القرآنية كون المسيح عبد الله ورسوله ، وكون
ولادته معجزة مماثلة لمعجزة ولادة يحيى وادم (ص) وكونه انما دعا الى الله
وحده . وهذا التصديق الذي تحكيه الايات عن النصراري يتضمن هذه التقريرات
بطبيعة الحال . وننبه على ان التقريرات المكية مما نزل مبكراً كما يستلهم من ترتيب
نزول السور والاسلوب . واعلم في آية الاسراء الاخريرة التي جاءت عقب الآيتين
الانفتحي الذكر وهي :

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من

١١١

الذل وكبره تكبيراً ...

قرينة على ما نقول حيث تتبع حكاية قول النصراري بحمد الله الذي لم يتخذ ولداً
ولم تشب وحدته شائبة ؛ حتى انكأن هذا الحمد يطوي معنى حمد الله الذي جعل فريقاً
من النصراري يصدق قول القرآن في هذا ويقوم شاهد عليه منهم .

ومما يلوح لنا من أسلوب الآيات القرآنية من جهة ومن الروايات التي ذكرت
أن الدعوة الإسلامية قد لاقت عند أفراد الجالية الكتابية النصرانية قبولاً حسناً
كما لاقت مثل ذلك في الأوساط النصرانية الأخرى وخاصة في الحبشة من جهة
أخرى أن هذه الفرق لم تكن قليلة العدد أو شاذة ، وانها كانت تشغل حيزاً غير
يسير . واعلم هذا مما يفسر لنا إقبال النصراري في بلاد الشام ومصر على الإسلام في
الدوار الإسلامية الأولى .

(١) ذكر ابن هشام ج ٣ ص ١٦٧ أن أبا الحارث بن علقمة كان اسقف نجران وجاء

على رأس وفد لها قد شرفه قومه وملوك النصراري ومولوه وإن ابن أخاً له كان معه دعا على
النبي (ص) فقال له أخوه لا تنقل إنه والله النبي الذي كنا ننتظر فقال له أخوه وما يمنعك
منه قال ما صنعنا قومنا شرفونا ومولونا واكرمونا فعملت نزعوا منا كل ما ترى ...

وَمَا يَتَّصِلُ بِهَذَا الْمَعْنَى بِبَشَارَةِ عَيْسَى (ص) بِالنَّبِيِّ الَّتِي أَلْفَتْهَا آيَةُ الصَّف (٦) الَّتِي نَقَلْنَاهَا فِي مَنَاسِبَةٍ سَابِقَةٍ ، وَمَا ذَكَرْتَهُ آيَةُ الْأَعْرَافِ (١٥٧) الَّتِي نَقَلْنَاهَا قَبْلَ وَالتِّي تَتَوَهَّجُ بِهَا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَنَكَرَرْنَا مَا قَلْنَا سَابِقًا مِنْ أَنَّ الْآيَتَيْنِ كَانَتَا تَتَلَيَّانِ عَلَى مَسْمَعِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَأَنَّهُ لَمَّا لَا يَتَحَمَّلُ شَكًّا أَنَّهَا كَانَتَا تَقْرُرَانِ أَمْرًا مُطَابِقًا لِمَا كَانَ عِنْدَ النَّصَارَى أَوْ لِمَا كَانَ يُعْتَقَدُ بِعِضِ فِرْقَتِهِمْ وَمَا كَانَتْ تَحْتَوِيهِ بَعْضُ أُنْجِيلِهِمْ مِنْ صِفَاتِ صَرِيحَةٍ أَوْ ضَمْنِيَّةٍ ، وَإِنْ هَذَا كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ الْقَبُولِ وَالْإِرْتِيَاحِ .

- ١٦ -

وَأَمَّا أَنْ كَثِيرًا مِنْ رَهْبَانِ النَّصَارَى كَانُوا يَسْتَفْلُونَ طَوَائِفَهُمْ وَيَجْنُونَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَةَ وَكَانُوا يُصَدِّقُونَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ اسْتِبْقَاءً لِنَفْسِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ كَمَا تَلَهُمْ آيَةُ التَّوْبَةِ (٣٤) الَّتِي نَقَلْنَاهَا فِي بَحْثِ الْيَهُودِ قَبْلَ قَلِيلٍ .
وَتَأْسَعًا إِنَّهُ كَانَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ يَنْذِرُونَ الرَّهْبَانِيَّةَ مِنْ لَا يَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا كَمَا تَلَهُمْ الْآيَةُ التَّالِيَةُ :

«وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...»
الحديد ٢٧

وَعَاشِرًا لَقَدْ وَرَدَ تَعْبِيرُ رُوحِ الْقُدُسِ الَّذِي يُسَمَّى بِهِ النَّصَارَى أَحَدَ الْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ (الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ) عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ جَاءَ فِي صِدْقِ تَأْيِيدِ اللَّهِ بِهِ عَيْسَى (ص) كَمَا تَرَى فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ :

١ - وَآتَيْنَا عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... البقرة ٨٧ و ٢٥٣

٢ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...

المائدة ١١٠

وَجَاءَ فِي صِدْقِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ (ص) كَمَا تَرَى فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ :

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ

النحل ١٠٢

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَرُدُّهُ مَا إِذَا كَانَ هَذَا التَّعْبِيرُ عَزِيمًا أَصْلِيًّا أَوْ تَرْجُمَةً لِمَا كَانَ

يقابله عند النصارى الأعاجم؛ وما اذا كانت دلالاته قبل البعثة على الاقنوم النصراني
فحسب او كان يدل على معنى آخر .

فأولاً إن كلمة « قُدُس » قد جاء لها اشتقاقات في القرآن مثل « الوادالمقدس »
طاهها ١٣ » و « الأرض المقدسة ... المائدة ٢٢ » و « تقدس لك ... البقرة ٣٠ »
و « القدوس ... الجمعة ١ » وان هذا يسوغ القول أنها جذر عربي ، وإن كان
من يقول انها دخيلة من لغة سامية اخرى ؛ وحتى على فرض أن هذا الجذر في لغة
سامية أخرى فلا يقتضي هذا ان يكون دخيلاً على اللغة العربية التي تشترك مع اللغات
السامية الاخرى في أكثر الجذور . ومهما يكن من أمر فان هذا الجذر من جهة
وتعبير « الروح القدس » من جهة اخرى يجب ان يعتبر عربيين وانها كانا مستعماين
في المعاني التي وردا فيها في القرآن قبل نزوله ، لان القرآن إنما نزل باللسان
العربي المبين .

وثانياً لما كان معنى التعبير من المعاني الاساسية في العقيدة النصرانية كما أنه لم
يكن للعرب عهد بوحى رباني يمكن أن يطلق عليه هذا التعبير فالذي نرجحه أنه
ترجمة لمقابله في اللغات والكتب غير العربية التي كان يتكلم بها ويقراها النصارى
غير العرب .

وثالثاً اننا نرجح أن النصارى العرب هم الذين ترجموا معنى التعبير إلى اللغة
العربية واطلقوه على الاقنوم النصراني حسب عقيدتهم . ومع ترجيحنا هذا فاننا
لا نستبعد إن لم نقل نرجح أن الفرق النصرانية التي كانت تتطابق عقائدها في
المسيح (ص) مع التقريبات القرآنية على ما ذكرناه قبل قليل كانت تستعمله في
الإشارة إلى ملك الله ووحيه . وهذا المعنى هو الذي اريد له في القرآن سواء كان
في صدد تأييد عيسى (ص) او في صدد تنزيل القرآن كما تلهمه روح النصوص
القرآنية وكما ذهب اليه جمهور المفسرين .

وهذا الجمهور يذهب كذلك إلى ان تعبير « روح القدس » يعنى جبريل ملك الله
بالذات ، وليس ملكاً . وفي سورة الشعراء آيتان هذا نصها :

« نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ... » ١٩٣-١٩٤

وفي سورة البقرة آية هذا نصها :

«قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه. ٩٧»
وهكذا يربط هذا التشارك بين جبريل وتعمير روح القدس كما هو واضح .
وملك الله جبريل ذكر في بعض أسفار العهدين القديم والجديد كواسطة
لتبليغ انبياء الله وتنفيذ اوامر الله . وآية البقرة (٩٧) قد جاءت في سياق التنديد
باليهود واتهم انهم قد جهروا بمدائهم لجبريل مما يدل على ان اسمه مما كان متداولاً
بين اليهود ايضاً بصفته ملك الله . ولا ندري هل الفرق النصرانية التي تطابقت
عقائدها مع تفريرات القرآن والتي رجحنا انها كانت تتطابق بتفسير روح القدس على
ملك الله كانت تعني به جبريل بالذات ام لا ، وان كنا نرجح ذلك .

- ١٨ -

وختاماً لبحث النصارى واطافة الى ما قلناه في مطلع البحث وفي اثناء هذه
الفقر نقول انه ليس من شك في ان العرب قد عرفوا من طريق النصارى كما عرفوا
من طريق اليهود كثيراً من قصص التوراة والانجيل ومعجزات المسيح (ص)
وسيرة النصرانية والحواريين الاولى ، وان هذا كان ذا اثر في معارفهم وثقافتهم
الدينية والفكرية ، وان القصص النصرانية الخالصة في القرآن مثل قصة المائدة
(الآيات ١١٢-١١٥) وقصة أصحاب الكهف في سورة الكهف (الآيات ٩-٢٦)
وقصة أصحاب القرية في سورة ياسين (الآيات ١٣-٢٧) وقصة الحواريين في آيات
آل عمران التي نقلناها قبل وفي سورة الصف (الآية ١٤) التي يتضمن اسلوبها
زجراً او حثاً او تذكيراً او تمثيلاً كانت مما لم به العرب قبل البعثة من طريقهم ؛
وان امامهم واقتباسهم كانا وسيلتين الى ما كان يبدو منهم من جدل مع النبي (ص)
حول عيسى (ص) واختلافات النصارى خاصة وحول دعوته وشخصيته بوجه عام .

- ١٩ -

واخيراً نريد ان نبحث في مدى ما كان للتوراة والانجيل قبل البعثة من المفهوم ،
وفيما اذا كان من الممكن ان نجد لذلك ملامح من القرآن .
فبالنسبة للتوراة نقول :

اولاً ان هذا اللفظ ايس له جذر عربي ، وانه تسمية عبرانية الاصل لاسفار موسى (ص) الخمسة وما تزال تطلق عليها . وكل ما في الامر ان اللفظ القرآني معرب ، وقد عرب على وزن فعلاة ، والمتبادر ان التعريب سابق للقرآن ، وان اللفظ القرآني جاء كما كان مستعملاً قبل نزوله في اللسان العربي .

وثانياً ان كلمة « التوراة » وردت في القرآن ثماني عشرة مرة ؛ وواحدة منها في آية وسورة مكية وبقية في آيات وسور مدينة ؛ ومنها ما فيه دلالة صريحة على ان القصد من التوراة هو كتاب الشريعة اليهودية المنزلة من الله مثل ما جاء في آيات سورة المائدة ٤٣-٤٤ وسورة آل عمران ٣٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة من هذا الفصل . ومنها ما جاء مطلقاً ، كما ان منها ما جاء في صدد حجاج اليهود في ابراهيم (ص) والتطابق بينهما وبين ما نزل وجاء من كتب الله وانبيائه ، مما لا يبعد ان يكون قد عني الاسفار الخمسة التي يسميها اليهود فقط بالتوراة ، ومن الآيات التي وردت الكلمة فيها مطلقة آيات الاعراف ١٥٧ والصف ٦ وآل عمران ٦٥ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومنها الآيات التالية :

« نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ... آل عمران ٣
ونقيد ان التوراة لم تأت مقرونة بموسى (ص) في القرآن ؛ وان ما جاء مقروناً به هو الفاظ « الكتاب » و « الألواح » كما ترى في الآيات التالية :

١ - ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول ... البقره ٨٧

٢ - ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ... هود ١٧

٣ - وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ...

الأعراف ١٤٥

ومع ان آية الألواح تلهم انها قد تعني الاسفار الخمسة التي احتوت تفصيلاً لكل شيء وموعظة من كل شيء وتشريماً وأحكاماً فالمعروف في تاريخ اليهود انها غير الاسفار الخمسة . اما لفظ الكتاب في آية البقرة وهود وغيرها مما لم نقله فالمرجح ان لم نقل المحقق انه عني التوراة او الاسفار الخمسة .

ومنها يكن من امر. فإن آيات آل عمران ٩٣ والمائدة ٤٣-٤٤ وآيات في المائدة سنورها بعد قليل وهي الآيات ٦٥-٦٨ تلهم بصراحة ان القرآن قد عني بالتوراة ما كان متداولاً بين ايدي اليهود، كما كان يطلق عليه هذا الاسم في العهد النبوي وقبله بالتبعية وبقطع النظر عن تاريخه .

وثالثاً إذا استثنينا الزبور الذي ذكر القرآن ان الله آتاه داود (ص) في آيتين احدهما مكية وثانيها مدنية والنص فيها واحد وهو : « وآتينا داود زبوراً ... النساء ١٦٣ والاسراء ٥٥ » والذي هو على الأرجح سفر المزامير احد اسفار العهد القديم فانه ليس في القرآن اشارة ما الى الاسفار العديدة الاخرى التي يضمها هذا العهد اليوم .

على ان ذكر زبور داود (ص) في القرآن يمكن ان يلهم أن اسفار العهد القديم كانت او كان بعضها متداولاً بين ايدي اليهود في عصر النبي (ص) وببئته ؛ كما ان ورود بعض القصص القرآنية المشابهة لبعض قصص غير الاسفار الخمسة من الاسفار الاخرى مثل قصة ايوب ويونس ، وورود اشارات الى ما طرأ على بني اسرائيل من بعد موسى من نكبات وتطورات وانحرافات وما كان من حروب طالوت وجلوت على سبيل التذكير والتنديد او الموعظة يمكن ان يلهم ذلك ايضاً ، وان كنا نرجح ان تسمية التوراة لم تكن تطابق إلا على الاسفار الخمسة كما هي الحال الآن عند اليهود او بعضهم على الأقل كاسامرة في نابلس ، وان الاسفار الاخرى لم تكن مجموعة معها في مجموعة واحدة .

وطبيعي انه لا يمكن الجزم بما اذا كانت هذه الاسفار التوراتية وغير التوراتية المتداولة اليوم هي التي كانت متداولة اذ ذاك عدداً وخصوصاً حرفية . وبالنسبة للإنجيل نقول :

اولاً ان هذا اللفظ ليس اشتقاقاً عربياً ايضاً ، وانه معرب ، وقد صيغ على وزن أفعليل وان التعريب والاستعمال سابقان لنزول القرآن . ثانياً ان الإنجيل قد ذكر في القرآن اثني عشر مرة ؛ وقد جاء مقروناً بعيسى (ص) وفي الآيات صراحة بأن الله آتاه له وعلمه اياه ، وهذا مذكور في احدي

آيات سلسلة آل عمران الطويلة التي نقلناها وهي الآية ٤٨ وفي غيرها ونورد احداها في ما يلي :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ... »

المائدة ٤٦

وقد ورد ذكره أيضاً في معرض التنويه والحجاج في مثل آيات آل عمران ٣ والاعراف ١٥٦ التي نقلناها وغيرها . هذا بالاضافة الى انه ورد في القرآن كلمة

الكتاب مقرونة بعيسى (ص) وذلك في احدي آيات سورة مريم :

وقال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ...

٣٠

على ان في بعض الآت ما يلهم بقوة ان الكلمة تعني الانجيل الذي كان بين يدي النصارى في عصر النبي (ص) وبيئته كما ترى في ما يلي :

١ - وايحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأوئك

المائدة ٤٧

هم الفاسقون ...

٢ - ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولا دخلناهم جنات النعيم . ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم أمة مقتصدّة وكثير منهم ساء ما يعملون ...

المائدة ٦٥ - ٦٦

٣ - قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما

المائدة ٦٨

أنزل اليكم من ربكم ...

وثالثاً ان من المعلوم ان الانجيل المتداول بين أيدي النصارى اليوم ليس واحداً وإنما هو اربعة بل يقال انها اكثر من ذلك ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ان أسلوبها صريح على انها كتبت بعد عيسى (ص) بمدّة ما لتحتوي قصة حياته ورسالته

وتعاليمه ومعجزاته ، والسؤال الذي يرد هو ما اذا كانت الانجيل متعددة في عصر النبي (ص) وبيئته ، وما اذا كانت هي نفس الانجيل المتداولة اليوم نصاً وأسلوباً؟

إن الاجابة على هذا السؤال بالايجاب متعمّدة في نطاق القرآن ؛ فانه يقرر

من جهة للانجيل صفة التنزيل والتعليم الرباني به لعيسى (ص) مباشرة ويلهم كونه

كتاباً أنزل عليه كالتوراة ، ومن جهة ثانية يابهم انه الكتاب الذي كان متداولاً بهذا الاسم بين أيدي النصارى وحسب ؛ وكل ما في الامر انه يلوح للمرء من عدم جمع اللفظ انه لم يكن متعدداً ؛ كما يستلهم من حكاية اقوال النصارى وفيهم التفسيرون والرهبان عن القرآن انه الملق من ربهم ، وانهم كانوا من قبله من مساهين ن في نصوص ما كان متداولاً بين ايديهم تطابقاً مع التقريرات القرآنية وبشارات عيسى (ص) بالنبي الأُمي محمد عليه السلام . على انه لما كان القرآن قرر في صدد ولادة عيسى (ص) تقريرات فيها شيء من المماثلة لما هو وارد في بعض الاناجيل المتداولة فمن الممكن ان يقال ان بعض هذه الاناجيل كان هو المتداول بين ايدي النصارى في ذلك العهد .

— ٢٠ —

هذا ؛ وهناك نقطة اخرى متصلة بهذا البحث وباليهودية والنصرانية العربية ثم بالثقافة العربية بوجه عام . وهي ما اذا كان ما يسمى التوراة والانجيل في عصر النبي (ص) وبيئته منقولاً الى العربية ام لا . ان القرآن يحكي مواقف حجاج ومناظرة دينية بين النبي (ص) من جهة والنصارى واليهود من جهة اخرى ، ويحكي تأثر بعضهم بالقرآن وتصديقهم له وايمانهم به مما نقلنا آياته في مناسبات سابقة . ولقد استلهمنا من ذلك ان من بين الذين اتصلوا بالنبي (ص) عرباً كما ان غير العرب كانوا يفهمون العربية . والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة اخرى يخبرنا بان آلاف مؤلفة من العرب كانوا نصارى ، ومنهم البدو ، ومنهم الحضرم ، وانهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق ، ولهم اساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم واديارهم الكثيرة ؛ واستتباعاً لهذا فان من السائغ ان يقال انه لا بد من أن يكون بعض اسفار العهد القديم والعهد الجديد ان لم يكن جميعها قد ترجمت الى العربية قبل الاسلام ، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح ؛ نقول هذا لانه لم نطلع على قول ما في صدد وجود ترجمة عربية لهذه الاسفار تمت الى ما قبل البعثة ، وكل ما عرفناه بخبر ترجمة عربية لبعضها

منسوبة الى القرون الاسلامية المتوسطة ، ولعل ما في القرآن من اسماء وكلمات
معربة كثيرة ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الاسفار مثل التوراة
والانجيل وروح القدس وجبريل وميكايل والزرور ونوح و ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب وادريس ويوسف وموسى وهارون وقارون وفرعون وداود وسليمان
وطالوت وجالوت وعزير ومسيح وعيسى وزكريا والياس واليسع وذو الكفل
ويونس وايوب وحواريين وسيناء وسينين ويهود ونصاري وتابوت الخ
مما تصح ان تكون قرائن على ذلك ؛ ونرى ان هذا هو الذي يستقيم مع وجود
عشرات الوف العرب النصاري وآلاف الرهبان والقسيسين العرب ومئات الكنائس
والاعديار العربية ؛ وقد شئنا بالقول اسفار العهد القديم لأن النصرانية تعتبرها
جزءاً متمماً للشريعة ، وهذا ما نص عليه القرآن بذكره كون عيسى (ص) مصدقاً
لما بين يديه من التوراة في اكثر من آية من آياته ، وقد جاء هذا في سياق
الآيات التي نقلناها بنوع خاص في سلسلة آل عمران . واذا صح ما نقوله فتكون
هذه الترجمة مصدراً رئيسياً مدوناً من مصادر ثقافة العرب ومعارفهم النصرانية
واليهودية خاصة قبل البعثة كما هو المتبادر .



الفصل الثاني

في الطقوس والعمارات والوفظ الدينية المتنوعة

متناول الفصل — عبادة الشمس والقمر والكواكب — مغزى تسمية « عبد
شمس » مدى الآيات عن عبادة سبأ للشمس — روايات عن عبادة بعض الكواكب —
المجوسية أو عبادة النار في الحجاز — في غير الحجاز — الصلاة قبل البعثة —
حالات القيام والركوع والسجود — الصيام — الاعتكاف — مزية رمضان قبل
البعثة — اجتماعات يوم الجمعة — تقرب الأولاد للآلهة — تقرب القرابين —
ذكر غير الله على الذبائح — عادات متنوعة في تحليل وتحريم الانعام — الاستقسام
بالأزلام — الطيرة والتطير — التعاويذ والرق — الأحلام وتعبيرها — النفس
ومفهومها — الروح ومفهومها .

— ١ —

نريد أن نبحث في هذا الفصل فيما يمكن الاستدلال عليه من القرآن من طقوس
وعادات وتقاليد وأفكار وأوهام عليها صبغة دينية مما كان في عصر النبي (ص) وبنيته
قبل البعثة ، ولم يرد ذكرها في الفصول السابقة تكلية للصورة القرآنية في
العقائد والاديان .

وسندرس فيه كذلك موضوعاً لم ندرسه بعد بينما هو رئيسي في العقائد والاديان؛
وهو موضوع عبادة الكواكب والنار عند العرب . وقد أدخلناه في هذا الفصل
لأن الكلام فيه لا يحمل فصلاً خاصاً من جهة ، ولأن هذه العبادة ان صحت لا تتجاوز
ان تكون طقساً من الطقوس من جهة اخرى .

— ٢ —

لقد ورد في القرآن بعض آيات نهى فيها عن السجود للشمس والقمر وهي هذه:

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر
واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فان استكبروا فالذين عند ربك
يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون »
فصات ٣٧-٣٨

وفي إحدى آيات سورة الحج ذكر المجوس في عداد أصحاب الأديان وهي هذه:
« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا
إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد »
الحج ١٧
فهذه الآيات تحمل على التساءل عما اذا كان العرب أو فريق منهم عبد فيما عبد
القوى والمظاهر السماوية والطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والنار وخاصة في
بيئة النبي (ص) وعصره .

ومما يلفت النظر أن آيات فصلت لم ترد في معرض قصص الأمم الاخرى ، وإنما
وردت في معرض الدعوة إلى الاسلام والتنويه بمظمة الله ، والخطاب فيها للقريب ،
وهي مكية وقد وجهت الى أهل بيعة النبي (ص) الخاصة الذين كانوا أول من يسمعون
القرآن ويخاطبون به .

كذلك مما يلفت النظر ان قريشاً كانت تسمى « عبد شمس » وهذا الاسم كما
هو المتواتر الى حد اليقين هو اسم احد اجداد بني امية ؛ وايس
هذا الشخص هو الوحيد بهذا الاسم ، ففي كتب التراجم (١) وغيرها أشخاص
آخرون تسموا به ايضاً . فمن أين أتت هذه التسمية التي لا يعقل ان تكون عبثاً .
إننا لا نستطيع الاجابة إيجابية شافية سلبية او ايجابية ، لا سيما ولم نطلع على أية رواية
تفيد انه كان للشمس والقمر عبادة ما في بيعة النبي (ص) . ولكننا نقول إن ورود
آية في القرآن تنهى عن السجود لهما يوجه الخطاب فيها الى مخاطب قريب بصيغة
الأمر ، وأهل بيعة النبي (ص) اول المخاطبين بها ، وشيوع تسمية « عبد شمس »
في هذه البيعة لا يمكن ان يكون عبثاً . ولذلك فنحن نميل الى القول انه كان
للشمس والقمر في نفوس أهل هذه البيعة شيء من التعظيم والرغبة ، ومن المحتمل
انهم كانوا يؤدون لها طقساً من الطقوس التعبدية .

(١) اقرأ أسد الغابة ج ٤ ص ٩٧ و ١١١ مثلاً

وإذا ما تجاوزنا هذه البيئة في هذا الموضوع فهناك نصوص وروايات تسوغ القول بأسلوب اقوى واوضح بالنسبة للقديم والحديث قبل البعثة .

اما القديم ففي القرآن آية عن سبأ في عهد ملكها بلقيس (١) جاء فيها :

« وجدت ما قومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم ...

النمل ٢٤

فالآية تقر عبادة حقيقية للشمس في بلاد سبأ في الزمن القديم. ولانشك في أن

أهل بيئة النبي (ص) وعصره كانوا يتناقلون ذلك فيما يتناقلونه من أخبار أهل الجزيرة وغيرهم .

واما الحديث فان ابن صاعد ذكر في طبقاته (٢) أن كنانة كانت تعبد التمر

وتباً تعبد الذبران وكباً تعبد الشعري . وفي القرآن آية ذكر فيها هذا النجم الأخير

وهي هذه :

٤٩

« وأنه هو رب الشعري » ...

ومن غير المستبعد ان يكون اختصاص هذا النجم هنا واختصاص الشمس

والقمر في آية فصلت متصلين بقصد التنديد بعبادة كائنات هي من خلق الله كما

احتوته الآيات . ولقد تواترت أخبار عبدة الكواكب في العراق الذين لا يزال

بقاياهم إلى الآن يسمون بالصبة ، وإن كنانة نشك في كونهم عرباً . ومنها يكن من

أمر فالذي نرجحه أن يكون السجود المذكور في الآيات والعبادة المروية من قبيل

طقوس تعبدية إشرافية وحسب .

— ٣ —

واما المجوسية التي هي عبادة النار حسب العرف العام والمتواتر فإنه لا يمكن

أن يقال فيها شيء في نطاق القرآن غير أنها كانت من الأديان المعروفة في عصر النبي

(ص) وبيئته ؛ لأنه لم يرد في القرآن عنها صراحة او ضمناً غير آية الحج التي نقلناها

أنفاً . ولما كان من المعروف انها كانت الدين العام في بلاد الفرس في ذلك العصر

(٢) القرآن لم يذكر أسم بلقيس بصراحة . والأسم من المتناقلات العربية .

(٣) ص ٤٣

وان هذه البلاد كانت من جملة البلاد التي كان يتردد عليها العرب وتجارهم من انحاء الجزيرة والحجاز ، وان حكام بلاد اليمن في عصر النبي (ص) كانوا فرساً فمن الطبيعي ان تكون هذه الديانة معروفة في عصر النبي (ص) وبيئته . والمجوسية ليس لها جذر عربي ، وهذا ما يجعلنا نرجح انها معربة للدلالة على هذه الديانة .
وسكوت القرآن عن ذكر هذه الديانة عدا ذكرها بين الأديان المعروفة في آية واحدة يسوغ القول بأنها لم يكن لها وجود في بيئة النبي (ص) الخاصة . ولا نذكر اننا قرأنا شيئاً ما ينقض هذا القول . فاذا كان في الحجاز افراد من الفرس مستوطنون أتوا من اليمن او من أطراف العراق وحافظوا على ديانتهم القومية هذه فيكون هذا نادراً وغير مألوس .

وسكوت القرآن هذا يجعل الكلام عن مدى انتشار هذه الديانة في غير بيئة النبي (ص) الخاصة من البيئات العربية في نطاقه متعذراً بطبيعة الحال . غير اننا إذا تجاوزنا هذا النطاق فان من الممكن ان يقال إن المعقول والمحتمل ان يكون الفرس الذين غزوا بلاد اليمن وحكموها في العصر السابق لعصر النبي (ص) وهو حادث بلغ حد اليقين في صحته قد اقاموا عبادتهم القومية فيها وأن يكونوا قد حاولوا حمل الناس عليها ، وأن يكون بعض العرب تابعهم فيها واقتبسها منهم (١) ؛ كذلك فان من المعقول والمحتمل ان يكون بعض العرب المستوطنين العراق وسواحل خليج البصرة قد اقتبسوا ايضاً عبادة النار من الفرس الذين كانوا أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الربوع . ولقد جاء في بعض الكتب الموثوقة (٢) ما يفيد أن قبائل عربية في هجر والبحرين وعمان كانت تدين بالمجوسية ، وأن قواد الفتح قبلوا منها الجزية وابقوها على دينها ؛ بل وتذكر ان هذا مما كان مثله في حياة النبي (ص) .
ولقد ذكر ابن هشام (٣) رواية في سياق انتشار اليهودية في اليمن على يد

(١) ذكر ابن صاعد في طبقات الأئمة ان بعض القبائل الحميرية في اليمن

كانت تعبد النار .

(٢) كتاب الأموال ص ٣٢٠ و٣٢١ . اقرأ ايضاً كتاب الخراج لأبي يوسف .

(٣) ج ١ ص ٢٥

بعض احبارها جاء فيها انه كان في اليمن كهف يخرج منه حيناً بعد آخر لهيب ازرق مرعب له زفير قوى ، وكان الناس يذهبون الاءحتكام عند هذا الكهف ، فليس من المستبعد إذا صحت الرواية ان يكون بعض اهل اليمن قد التها هذه الظاهرة الطبيعية التي ظنوها خارقة وخافوها او اعتبروها رمزاً الآلهة وعبدوها .

- ٥ -

والآن نأتي إلى ذكر ما كان في عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة من طقوس تعبدية وتقاليد وعادات ذات صبغة دينية .

فاولاً الصلاة :

لقد اشير في اكثر فصول هذا الباب إلى عبادة المشركين لشركائهم وقيامهم نحوهم بواجبات تعبدية ، فمن الطبيعي ان يرد سؤال عن الكيفية التي كان العرب يؤدون بها هذه العبادة .

إن اهم مظاهر العبادة عند اصحاب الاديان هي « الصلاة » ؛ وقد ذكرت في القرآن كثيراً . ذكرت في صدد ما يجب على المسلمين من واجبات تعبدية نحو الله كما ترى في الائمة الآتية :

١ - حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . البقرة ٢٣٨

٢ - فأذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطأتم

فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً . . . النساء ١٠٣

٣ - هدى وبشرى المؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

بالآخرة هم يوقنون . . . النمل ٣

وذكرت في صدد الاشارة الى تعبد الانبياء وأهل الكتاب كما ترى في

الائمة الآتية :

١ - ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة

وآتوا الزكاة واركموا مع الراكعين . . . البقرة ٤٢-٤٣

(٢) هذه الآيات في سياق الخطاب اليهود .

٢ - فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بجيبى (١) . . .
آل عمران ٣٩

٣ - رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء . . . ابراهيم ٤٠
وذكرت في صدد التنديد بالمشركين الكفار العرب الذين لا يصلون لله كما ترى
في الأمثلة الآتية :

١ - قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . . . المدثر ٤٣ - ٤٤

٢ - فلا صدق ولا صلي . ولكن كذب وتولى . . . القيامة ٣١ - ٣٢
إلى جانب ذلك ذكرت في صدد الإشارة إلى صلاة المشركين عند الكعبة كما
ترى في الآية التالية :

« وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .
الأنفال ٣٥

وقد قال المفسرون عن المكاء أنه التصفير وعن التصدية أنها التصفيق .
ومهما يكن من أمر فالآيات بصورة عامة وآية الأنفال بصورة خاصة تفيدنا :
(١) ان كلمة الصلاة كانت تستعمل قبل البعثة للتعبير عن طقس تعبدى او ديني ،
وليس كما يقرره بعضهم انها كانت تعني الدعاء فقط ثم خصصت في الإسلام على
الاشكال المعروفة التي يؤدي بها المسلمون عبادتهم اليومية ؛ وكثرة ورود كلمة
« الصلاة » في القرآن للتعبير عن اسلوب القيام بالواجبات التعبدية وخاصة بالنسبة لما
قبل البعثة أي في الآيات التي وردت في صدد عبادة الأنبياء وأهل الكتاب وفي
صدد المشركين دليل حاسم على ذلك الاستعمال ؛ ولانني بهذا أن تكون الكلمة تعني
في أصلها البعيد أو تعني فيما تعنيه الدعاء والرحمة والبركة لا سيما وقد جاءت في القرآن
بهذه المعاني كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ - أوامك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . . . البقرة ١٥٧

٢ - ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند

الله وصلوات الرسول . . . التوبة ٩٩

(١) المقصود هو زكريا (ص) .

٣ — إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا
تسليماً . . . الأجزاء ٥٦

٢) إن العرب كانوا يقوموا ببعض العبادات لأهلهم أو عند الكعبة على طقوس
وأشكال معينة وكانت عبادتهم هذه تسمى « صلاة » .
ولقد ذكرت آية الأنفال ٢٥ أن صلاتهم عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية،
فيصح أن يقرر أن هذا المكاء والتصدية هما حركات وأصوات صلاتهم الطقسية ،
مع التنبيه على أننا لا نستطيع أن نقرر بجزم شيئاً عن مداها بالرغم مما قاله
المفسرون أنها تعنيان التصفير والتصفيق .

— ٦ —

هذا من حيث الهيئة العامة أو المظهر للعبادة . أما من حيث الشكل والحركات
التعبدية فمعلوم أن هناك حركات وحالات غالبية للصلاة وهي « القيام » و « الركوع »
و « السجود » . ولقد وردت الكلمتان الأخيرتان وهشمتان في آيات كثيرة في صدد
الصلاة والتعبد لله كما ترى في الأمثلة التالية :

- ١ — وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين
والركع السجود . . . البقرة ١٢٥
 - ٢ — يا مريم أقبتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . . . آل عمران ٤٣
 - ٣ — قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم
يتحرون إلا ذقان سجداً . . . الإسراء ١٠٧
 - ٤ — يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم
تفلحون . . . الحج ٧٧
 - ٥ — لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن . . . فصلت ٣٧
 - ٦ — وإذا قيل لهم ازكعوا لا يركعون . . . المرسلات ٤٨
- ولقد ذكرت حالة القيام في آيات عديدة أيضاً وإن كانت أقل من آيات السجود
والركوع كما ترى في الأمثلة التالية :
- ١ — وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا

أسلحتهم فأذا سجدوا فليكونوا من ورائكم . . . النساء ١٠٢

٢ — وإذ بوأنا لأبراهيم مكان البيت أن لا يشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين

والقائمين والركع السجود . . . الحج ٢٦

وتنبه على أن ما قلناه من قلبه آيات حالة القيام إنما هو بصدد ما يعنيه القيام من الحالة التي هي ركن من أركان الصلاة ؛ وإلا فإن الأمر بأقامة الصلاة قد لازم أكثر الأوامر بالصلاة ؛ غير أن هذا الإطلاق يعني المبادرة إلى الصلاة والدخول فيها أكثر مما يعني تلك الحالة الخاصة .

ومما يجدر بالتنبيه أن الآيات التي ذكر فيها القيام والركوع والسجود ليست جميعها في صدق الأمر بأقامة أركان الصلاة للمسلمين وأن منها ماله صلة بقبل البعثة ، سواء في صدق أمر الله لأبراهيم (ص) بتهيئة البيت للقائمين وللركع السجود أو في صدق الكلام عن اليهود أو المشركين . ولقد ذكرت الحالات الثلاث في آية الحج مجتمعة ، حيث يستلهم منها أن القيام والركوع والسجود حالات تعبدية في الكعبة أو في فنائها أو بالأحرى من طقوس وتقاليد التعبد عندها كالطواف الذي ذكر في نفس الآية أيضاً ؛ ويضاف إلى هذا أن الكلمات الثلاث لا بد من أن تكون مفهومة المبدى عند السامعين قبل نزول القرآن الذي نزل بلسان القوم .

ولهذا كله فإن من السائغ القول بشيء من الجزم أن الحالات الثلاث كظهر من مظاهر التعبد وحالات الصلاة ليست مما هو غريب عن العرب قبل البعثة ، بل وإنما مما كانوا يقومون بها عند الكعبة . وقد أشرنا في مناسبة سابقة إلى رواية ذكرت أن زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان من الموحدين المتعبدين على ملة إبراهيم كان يسجد أمام الكعبة . وينبه بصورة خاصة على أن بعض السور والآيات التي ذكرت فيها حالات السجود والركوع مما نزل مبكراً في مكة ، ولهذا معناه في تقوية الاستدلال كما لا يخفى .

هذا ؛ وليس في القرآن ما يساعد على قول شيء في صدق قيام العرب قبل الإسلام

بأستعداد تطهرى ما بين يدي تعبداتهم كالوضوء وإزالة الجنابة كما أننا لم نطلع على روايات تساعد على قول شيء فيه ، ولهذا لم نر محلاً لأفراد بحث خاص بذلك .

ثانياً الصيام :

كما قيل في صدد معنى الكلمة أنه الإمساك وانها صارت اصطلاحاً يطلق على الصيام التعبدي في التشريع الاسلامي . غير أن نص فرضه في القرآن يدل على انه كان مفهوماً على هذا الوجه قبل نزول القرآن ، وان أهل الكتاب كانوا يمارسون نوعاً من الصيام كعبادة دينية كما ترى في الآية التالية :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم

تتقون

ولا نستبعد ان يكون العرب صاروا يطلقون الكلمة على تلك العبادة بتأثير

معرفةهم ممارسة أهل الكتاب لها .

والسؤال الذي يورد هو ما إذا كانوا مارسوا نوعاً من الصيام كعبادة دينية قبل البعثة؟ ونقول إن الاجابة على هذا السؤال نفياً أو اثباتاً في نطاق القرآن متعذرة ، لانه ليس فيه ما يساعد على ذلك كما هو الشأن في الصلاة وحالاتها ؛ فاذا ما تجاوزنا هذا النطاق فإنا نقول ان هناك بعض روايات ذكرت ممارستهم له ؛ حيث روى الخازن حديثاً عن عائشة (رضي) مفاده أن قريشاً كانت تصوم في الجاهلية يوم عاشوراء اي اليوم العاشر من المحرم ، وأنه كان يوم تجديد ستر الكعبة ، وأن النبي (ص) كان يصومه كذلك قبل بعثته .

وليس في الرواية ما يمكن الاستناد اليه في معرفة مدى هذا الصوم العربي قبل

البعثة . غير أن المفسرين ذكروا في صدد تفسير الآية التالية من آيات الصوم :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نساءكم هن لباس لكم وأتم لباس لهن علم

الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأتموا كفون في المساجد البقرة ١٨٧

إن هذه الآية نزلت بعد نزول آيات الصوم الأولى بمدة ما وان المسلمين كانوا

يتمتعون بحالة الإفطار في الليل الى ان يصلوا صلاة العشاء ويناموا ، وحينئذ

يصبحون في حالة الصوم ولو لم يكن قد أسفر الفجر ، وأن بعضهم قد خالف ذلك فأتى زوجته ولما أخبر النبي (ص) استنكر ذلك منه ولكن ثم لم تلبث أن نزلت الآية بالتخفيف. فمضمون الآية من جهة وهذه الرواية المتسقة معها من جهة أخرى يلهمان أن النبي (ص) حدد حالة الصوم والافطار باجتهاده ثم نزلت الآية لتحديد آخر هو الذي صار شرعاً. ومن المعروف أن اليهود حينما يصومون يصومون اربعاً وعشرين ساعة إلا قليلاً؛ ومن المحتمل أن يكون النبي (ص) والورعون من العرب حينما كانوا يصومون قبل البعثة كانوا يصومون في نطاق هذا الحد ، وأن هذا الحد مع بعض التعديل بقي حينما فرض صوم رمضان في الاسلام الى أن عدلته الآية وجعلته من الفجر الى الغروب .



ثانياً الاعتكاف :

وهذا البحث يتناول أمرين: الاعتكاف عند الكعبة مطلقاً ، والاعتكاف في شهر رمضان. ففي صدد الاول ذكر « العاكفون » في آية البقرة (١٢٥) التي نقلناها قبل قليل مع الفاعلين والركع السجود . وإذا كان من الممكن ان يقال إن العكوف هو الاستقرار والاقامة مطلقاً ايضاً لاسيما وهذا المعنى هو المقصود في احدى آيات سورة الحج :

«الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ... ٢٥

فان ذكره في آية البقرة جاء مع تعبيرات تعبدية وطقسية أى الطائفين والركع السجود مما يمكن ان يساعد على ترجيح كونه فيها تعبيراً تعبدياً طقسياً ايضاً — وهو ما تلهمه روح الآية — وأن يلهم ان الاعتكاف التعبدى كان يعد من طقوس زيارة الكعبة أو من مظاهر وحالات احترامها والتعبد عندها .

ولقد روى البخارى حديثاً مفاده ان عمر بن الخطاب (رض) اخبر النبي (ص) انه نذر في الجاهلية ان يعتكف يوماً في الكعبة ، وأن النبي (ص) حثه على الوفاء بنذره . وهذا الخبر يستأنس به على صواب استلها منا من الآية اولاً ، وعلى ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة كانوا يمارسون هذا النوع من العبادة أو الرياضة الروحية ثانياً.

أما الثاني فإنه ذكر في القرآن في سياق تشريع الصوم الإسلامي كما ترى في هذه البقرة :

« ولا تبأثر وهن واتم ما كفون في المساجد... » البقرة ١٨٧
وقد أثرت التواتر عن العهد النبوي أن النبي (ص) وبعض أصحابه كانوا يعتكفون أياماً من رمضان في المسجد فلا يخرجون منه فيها إلا للضرورة ؛ ثم صار هذا الاعتكاف في رمضان سنة يقوم بها الورعون .

وقد ذكرنا هذا مع أنه لا علاقة له بما قبل البعثة لنصله بالرواية (١) المتواترة التي بلغت حد اليقين بأن النبي (ص) كان قبيل بعثته يعتكف في غار حراء في شهر رمضان ، وإن أول وحى رباني بالقرآن قد نزل عليه في أثناء هذا الاعتكاف . والقرآن يؤيد أولية نزول القرآن على النبي (ص) في رمضان في هذه الآية (٢) : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ... ١٨٥ ، ونصله كذلك برواية (٣) أخرى ذكرت أن الورعين من قريش كانوا يعتكفون في بعض أيام هذا الشهر ؛ فهذا وذلك يمكن أن يسوغا القول أن الاعتكاف في رمضان كعبادة دينية أو رياضية روحية مما كان ممارساً في بيئة النبي (ص) قبل البعثة .

وهذا القول يستتبع القول بأنه كان لشهر رمضان منزلة دينية ما قبل البعثة ضاعت علينا معرفة كنهها ومداه ؛ فلم يكن النبي (ص) يختاره لا اعتكافاته ورياضته الروحية قبل بعثته ، ولم يكن الورعون من قريش ليختاروه كذلك للاعتكاف التعبدى أو الرياضة الروحية لو لم تكن له هذه المنزلة التي أيدت باختصاص رمضان بأعظم حدث إسلامي وهو نزول الوحي على النبي (ص) فيه بالقرآن لأول مرة وإعلانه بنبوته ، ثم بالصيام والذكر والاعتكاف في المساجد فيه .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤-٢٢٥ وابن سعد ج ١ ص ١٧٧-١٧٨

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٨ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٤-٢٢٥

(٣) أن بعضهم أجد في قوله أن الله إنما أنزل القرآن في شهر رمضان من

السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأن الآية قد عنت ذلك ؛ والجمهور على ما ذكرناه كما أن هذا هو المتسق مع ملهيات القرآن والمنطق الحق .

رابعاً اجتماعات يوم الجمعة :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به صراحة على ان هذه الاجتماعات كانت موجودة قبل البعثة . غير ان في اسم اليوم ، والاسلوب الذي جاءت به الآيات الحثية على الأهتمام لصلاة الجمعة ، وبعض روايات في صدد هذه الصلاة قبل نزول الآيات وفي صدد اجتماعات الجمعة قبل البعثة ما يسوغ ادخال الموضوع في عداد المواضع التي نحن بسبيل سردها .

فمألاً محل للشك فيه ان اسم اليوم سابق للبعثة النبوية ، وفي التسمية مفهوم لا ينكر بأن هذا يوم اجتماع او تجمع او جمع ، وبأنه حينما سمي اليوم به قد توخي الدلالة به على حالة تجمعية ما . وقد ايدت الروايات (١) ذلك حيث ذكرت ان يوم الجمعة كان يسمى يوم « العروبة » (٢) وان كعباً بن لؤي قدس اجتماعات عامة تقوم في هذا اليوم وبدل اسمه باسم الجمعة ؛ كما ذكرت ان أهل يثرب رأوا ان يتخذوا لهم يوماً يجتمعون فيه كما لليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فاختراروا يوم الجمعة ؛ ويتبادر لنا ان تسمية اليوم وما توخي فيها أعم من نطاق يثرب ؛ كما لا نرى تداخلاً في الروايتين ولا بعداً عن المعقول ؛ فقد تكون اجتماعات يوم الجمعة قد أهملت او قلت العناية بها فرأى اليرشبيون احياءها أسوة باليهود والنصارى .

واسلوب آيات الجمعة يلهم بقوة يدل ويجزم ان صلاة الجمعة كانت تقام قبل نزولها كما ترى فيها :

«يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا كثيراً لعلمكم تهاجرون . وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا إليها

(١) اقرأ تفسير الخازن والبيضاوي لسورة الجمعة مثلاً .

(٢) كانت أيام الاسبوع تسمى هكذا : السبت شيار والاحد اول والاثنين اهون والثلاثاء جبار والاربعاء دبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة : المزهر

وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين . . .
الجمعة ٩ - ١١

فالايات ليست في صدد تشريع بدئي وإنما هي في صدد الحث على ترك البيع والمبادره إلى الاجابة لنداء صلاة الجمعة ، ثم في صدد التنديد بالذين يتركون النبي قائماً في المسجد لها اذا ما رأوا لهواً او تجارة . وعدم ذكر وقت الصلاة مع ان اوقات الصلاة اليومية خمسة دايماً آخر حيث يدل على ان الكلام مصروف الى الصلاة المشهورة المعروفة من ذلك اليوم . وقد روى المفسرون ان اكثر المجتمعين لصلاة الجمعة في يوم ما انفضوا أو خرجوا من المسجد حينما سمعوا خبر ورود قافلة تجارية او سمعوا طبل صاحبها ؛ وان النبي (ص) غضب من ذلك قال « والذي نفسي بيده لو تابعتهم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بسكم الوادي ناراً » . وقد روت روايات السيرة ان النبي (ص) اقام صلاة الجمعة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة وادركته الصلاة قبل دخوله قلب المدينة ؛ كما روى ان أسعد بن زرارة احد زعماء يثرب المسلمين كان يصلي صلاة الجمعة بمن أسلم في يثرب قبل الهجرة . والتعبير هو « كان يجمع » . وترتيب نزول سورة الجمعة متأخر جداً ؛ وفي هذا قرينة مؤيدة اخرى لاقامة النبي (ص) والمسلمين صلاة الجمعة قبل نزول الآيات بمدة طويلة ، فليس من التجوز بناء على ذلك ان يقال إن عناية النبي (ص) بصلاة يوم الجمعة وجمع المسلمين لها ، وما كان من إقامة مساهي يثرب لها قبل الهجرة النبوية انما كان استمراراً او احياء لعادة قديمة وحكيمة . وليس مثل هذا نادراً في التشريعات القرآنية والسنن النبوية كما لا يخفى .

وليس لدينا ما نستطيع ان نعرف به ما هية تلك الاجتماعات التي كانت تقوم في ايام الجمع قبل البعثة والتي ابدعت ابتداءً وبديل اسم اليوم من اجلها اهتماماً وحفاوة ؛ غير اننا نميل الى القول بانها كانت ذات صبغة دينية او تعبدية على نحو ما . فان شهود هذه الاجتماعات العامة ما كان يفرض ويستجاب الا بصبغها بصبغة دينية قياساً على ما كان عند العرب من تقاليد متنوعة . ولا نشك في انه كان لهذه البدعة اثر في تقوية حركة النهضة القومية والفكرية في تيسير اجتماع الناس ببعضهم مرة في

الاسبوع اجتماعاً حقيقياً ، بل لعل هذه الغاية كانت من الغايات التي توخيت في سنها وابداعها . وإذا كان من المحتمل ان تكون الفكرة مقتبسة في اصلها من أهل الكتاب فالاستقلال العربي بارز فيها كما هو واضح .

— ١٠ —

خامساً تقريب الاولاد للآلهة:

كان من عادات العرب في عصر النبي (ص) ويدينه المصبوغة بالصبغة الدينية انه اذا حزب احدهم امر خطير او استعصى عليه مطلب جليل او تمنى حصوله ان يذبح ذبح ولده قربانا للآلهة إذا ما فرجت كربته او حققت مطلبه .

ويستلهم وجود هذه العادة من آية في سورة الأنعام هي :

«وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليأبسوا

عليهم دينهم

وقد اشير اليها في آية اخرى من السورة نفسها في سياق تسفيه بعض التكاليد

الجاهلية في التحريم والتحليل مما يصبغونه بصبغة دينية وهي :

«قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم وحرمو امارزقهم الله افتراء على الله

قد ضلوا وما كانوا مهتدين

وهذه العادة هي غير عادة قتل الاولاد وواد البنات خشية الفقر والحصار التي

ذكرتها آيات اخرى وذكرت هذا السبب بصراحة، والتي نقلناها في الفصل الاول

من الباب الثاني حينما ذكرنا هذه العادة في عداد العادات العائلية المتنوعة . وفي

آية الأنعام (١٣٧) دلالة قوية على العادة التي نحن في صدد تقريرها وصبغتها الدينية،

وهذه الآية تلهم في ما تلهمه ان هذه العادة من العادات الكثيرة الشيوع .

ولقد ذكرت كتب السيرة (١) قصة نذر عبد المطلب جد النبي (ص) ذبح أحد

اولاده قربانا لله إذا رزق عشرة اولاد ، وما كان من محاولته الوفاء بنذره وذبح

ابنه عبد الله والد النبي (ص) الذي اصابته القرعة بتفصيل طويل ومشهور ؛ مما

يمكن ان يستأنس به على صحة الاستلham بوجود العادة .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٤١ وما بعدها .

واقْد ورد في القرآن قصة رؤيا ابراهيم (ص) بنذبح ابنه ومحاولته تنفيذ ما امر به الهاماً ربانياً وفداء الذبيح ؛ وذلك في آيات الصافات ١٠١ — ١٠٧ التي نقلناها في فصل الحج . وهذه القصة بما ورد في التوراة ايضاً ؛ وزجح ان تكون مما عرفه العرب رساقولوه من القصص حول ابراهيم (ص) وغيره من الانبياء ؛ وليس من المستبعد والحالة هذه ان تكون عادة تقريب الأبناء مستلهمة من هذه القصة . على ان هذه العادة غير نادرة عند الأئمة الاخرى ، ولعل الاصل فيها نذر اعز شيء على نفس المرء لله في سبيل تحقيق مطلب من مطالبه العظيمة او شكراً على نعمة عظيمة .

— ١١ —

سادساً تقريب القرابين للآلهة :

وكان من عاداتهم المصبوغة بالصبغة الدينية ايضاً تقريب القرابين من الاضام الآلهة . ولقد ذكرنا في فصل الحج عادة تقريب القرابين واهداء الهدى في موسم الحج واقرار الاسلام لأصل الفكرة بعد جعلها لله عز وجل واعتبارها من الوسائل التي يقيم الناس بها أودهم .

غير ان الذي يزيد ان نقوله هنا هو ان هذه العادة لم تكن قاصرة على الحج باعتبارها من اركانه فحسب ، بل كانت عادة عامة جارية في كل وقت ومكان ، تقريباً وزائياً ، وتحصيلاً لأمنية او شكراً على نعمة او وفاة بنذر . ولقد جاء في احدي الآيات اشارة إلى ما يذبح على النصب من الحيوانات وتحريم لآكلها وهي هذه :
 « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأعزلام ذلكم فسق . . . »
 المائدة ٣

فالاشارة الى ما يذبح على النصب — الاوثان — مع احتواء الآية اشارة الى ما يهل لغير الله به — أي يذكر إسم غير الله عند ذبحه — يمكن أن تكون قرينة على أن المقصود منها ما كان يذبح قرباناً للآلهة كما أشرنا . وإطلاق التعبير يمكن أن يكون قرينة على عموم العادة وعموم أوقاتها . وهذا مما أيده الروايات الكثيرة .

سابعاً : ذكر غير الله عند ذبح الذبائح .

وقد كان من عاداتهم اذا أرادوا ان يذبحوا للطعام ان يذكروا غير الله أو آلهتهم الاخرى مع الله عند ذبحها . والغالب انهم كانوا يقصدون التبرك . ولهذا عدونا هذه العادة في عداد العبادات المصبوغة بصبغة دينية .

وقد أشير الى هذه العادة في آيات متعددة في سياق تحريم أكل الذبائح التي يذكر غير الله عليها . وقد نقلنا احداها آنفاً (المائدة ٣) ونورد منها ما يلي :

- ١ - إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . البقرة ١٧٣
 - ٢ - قل لأجد فيما أوحى الى محرماً على طاعمي يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به . . . الانعام ١٤٥
 - ٣ - إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به . . . النحل ١١٥
- على ان العرب كانوا الى هذا يأكلون ما يموت حتف أنفه أو نتيجة لنطح أو وقذ أو سقوط أو خنق أو نهش سبع كما كانوا يذبحون ذبائحهم احياناً دون أن يذكروا شيئاً . وهذا مستلهم من آيات في سورة الانعام تنهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه اطلاقاً وهي هذه :

- ١ - ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ابوا حون الى أو آياتهم ليجادوا لكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون . . . الانعام ١٢١
 - ٢ - فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم اليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين . . . الانعام ١١٨-١١٩
- وقد احتوت كما هو واضح أمراً في الأكل مما ذكر اسم الله عليه واستنكاراً للامتناع أو التردد في ذلك . ويلهم هذا ان المسلمين في بدء الأمر - وسورة الانعام مما نزل مبكراً بعض الشيء - تخرجوا من أكل ما يذكر اسم الله عليه واعتبروا أن الذبيحة تصبح بذلك لله وأن أكلها يندو حراماً عليهم على ما كانت عليه عاداتهم من عدم أكل القرابين التي تذبح لله أو الآلهة مما ذكرناه في فصل الحج ، فاقتضت

الحكمة هذا الأسلوب ثم اتبعت الآيتان بالآية ١٢١ التي جاءت حاسمة تحتوي تشريع عدم اكل أي ذبيحة لا يذكر عليها اسم الله . ومع هذا فيبدو أن أثر العادة الجاهلية ظل قائماً بعض الشيء بالنسبة لاء كل ما يموت نطحاً أو وقذاً أو سقوطاً أو خنقاً أو نهشاً أو بصيد الجوارح فاقتضت الحكمة نزول آية المائدة (٣) التي شرطت لاء كل الحيوانات في الحالات الخمس الأولى ان تدبح ويذكر اسم الله عليها إذا كان فيهاره ق بعد حلول ما حل فيها من سبب الموت ، ونزول آية بعدها تشرط لاء كل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعامة أن يذكر اسم الله عند اطلاقها وهي هذه :

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه وانقوا الله . . . »

- ١٣ -

ثامناً عادات متنوعة في التحليل والتحرير في الأنعام .

وفي القرآن آيات عديدة يستدل منها على أنه كان للعرب قبل البعثة في بيئته النبي (ص) عادات متنوعة في تحليل الأنعام وتحريمها عليها صبغة دينية .

فأولاً اشير في آية في سورة المائدة إلى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وهي :

« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا

يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون . . . » المائدة ١٠٣

وأشير في آية في سورة الأنعام الى تحريم أكل بعض الأنعام واستعمال ظهورها

ولهذا صلة بما جاء في آية المائدة وهذه هي :

« وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت

ظهورها وأنعام لا يذكر اسم الله عليها افتراء عليه . . . » الأنعام ١٣٨

وقد ذكر المفسرون وكتب السيرة روايات عديدة في صدق تفسير هذه التحريمات

واخبارها ونزيم في ما يلي صورة لا تخرج في جوهرها عما جاء في تلك الروايات

على اختلافها :

١ - إنهم كانوا يشقون أذن الناقة التي تنتج خمسة بطون ويخولون سبيلها كأنما

هم يعتقونها شكراً للآلهة ، فلا يركبونها ولا يحملونها ولا يجزئون وبرها ولا يمنعونها من كلاً وماء ولا يذبحونها ويخصصون البانها للضيوف ويسموننها «البيحرة» اشتقاقاً من بحر بمعنى شق الآدن .

٢ - إنهم كانوا اذا مرض لهم مريض او عنت لهم أمنية او طال عليهم غائب نذروا ان يعتقوا ناقة من نياقهم يعينونها ، فاذا شفي المريض او تحققت الأمنية او عاد الغائب « سابوا » الناقة المندورة ، وأعفوها من الركوب والحمل والذبح وجز الوبر ولم يمنعوها من كلاً ولا ماء وسموها « السائبة » .

٣ - إنهم كانوا اذا ولدت الشاة اثنى كانت لهم فلا يصح عليها ذبح ولا قربان ، واذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وهو الذي يذبح ويقرب الآلهة ؛ فاذا ولدت ذكراً وأثنى في بطن واحد كانت حالة الذكر كحالة الاثنى لا يصح عايه ذبح ولا قربان وقالوا ان الاثنت وصلت أظها أي صانت دمه وسموها « الوصيلة » .

٤ - إنهم كانوا اذا أنتج الفحل عشرة بطون أعتقوه الآلهة وحرموا ظهره ولحمه وتركوه يرعى ويرد الماء كما يشاء ولا يمنعونه من ذلك مانع وسموه « حامياً » أي انه حمى نفسه .

وآية المائدة صريحة بأنهم كانوا يفعلون ذلك كتقليد ديني تحقيقاً لرغبة الآلهة وأوامرها المتوارثة فسفهن عملهم ، وقررت إيمانهم في ذلك على الله .
ثانياً في آية في سورة الانعام أشير الى ما كانوا يخصصونه من الانصبه لله راسر كأنهم في زروعهم وأنعامهم وهي :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشر كائنا فما كان لشر كأنهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شر كأنهم ساعما ما يحكون... »

الانعام ١٣٦

وظاهر من الآية انهم كانوا يحابون بين الله وشر كأنهم وبكلمة ثانية كانوا يرون شر كأنهم أشد قرباً اليهم واختصاصاً بهم . وقد جاء في بعض كتب التفسير (١) في صدد تفسير الآية انهم كانوا يصرفون ما يجعلونه لله على الضيوف والفقراء وينفقون

(١) الخازن والنسفي والبيضاوي في تفسير الآية :

ما يجعلونه لأشركاء على الأوثان وخدمتها ، فان سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غني عنه ، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان في ما جعلوه لله رده اليه وقالوا إنها في حاجة اليه ، وكان اذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا كان الهالك او الناقص من نصيب شركائهم عوضوه مما جعلوه لله ؛ وكانوا كذلك اذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً رجحوا نفع ما جعلوه لشركائهم وبادلوا بينه وبين ما كان لأشركاء وقالوا إن الله غني عنه .

ثالثاً وفي سورة الانعام آية أشير فيها الى ما كان من اختصاصهم المذكور دون النساء بما في بطون الانعام وهي هذه :

وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم الانعام ١٣٩
وقد ذكر المفسرون أن هذا التحريم في صدد الأكل . والذي يتبادر لنا أنهم كانوا يندرون تخصيص ما في بطون الانعام المذكور قبل ولادتها فاذا ولدت حياً اعتبروا ان تحقيق النذر قد وقع كإعلان لرضاء الله عنه فحرموا اكل المولود على الاناث ، واذا ولدت ميتة اعتبروا أن الله لم يرض عن نذرهم فأكلوا الميتة هم والنساء معاً . وكذلك يخيل لنا أن هذا كان وسيلة من وسائل حرمان المرأة من حقوقها المادية في ما بلاد حياً بطريق النذر والتحريم المصبوغة بالصبغة الدينية .
رابعاً وفي سورة الانعام ايضاً آيات أشير فيها إلى تحريم ما في بطون الانعام قبل الولادة تحكماً وهي :

«ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آ الذكرين حرم أم الاثنيين أم ما اشتملت عليه أرحام الاثنيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آ الذكرين حرم أم الاثنيين أما اشتملت عليه أرحام الاثنيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين»

وظاهر من هذه الآيات (١) أنهم كانوا يندرون تحريم اكل ما في بطون الانعام

(١) اقرأ تفسيرها في تفسيرنا «التفسير القويم»

من ذكور أو أنث قبل الولادة تحكما ، ويصبغون نذرهم هذا بصبغة دينية . ويخيل لنا أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى ذكور نذروا جعل ما يولد ذكراً لله فلا يذبحونه إلا له ويحرمون على أنفسهم أكله ، وإذا احتاجوا إلى أنث فعلوا مثل ذلك تقرباً لله حتى يجعل الحمل كما يريدون ؛ فإذا جاء الحمل كما نذروا اعتبروا ذلك إعلاناً من الله عن رضائه عن نذرهم .

خامساً وفي آية الأنعام ١٣٨ التي نقلناها قبل إشارة إلى نوع آخر من النذور العربية قبل الإسلام حيث كانوا يخصصون انعاماً أو زروعاً بعينها لأناس باعياهم ويعلمون انها نذر محجور عليهم لا يحل لغيرهم أكلها .

ونضيف إلى ما شرحناه من هذه الآيات ان في الآيات التي جاءت بعد الآيتين ١٤٣-١٤٤ من سورة الأنعام وكذلك في بعض آيات النحل تكملة لهذه الصور ؛ وإليك أولاً الآيات :

١ - قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ، وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وأنا لصادقون . فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين اشر كوا لو شاء الله ما اشر كنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن اقم إلا تخرسون . قل فلاله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون الأنعام ١٤٥-١٥٠

٢ - ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم . وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا

فهذه الآيات يمكن ان تلمهم اولاً ان العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أنهم في ما يحلونه ويحرمونه إنما هم منفذون لمشيئة الله واوامره ، وقد جادلوا النبي (ص) في ذلك قائلين ان الله لو لم يكن آمراً بما يفعلون او راضياً عنه لكان صرفهم وصرف آباءهم عنه . وثانياً انهم كانوا يبررون عملهم بما عند اليهود من تحليل وتحريم في بعض انواع الطعام وللحجوم والشحوم . فرد عليهم القرآن بان الله لم يحرم الا ما كان نجساً كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير او فسقاً وشركاً وهو المذبوح لغير الله او المذكور عليه غير الله ؛ وان ما حرم على اليهود إنما حرم عقوبة وانتقاماً من الله على بغيرهم وليس لأنه نجس او فسق في اصله . ومسكية الآيات تقوى الاستلزام بان هذا الحجاج والاحتجاج باليهود كان بين العرب والنبي (ص) .

- ١٤ -

تسماً العادات والهواجس النفسانية .

وفي القرآن آيات فيها إشارات إلى عادات او هواجس نفسانية مصبوغة بصبغة دينية ما كانت عند العرب في بيئته النبي (ص) وعصره قبل البعثة .

منها الاستقسام بالأزلام . فقد أشير إلى ذلك في آيتين هما :

١ - وما ذبح على نصب وأن تستقسموا بالأزلام . . . المائدة ١٣

٢ - يا أيها الذين آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

الشیطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . . . المائدة ٩٠

وموضوع البحث هنا هو ما احتوته الآية الثانية ، لا تسارحجنا في مناسبة

سابقة ان العبارة في الآية الاولى في صدد تحريم ما يذبح على سبيل الميسر وشرحنا

هذه العادة في الباب الاول .

والاستقسام هو طلب معرفة المقسوم للمرء والاستخارة في أمر من الأمور .

والأزلام هي الأسهم التي كانت تستعمل في الاستخارة .

وقد جاء في تفسير الخازن في سياق تفسير آية المائدة الاولى انه كان لهم سبع

قداح مكتوب على احدها « امرني ربي » وعلى ثانیها « نهاني ربي » وعلى ثالثها

« منكم » وعلى رابعها « ملصق » وعلى خامسها « من غيركم » وعلى سادسها « العقل » وسابعها غفل لا كتابة عليه . فكانوا إذا ارادوا سفراً أو تجارة ، أو اختلفوا في نسب أو قتل أو حمل دية أو غير ذلك من الامور المماثلة جاؤوا إلى هبل وكان اعظم اصنام قريش . واعطوا مائة درهم الى صاحب القداح فاجلها اي خلطها ثم استخرج واحداً منها فان خرج « امرني ربي » فبلوا الامر الذي استخاروا فيه وان خرج « نهاني ربي » لم يفعلوه . وان كانت الاستخارة في نسب وخرج « منكم » الحقوه بهم . وان خرج « من غيركم » اخرجوه منهم ، وان خرج « ملصق » كان النسب المدعي به افتراء ، وان كانت الاستخارة في العقل وخرج « العقل » تحملوه . وهذا الذي ذكره الخازن مؤيد بروايات قديمة على اختلاف في التفصيل لا يخرج في جوهره عما نلخصناه . وواضح من هذا ان هذه العادة ذات صبغة دينية ؛ إذ كانوا يحلون الازلام عند اصنامهم كما تمام يستشيرونها ويستخيرونها ، ويطلبون منها بيان ما هو مقسوم لهم وفيه الخير والبركة ، وحينما تظهر النتيجة يعتبرونها حكم الآلهة اورأيهم وقسمهم ، وهذا سبب التشديد في حظر هذه العادة وسلكها في سلك الشرك كما هو المتبادر .

- ١٥ -

ومنها الطيرة او التطير . ولقد ذكر التطير في بضع آيات في سياق قصص

الأنبياء كما نرى في ما يلي :

١ - فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن

الأعراف ١٣١

معه . . .

٢ - قالوا طيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل انتم قوم تفتنون . النمل ٤٧

٣ - قالوا انا تطيرنا بكم ائن لم تنتهوا انرجمنكن وليمسنكم منا عذاب اليم .

ياسين ١٨

والآيات وان لم تكن في صدد وجود هذه الهاجسة عند العرب فان ورود

الكلمة الدالة عليها من جهة وروحها من جهة اخرى يدلان على ان مفهومها كان معروفاً عندهم . ومع ذلك فقد ورد في القرآن آية تحكي اقوال بعض المناققين للنبي

(ص) وتحتوى هذا المعنى وهي :

« وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من

النساء ٧٨

عندك . . .

وقد قال المفسرون (١) في تفسير آيتي الاعراف والنمل أن الطيرة أو التطير مشتق من « الطائر » وانها تعني في الآيتين التشاؤم ، وان من عادة العرب أن يتفاءلوا ويتشاءموا من مرور الطائر ازاءهم ، فاذا خرجوا لسفر أو عزموا على أمر ومر طائر عن يمينهم تفاءلوا وأتموا سفرهم أو عزمهم ويسمونهم « صالحاً » ، وإذا مر عن شمالهم تشاءموا وعدلوا عن سفرهم أو عزمهم ويسمونهم « بارحاً » . ولعلمهم كانوا يعتبرون مرور الطائر إعلاناً من الآلهة لرضائهم أو عدمه عما اعتزموا .

وفي العقد الفريد (٢) حديث مروى عن النبي (ص) جاء فيه من رأى من الطير شيئاً يكرهه فقال اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك لم يضره . وفي تفسير الخازن (٣) حديث نبوي آخر جاء فيه « العيافة والطيرة والطارق (٤) من الجبت » والجبت هو الشرك . فهذان الحديثان يؤيدان ما قلناه من وجود هذه العادة عند العرب قبل البعثة ؛ فضلاً عن ما ورد في الكتب العربية من روايات واخبار عنها .

- ١٦ -

ومنها التعاويد والرقى ، والطب الروحاني . فقد ورد في القرآن بضع آيات أمرت بالاستعاذة من شر الشيطان وهزاته والحساد وظلمات الليل والنفاثات في العقد كما ترى فيما يلي :

١ - وقل رب أعوذ بك من هزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون .

المؤمنون ٩٧-٩٨

٢ - قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب .

(١) الطبرسي والزمخشري .

(٢) ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) في سياق تفسير آيتي النساء ٦٠ و٧٦ .

(٤) العيافة = نوع من كشف الغيب . الطارق = مثله .

ومن شر الغفائث في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد . . . سورة الفلق
 ٣٣ — قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس
 الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس . . . سورة الناس
 وهذه الآيات وإن لم تكن هي الأخرى في صدد تقرير ما جعلناه عنواناً للفقرة
 قبل البعثة فإنها تلهم أن مراميها بعث الطمأنينة في النفس بعد استعاذة المستعبد بالله
 من الشرور الخفية ؛ وهذا يمت إلى ذلك العنوان كما هو واضح ، ويسوغ القول
 بأن أهل بيعة النبي (ص) الذين كانوا أول من سمع الآيات ليسوا بعيدين عن
 مفهومها ودلالاتها .

وفي سورة التوبة آية تشير إلى ما تحدثه صلوات النبي (ص) أي دعواته من
 سكينه نفسية وهي :
 « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلواتك مسكن
 لهم والله سميع عليم . . . التوبة ١٠٣

وهذا يمت إلى العنوان بشيء من السبب كما هو المتبادر .
 على أنه يوجد في كتب التفسير وغيرها ما يمكن الاستئناس به في تقوية القرائن
 القرآنية . ففي الطبرسي في تفسير سورة الفلق إنه أريد بالاستعاذة من شر الحاسد
 شر نفسه وشر عينه فإنه ربما أصاب بها فماب وضر ، وأنه قد جاء في حديث نبوي
 « أن العين حق » وإن النبي (ص) كثيراً ما كان يعوذ الحسن والحسين (رض)
 بأموذتين ، وفيه كذلك صيغة رقية منسوبة إلى جبريل ومروية عن عائشة وابن
 عباس (رضي) هذا نصها :

« باسم الله أرقمك . من كل شر يؤذيك . من حاسد وعين الله تعالى يشفيك »
 وفي العقد الفريد (١) حديث نبوي مروى عن أنس بن مالك (رضي) جاء
 فيه أنه « من قال إذا أمسى وأصبح أعوذ بكلمات الله التامات المباركات التي لا يجاوزهن
 بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يرمج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض
 (١) ج ٢ ص ١٥٥ وج ع ص ٢٩٤-٢٩٥ والحديث المروي في الجزء الثاني

مروي في الجزء الرابع في قصة عن خالد بن الوليد (رضي) .

ومن شر ما يخرج منها لم يضره شيء من الشياطين والهوام» .
 وفي أسد الغابة (١) في ترجمة عمرو بن حبه الصحابي (رضي) انه كان يرقى من
 الحية وانه جاء الى النبي (ص) وسأله عن ذلك فقال له وما تقول ، فلما سمع منه قال
 لا بأس بهذه هذه موثيق ؛ وانه جاءه رجل آخر من الانصار فقال يارسول الله اني
 أرقى من العقرب فقال النبي (ص) من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل .
 وفي مسند ابن أبي شيبة على ما جاء في العقد الفريد (٢) حديث نبوي جاء فيه
 « لارقة الا من عين او حمة والحمة السم » وكذلك في العقد (٣) خبر مفاده ان ابا
 بكر (رضي) دخل على عائشة (ص) وهي مريضة وعندها يهودية ترقىها فقال لها
 ارقىها بكتاب الله .

كذلك فان الأحاديث والأخبار الواردة في نفع الآيات والسور القرآنية في
 شفاء الأمراض وازالة قلق النفس واضطرابها وسكونها بسبب ما يكون طرأ عليها
 من خوف وهياج في حالة حملها وتلاوتها والرقية بها كثيرة استفاضت في كتب التفسير
 والحديث ؛ فكل هذا يحتمل ان لم نقل يرجح ان يكون استمراراً لمعادات كانت
 قبل البعثة . والمعقول أن الرقى والتعاويذ اذ ذلك كانت تمت بسبب الى الوثنية والارواح
 الخفية والجان حيث كان يعتقد بمسهم وينفع الاستعاذة بهم ، فقلوبها الاسلام الى
 الاستشفاء بالقرآن والاستعاذة بالله تعالى .

— ١٧ —

ومنها الأحلام وتعبيرها : فقد ورد في القرآن آيات عديدة حول ذلك . منها
 ماورد في صدد قصة ابراهيم (ص) وولده الذبيح كما ترى :
 « فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى
 قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أساموا لله للجبين .

(١) ج ٤ ص ١٠١ وفي أسد الغابة كذلك ج ٤ ص ١٧٣ في ترجمة فالك بن
 عمرو انه كان يرقى من العين وانه عرض رقيقته على النبي (ص) فأذن له ودعا له بالبركة .

(٢) ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٣) ج ٤ ص ٢٩٥ .

ونادياها أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجري الحسنين. الصافات ١٠٣-١٠٥
ومنها ماورد في قصة يوسف كما ترى :

١ - إذ قال يوسف لآبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر
رأيتهم لي ساجدين يوسف ٤

٢ - وكذلك يجتبيك ربك ويملكك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك
وعلى آل يعقوب يوسف ٦

٣ - ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنني أراني أعصر خمراً وقال الآخر
إنني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من
الحسنين . . . يوسف ٣٦

٤ - يا صاحبي السجن أما أحركا فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصاب فتأكل
الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . . . يوسف ٤١

٥ - وقال الملك إنني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات
خضر وأخر يابسات يا أيها الملاء افتوني في رؤياي إن كنتم لارأي تعبرون . قالوا
أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . . . يوسف ٤٣-٤٤

٦ - يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع
سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك
سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام
فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . . يوسف ٤٦-٤٩

٧ - ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي
من قبل قد جعلها ربي حقاً . . . يوسف ١٠٠

ومنها ماورد عن رؤيا النبي (ص) دخوله المسجد الحرام قبل الفتح كما ترى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين
محللين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . . . الفتح ٢٧

ومنها ماورد عن رؤيا النبي (ص) العدو في وقعة بدر كما ترى :

« إذ يريدكم الله في منامك قليلاً ولو أراكم كثيراً لفشتم ولتنازعتم في الأمر
والكن الله سلم إنه علم بذات الصدور . . . »
الإنفال ٣٤
فهذه الآيات تقرر حقيقة عامة ومعروفة في كل وقت ومكان ، وهي رؤية الناس
الأحلام في منامهم وما يمكن أن تحدثه في النفوس أحياناً كثيرة من هواجس
تجعلهم يفكرون في تأويلها ، والرجوع إلى من عندهم مواهب خاصة في تعبير الرؤيا .
ينشدون عندهم طلائع النبوة النفس وراحة البال .

وطبيعي أن لا يكون العرب قبل البعثة بدعاً في هذا . واسلوب الآيات التقريرية
يمكن أن يعد من ناحية نطاق الكتاب قرآني قرآنية على ما كان عند العرب قبل
البعثة من مفهوم للأحلام وأثرها في النفوس وتأويلها وصلة ذلك بالهواجس النفسانية ؛
تمشياً مع الحقيقة أن ما ورد في القرآن من عبارات ومصطلحات ومفومات قد كان
مما يدخل في نطاق مفومات العرب قبل نزوله .

أما كتب الأخبار والسيرة ففيها الكثير عن الأحلام وما كانت تحدثه من
قلق واضطراب في العرب قبل البعثة ولا سيما في نفوس العظماء ، وكيف كانوا يفزعون
إلى الكهان والعرفان يقصون عليهم رؤاهم ، ويسألونهم تأويلها ، نشداناً للطلائع النبوية
ودفعاً للهواجس والبلابل التي تتسلط عليهم منها . ومما كان من أمر هذه الروايات
بالذات فإنه لا يمكن الماراة في الصورة العامة التي تصورها وهي فزع العرب من
الأحلام وقلقهم ورجوعهم إلى الكهان والعرفان لتعبيرها طلباً للهدى والطلائع النبوية
النفسية . ولقد وردت بعض الروايات التي تقص أن بعض الناس قبل البعثة كانوا
يروون الرؤيا أحياناً الهاماً إنشياً واجب التنفيذ كقصة عبد المطلب بحفر زمزم أولاً
وبوفاء نذره بنج ابنه ثاقباً ؛ وهذه القصة تشبه اعتبار إبراهيم (ص) رؤياه الهاماً
أو أمراً ربانياً .

ويحسن التنبيه على نقطة مهمة في هذا الباب ، وهي ما يلاحظ من فرق بين لفظي
«الرؤيا» و«الأحلام» حيث يمكن أن يلمس منه أن العرب كانوا يطلقون «الرؤيا»
على ما يثير هواجس النفس وما يروونه في حاجة إلى تعبير دون «الحلم» الذي
يطلقونه على الرؤيا العادية المشوشة التي يرونها أضعافاً ويسمون بها بأضعاف الأحلام

كما جاء في آية سورة يوسف (٤٤) ، ولعلمهم كانوا يطلقون « الرؤيا » على ما يبقى واضح الاثر والمعالم في الذهن والنفس ، فيرون أنه لا بد من أنه يمثل حقيقة من الحقائق المغيبة مما لا يكون عادة في جميع الرؤيا والاحلام .
وقد كان مناوئوا النبي (ص) ينعنون ما كان يخبر به من رؤية ملك الله واتصاله به والقراء القرآن عليه بأضغاث الاحلام كما جاء في آية سورة الانبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر... » (٥) إغلا في التكذيب ووصف كون ما يراه هو من نوع الاحلام المشوشة المخططة .

- ١٨ -

ونريد أن نختم اجثا هذا الباب بدرس ما كان في ذهن العرب قبل البعثة عن « النفس » و « الروح » ؛ فان هذين الموضوعين يتصلان بالعقائد اكثر منها بالعلوم والمعارف ؛ وخاصة في عهد ما قبل البعثة .

وسنكون عمادنا في هذا الدرس استعمال الكلمتين في القرآن وما يمكن ان تدلا عليه من دلالات ومدى ؛ تمشياً مع ما قررناه من ان ما في القرآن من دلالات الكلام والالفاظ ومصطلحاتها قد كان مفهوماً على الوجه الذي جاء به في القرآن قبل نزوله .

- ١٩ -

سُخَاوِلًا النَفْسِ

ان في القرآن آيات كثيرة جداً ذكرت فيها كلمة النفس في مواضع ومناسبات ودلالات متنوعة . فمنها ما جاء مرادفاً لكلمة شخص او فرد كما ترى في ما يلي :

١ - واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ... البقرة ٤٨

٢ - واذا قتلتكم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ... البقرة ٧٢
ومنها ما جاء مرادفاً لمعنى ذات الانسان وعينه وشخصه كما ترى في ما يلي :

١ - قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ... الاعراف ١٨٨

٢ - قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه

ومن ضل فانما يضل عليها ... يونس ١٠٨

ومنها ما جاء بمعنى القوة الكامنة في الانسان التي تأمره بالعمل وخاصة بعمل
السوء كما ترى في ما يلي :

١ - فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ... المائدة ٣١

٢ - قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على
ما تصفون ... يوسف ١٨

٣ - وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ... يوسف ٥٣
ومنها ما جاء بمعنى شخصية الانسان الباطنة كما ترى فيما يلي :

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ... المائدة ١١٦
ومنها ما جاء بمعنى حياة الانسان كما ترى فيما يلي :

« إنما يريد الله أن يعذبهم في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كفرون ... التوبة ٨٥
ومنها ما جاء بمعنى القوة التي تكسب الخير والشر كما ترى فيما يلي :

١ - لا يكاف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... البقرة ٢٨٦

٢ - ولو ان لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به ... يونس ٥٤

ومنها ما جاء بمعنى القوة المعدة لتلقى الالهام كما ترى فيما يلي :

١ - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... السجدة ١٣

٢ - ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ... الشمس ٧ - ٨

ومنها ما يلهم انه بمعنى الضمير الذي يلوم صاحبه على الاعمال السيئة كما

ترى فيما يلي :

« لأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ... القيامة ١ - ٢

ومنها ما يلهم انه يحمل دلالة التفريق بين النفس وصاحبها كأنها شيئان متلازمان

ولكن لكل منها وجود خاص ، وكل منها مستقل في ماهيته واثره عن الآخر

كما ترى في ما يلي :

١ - علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ... البقرة ١٨٧

٢ - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا

لذنوبهم ... آل عمران ١٣٥

٣ — انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون. الانعام ٣٤

٤ — اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ... الاسراء ١٤

وفي احدى الآيات ذكرت الكلمة بمعنى الروح التي بها قوام الحياة والتي تنفصل

عن الجسم فيكون الموت أو النوم (١) كما ترى فيها :

« الله يتوفى الأَفسس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها

الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. الزمر ٢٤

وزيد أن نقيده ان في بعض المعاني التي أشرنا اليها صنفه بعض التدخل والتوسع ،

غير أننا لم نر مندوحة عن هذا التصنيف لأننا رأينا في دلالات الآيات ما يساعد عليه .

وإذا كانت الآيات بجملتها وبعموم المعاني التي تدل عليها الكلمة لا تساعد على

تصوير ما في ذهن العرب عن ماهية النفس تصويراً واضحاً وحاسماً وخاصة وقد جاءت

بمعان كثيرة ، فإن الانسان الذي يتمعن في مدى الآيات روحاً ومضموناً على اختلاف

ما احتوته من معان ودلالات يلتمس بوجه عام وحدة في الدلالة على أن النفس قوة

متصلة بالجسم ولكنها شيء آخر عنه ؛ وما جاء في معاني « القوة الملهمة والقوة الملهمة

والقوة الداخلية والقوة السكينة والقوة الوامة والقوة الأمانة والقوة السكينة

وما جاء يحمل الدلالة على التفريق بين الناس وصاحبها ، وما جاء في معنى الروح

وانفصالها عن الجسم وحصول الموت والنوم بهذا الانفصال يقوي ذلك المعوس ،

ويسوغ القول بأن ذهنية العرب قبل البعثة عن « النفس » ودلالاتها ذهنية الذي يفرق

بين النفس وصاحبها ، والذي يعتبر ان النفس قوة خاصة في الانسان ومستقلة عن

جسيمه المادي ؛ تلهمه وتزين له عمله ، وانها قد تكون دافعة الى الخير كما تكون دافعة

الى الشر ، وانها هي التي تتقبل الإلهام ، وتسير صاحبها حسب استعداده ، ثم إنها

هي التي يكون بها قوام الحياة الانسانية وقوام الكيان والادراك الانساني .

ونذبه على ان هذا الشرح انما هو في الحقيقة ما يتبادر انه ما في ذهن العرب عن

وجود النفس وأثرها ، وايس هو بسبيل وصف ماهيتها ؛ فانه ايس في القرآن ما يساعد

على معرفة مدى ماهيتها في ذهنهم .

(١) اقرأ تفسير الاية في الطبرسي مثلاً .

وثانياً الروح :

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكرت فيها كلمة « الروح » بأساليب ومواضع متنوعة .
منها ما جاء في تسمية او وصف جبريل عظيم الملائكة على ما ذهب اليه جمهور المفسرين كما ترى في ما يلي :

١ - « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا . النحل ١٠٢

٢ - فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرآسوايا
قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لا أهاب لك
علماً ذكياً ...
مریم ١٧ - ١٩

٣ - نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين ...

الشعراء ١٩٢ - ١٩٣

٤ - يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال
صواباً .
النبا ٣٨

ومنها ما جاء بمعنى أمر الله ووحيه كما ترى في ما يلي :

١ - ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنه لا
إله إلا أنا فاتقون ...
النحل ٢

٢ - رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده
لينذر يوم التلاق ...
غافر ١٥

٣ - وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا
الايمان ...
الشورى ٥٢

ومنها ما جاء بمعنى نصر الله وتأييده كما ترى فيما يلي :

وايئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ...
ومنها ما جاء بمعنى نسمة الحياة التي يبثها الله في الاحياء وبثها الله في آدم ومریم
كما ترى في ما يلي :

١ - فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ... الحجر ٢٩

٢ - والتي أحصت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنة آية

للعالمين ...

ومنها ما جاء اجابة على سؤال اورد على النبي (ص) عن ماهية الروح كما

ترى في ما يلي :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا

قليلاً .

والآيات الواردة في الفقرتين الاوابين ليست كما هو واضح في صدر الروح التي

جرى العرف على انها هي التي تحقق بها حياة الانسان او الاحياء ، وانما هي في صدر

الدلالة على ملك الله ووحيد ؛ وكلاهما من باب واحد ؛ وبناء على ما قررناه في مناسبة

سابقة في صدر تعبير « روح القدس » يصح ان نقول هنا مع كون هذا التعبير

مترجماً عن العبرانية فن العرب في بيئة النبي (ص) قبل البعثة كانوا على الارجح

يفهمون الدلالات التي جاءت في الآيات .

كذلك آية المجادلة الواردة في الفقرة الثالثة فانها ليست في صدر روح الحياة ؛

ونرجح ان العرب كانوا كذلك يفهمون الدلالة التي جاءت فيها

اما الآيات الواردة في الفقرتين الرابعة والخامسة فهي التي في صدر روح الحياة

التي هي جوهر البحث هنا ، ومن الحق ان نقول انه ليس فيها ما يساعد على فهم

ما في ذهن العرب عن هذه الروح ؛ غير أن آية الاسراء بنوع خاص تصور حيرتهم

التي شاركهم فيها غيرهم دائماً في هذه « الروح » اولاً ، وتساعد على القول إنها كانت

من الامور التي يسمون بوجودها على حيرة من أمرها وصفها وماهيتها ثانياً ، ولعل

آتي الحجر والانبيا قد تلهان ان العرب كانوا يفهمون دلالة « غير المادية » في الكلمة ،

وانها تطرأ على الجسم المادي الذي لا حياة فيه فتدب فيه الحياة ؛ وفي آية الزمر (٤٣)

التي نقلناها في بحث النفس والتي جاءت فيها كلمة النفس مقابل معنى الروح التي بها

قوام الحياة واليقظة قريبة مؤيدة بشكل ما ؛ حيث تضمنت معنى انفصال الروح

عن الجسد وعودتها اليه فيكون من الانفصال الموت والنوم ومن الاتصال الحياة واليقظة ، وليس في هذا على كل حال صلة بالماهية التي حاربها العرب وصورسؤالهم عنها حيرتهم .

هذا من جهة دلالة الكلمة وما في ذهن العرب عنها . غير ان هناك نقطة جديدة بالبحث وهي ما اذا كان العرب تصوروا للروح خلوداً بعد تسليمهم بوجودها واثرها وصلتها بالحياة والموت واليقظة والنوم ، واستقلالها عن الجسم وعدم ماديتها . ومن الحق ان نقول انه ليس في القرآن ما يساعد على الاجابة ايجاباً على هذا السؤال ، ونذكر هنا بما اوردناه في الفصل الخامس من هذا الباب من نصوص كثيرة ونبينا على ما في القرآن من نصوص كثيرة اخرى تحكي عنهم او بالاحرى عن اكثريتهم العظمى استنكار عقيدة البعث بعد الموت ، وعدم اساعتهم ذلك في حال . وقد تحفظنا فقلنا اكثريتهم العظمى لأننا نرجح ان فريقاً منهم وخاصة فئة الموحدين واتباع ملة ابراهيم ، والمستنيرين الذين احتكوا بالكتابين كانوا يعتقدون بخلود الروح على النحو الذي كان عند الكتبيين ، وان اندماج الفريق المستنير المناوئ للنبي (ص) في الاستنكار وعدم الاساغة انما كان لأن العقيدة عند الكتبيين لم تكن واضحة ، وما جاء من اوصاف الحياة الاخروية المفصلة في القرآن قد جاء جديداً عليهم انفسهم .

على ان من الحق كذلك ان نقول انه من غير المعقول ان يكون العرب ونعتي اكثريتهم العظمى تلك قد سلموا واقروا بعدم مادية الروح ، وبأثرها السلبى والايجابى في الحياة ، وبأنفصالها واتصالها المتكررين بالجسد ولا يكونون قد تصوروا خلودها بشكل ما . واذا كان ليس في القرآن ما يمكن ان يساعد على هذا بصراحة فأن في الاخبار والروايات الكثيرة المتنوعة ما يمكن الاستئناس به على ذلك . فلقد كانوا يشيخون موتاهم الى المقابر ويزورون قبورهم ويرشون ترابها بالماء ويجلسون عندها ، ويتاجون موتاهم ، ويرونهم في المنام فتحدث رؤياهم في نفوسهم الاضطراب والحيرة ، ويفكرون في ايقاع عند قبورهم يوم إعادتها لركوبهم حينما تمود اليهم

ارواحهم ، ويهتمون أعظم اهتمام لاخذ ثمار قنابلهم واسكات همامتهم التي تظل
تصرخ طالبة السقيا مادام دم أعصابها مطلولاً الى غير ذلك من الصور والاختبار
المنشورة في الكتب العربية على اختلافها ، ولا تجوز اذقلنا - منها كانت المآخذ على
الروايات صحيحة من حيث تدوينها وظروفها ووقائعها - إنها ترديد لما كانت عليه
الحال ، وبصحة كونها قرائن على وجود عقيدة خلود الروح بشكل من الاشكال
وعدم فنائها وانحلالها أسوة بالجسد في اذهان العرب بوجه عام قبل البعثة .



فهرست الكتاب

	الصفحة	
المقدمة بواعث تأليف الكتاب وظروفه وأسبابه .	٢٤	٥
الباب الأول في الاقليم والسكان ويتألف من ثلاثة فصول	١٢٦	١٥
الفصل الأول في الحجاز وأهله :	٥٠	١٦
الاقليم - المدن - البدو - الجنس العربي وشموله - اللغة القرآنية واللغة العربية وشمولها .		
الفصل الثاني في الحركة الاقتصادية والمعاش	٩٤	٥١
النشاط التجاري في المدن الحجازية - النشاط الزراعي - النشاط الصناعي - معاش العرب المتنوعة .		
الفصل الثالث في الجاليات الأجنبية :	١٢٦	٩٥
نصارى اعاجم في مكة - اسرائيليون في مكة - اسرائيليو المدينة وحياتهم وأخلاقهم وأثرهم - نصارى اعاجم في المدينة .		
الباب الثاني في الحياة الاجتماعية ويتألف من أربعة فصول	٢٣٦	١٢٧
الفصل الأول في حياة الأسرة .	١٥٦	١٢٨
الرجل والمرأة - عادات وتقاليد عائلية - عادات متنوعة أخرى .		
الفصل الثاني في العصبية الاجتماعية :	١٨٠	١٥٧
عصبية الاقارب والارحام - عصبية القبيلة - عصبية التحالف - عصبية الولاء - عصبية الجوار - عصبية التقاليد		
الفصل الثالث في الحج والأشهر الحرم :	٢١٤	١٨١

الحج والعبادة - علاقتهما بإبراهيم (ص) في التقاليد العربية - أثرهما في حياة مكة وأهلها - عادات وتقاليد متنوعة متصلة بهما . الأشهر الحرم - خطورتها في حياة العرب .		
الفصل الرابع في نظام الحكم والطبقات :	٢٣٦	٢١٥
السلطات في مكة والمدن الأخرى - في البادية - القضاء في الحجاز وعادات متنوعة له - وجود تفاوت طبقي في الحجاز - الرق والرقيق .		
الباب الثالث في الحياة العقلية ويتألف من ثلاثة فصول .	٣١٦	٢٣٧
الفصل الأول في اللغة واللغة القرآنية ومدى دلالتها على قوى العرب العقلية تمثيل اللغة القرآنية لعصر النبي وبيئته - فنون اللغة المتنوعة ومداهها .	٢٦٤	٢٣٨
الفصل الثاني في العلوم والمعارف ووسائلها :	٣٠٠	٢٦٥
القراءة والكتابة في الحجاز - اللغات الأجنبية - المعارف التاريخية والجغرافية والفلكية والزراعية والحسابية - الكهانة والسحر ودلالاتها - الحكمة ومفهومها .		
الفصل الثالث في مواقف المشاقة ودلالاتها على قوى العرب العقلية .	٣١٦	٣٠١
المشاقة في العهد المكي وصور قرآنية عنها - في العهد المدني وصور قرآنية عنها .		
الباب الرابع في العقائد والأديان ويتألف من ثمانية فصول		٣١٧
الفصل الأول في الشرك :	٣٣٨	٣١٩
الشرك عقيدة العرب العامة - أنواع الشرك والشركاء -		

مدى ودلالة تسمية الشركاء وتمازجهم - ظاهرة التطور الديني من خلال الشرك		
الفصل الثاني في المعبودات المادية :	٣٥٣	٣٣٩
مدى ودلالات الفاظ الأوثان والأصنام والآثيل والأنصاب - الأسماء الواردة في القرآن لأصنام العرب .		
الفصل الثالث في الملائكة وعقائد العرب فيهم :	٣٧٠	٣٥٤
حفاوة القرآن بالملائكة - ماهيتهم في أذهان العرب - عقائد العرب المتنوعة فيهم - العرب والتجريد في العقيدة - ظاهرة خطوة تطورية دينية . قصة سجود الملائكة لآدم ومداهها .		
الفصل الرابع في الجن وعقائد العرب فيهم :	٣٩٥	٣٧١
عقائد العرب المتنوعة في الجن ومبناها - أفسكارهم ومعارفهم عنهم - إبليس والشيطان - قصة إبليس في القرآن .		
الفصل الخامس في عقيدة العرب بالله وتمييزهم بمثة نبي فيهم .	٤١٨	٣٩٦
اعتراف العرب بالله وخطورتها ودلائله على التطور الديني - تمحي العرب بمثة نبي ودلائلها وخطورتها - تحاليل لتناقض العرب بين هذا وموقفهم من النبي .		
الفصل السادس في الصابئين والصابئين واتباع ملة ابراهيم :	٤٣٤	٤١٩
الصابئون - الحنفاء والحنيف - حفاوة القرآن بملة ابراهيم ودلائلها - استطراد المنشأة النبي قبل بمثته - صورة شاملة لتطور الحركة الدينية العربية قبيل البعثة .		
الفصل السابع في اليهودية والنصرانية وانتشارها وأثرها:	٤٦٩	٤٣٥
اليهودية في عرب الحجاز واليمن - أثرها - دلالة مواقف اليهود الحجاجية - مظاهر أخلاقية ودينية يهودية - النصرانية في		

عرب الحجاز - في غيرهم - أثرها - مظاهر اخلاقية ودينية
نصرانية - الروح القدس - التوراة والانجيل .
الفصل الثامن في الطقوس والعادات والافكار الدينية المتنوعة
عبادة الشمس والقمر والكواكب - عبادة النار - الصلاة
- الصيام - الاعتكاف - رمضان - الجمعة - الاضاحي الدينية -
الانعام - الهواجس النفسية المصبوغة بالصبغة الدينية -
النفس والروح .

٥٠٣

٤٧٠

